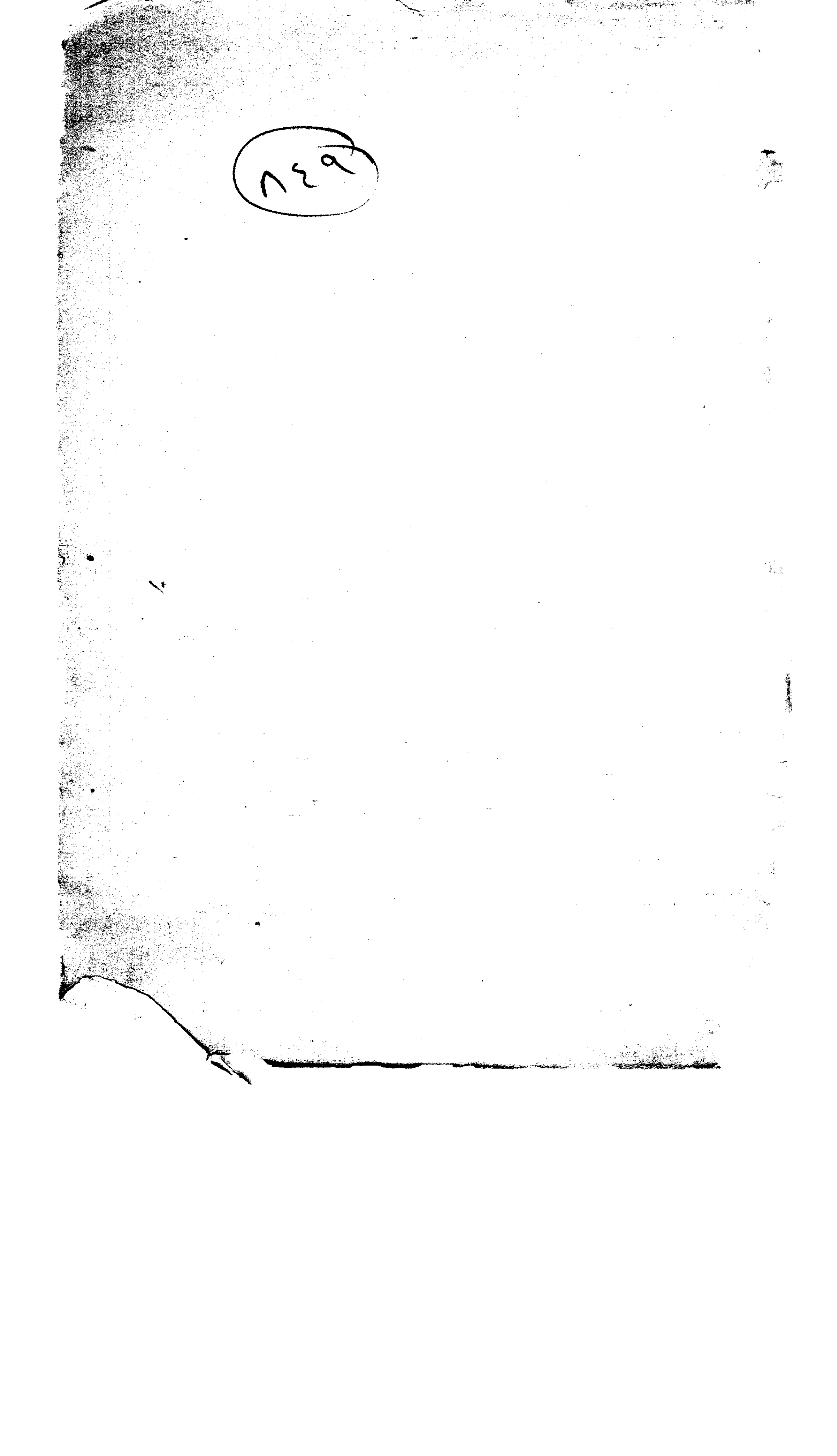

انور الجندي
هذا هو جمال
مكتبة المعارف في بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا هو جمال ..

البطل الذي وحد الأمة العربية
وجمع كلمتها وحررها من الاستعمار
المعنوي والمادي ودفعها إلى الطريق
الصحيح : طريق الوحدة الكبرى


١٤٩

إني أرى خيال الشرق يطل على العالم من جديد ،
والذي سيحمل مشعاله نبي : عزمة الأرض في رجليه ،
وقوة السماء في ساعديه ، وبهاء الحق في ناظريه ،
وَوَداعة المعرفة في لسانه ، وَحلاوة المحبة في قلبه .
وسيحمل هذا النبي قلبه على كفه طعامًا لكل جائع .
فيأكلون منه في الغرب ويتهمون وَيتناولون منه في
الشرق ويحيون . وَلَنْ يُصلب .

« ميخائيل نعيمه »

مِن بني مُرّ ..
إلى الجمهوريّة العربيّة المتحدة ..

فجر حياة

« انا جمال عبد الناصر افخر بان عائلتي لا تزال من بني مر مثلكم انتم . تعمل وتزرع وتقلع من اجل عزة هذا الوطن وحريته . انني افخر دائما بانني واحد من اهالي بني مر . وافخر اكثر من هذا بانني من عائلة فقيرة نشأت في بني مر . وانا اقول هذا لاسجل ان جمال عبد الناصر نشأ مـن عائلة فقيرة واعاهدكم ان جمال عبد الناصر سيستمر حتى يمـوت فقيرا في هذا الوطن » .

ظهر جمال عبد النـــاصر من تلك الطبقـة التي لم تلوثها وراثيات حكم الأتراك ، ولا حكم الفرنسيين ، و لاحكم الانجليز . الطبقة التي عاشت بعيداً عن المدنية الفاجرة ، والحضارة المترفة . فنشأ ابناؤها ذوي اعواد صلبة ، وهامات فارهة . ووجوه لوحتها الشمس ، عليها طابع الفلاح ، الفلاح المصري الأصيل .

إن جمال هو ابن الفلاح المصري العربي الأصل، هذا الفلاح الذي ظل منحنياً على الأرض يحرثها بجهاده وعرقه وكفاحه ليخرج من قلبها القمح والقطن والذرة. وليعيش هو على أقل القليل منها، حيث يذهب عرقه وكده الى ذلك الاقطاعي الظالم.

وفي أعماقه خلاصة من هذا الماضي الطويل . الفلاح النقي الأصيل ، الذي لم يتلوث ، الذي عاش على القليل حامداً الله ولكنه مـــع ذلك لا ينسى ظالميه : الاقطاعي المستبد ، والمستعمر المتسلط .

وليس في مصر كلها مجد ممتد متصل بالأجداد ، إلا مجد هذا الفلاح المصري

الذي لم تستطع المدنيات المتوالية على مصر ان تذهب روحه القوية المؤمنة الصادقة وتصميمه القوي :

من صلب هـذا الفلاح نشأ « عمر مكرم » الذي هزّ القلعة على الحاكم التركي « خورشيد » ، واستطاع أن يعزله ويعلن هذا المبدأ القوي لأول مرة في تاريخ العرب الحديث ، وهو أن من حق الشعب ان يعزل الحاكم الظالم .

ومن صلب هذا الفلاح خرج « احمد عرابي » الذي هزّ ساحة عابدين ،وألقى على مسمع الخديوي ، لأول مرة في تاريخ الخديويين والحاكمين من أسرة محمد علي تلك العبارات المزلزلة : « لقد خلقنا الله احراراً ولن نستعبد بعد اليوم » .

ومن أعماق هذه الشخصية العربية ظهر مصطفى كامل ومحمد فريد في مصر ويوسف العظمة وابراهيم هنانو في سوريا وعبد القـادر الجزائري وعبد الكريم في المغرب .

إن جمال عبد الناصر هو عصارة هذه الشخصية العربية بكل ما في الكلمة من معنى . وهو خلاصة هـــذه الارض الطيبة ، بنسبه وسحنته وقوامه ، مصر العربية ، مصر الاسلامية .

انه خلاصة لهذا التاريخ الطويل لهذا الوطن العربي ، حيث أرض النيـل وبردى ودجلة والفرات ، والذي تكونت خلال سنواته الطوال واجياله المتعددة هذه الشخصية العربية الخالصة ببساطتها وصدقها وعمقها ، وايمانها وروحانيتها وعاطفتها .

وخلاصة اخرى لهذا التاريخ الطويل الذي نشأ في احضان النيل . فقد كان المصريون هم بناة الحضارة الاولى ، وكانوا الدرة اللامعة في تاج الاسلام ، والروح الخفاق في مجد العرب .

وهو ابن هذه الامة الوسط بـين الشرق والغرب . التقت في مصبها جميع التيارات والمذاهب والاقطار والحضارات . وقد مر بها الفاتحون والقادة والغزاة فأخذت منهم واعطتهم وظلت لها شخصيتها الخالصة قوية حية .

ان جمال عبد الناصر هو ابن مصر العربية التي كانت تسيغ الحضـــارات

وتهضم الثقافات ، التي ترد من الشرق والغرب ، فتذيبها في بوتقتها ، ثم تظـل محتفظة بطابعها العربي الصميم .

مصر التي لم تغلق بابها في وجه اي ضياء جديد يأتيها من الشرق والغرب ، ولكنها كانت قادرة في كل العصور على أن تأخذ خير ما في هـذه الحضارات ، ولا تدع لقوة من قوى الفاتحين او الطاغين سلطاناً على طابعها النفسي وروحهـا المعنويـة .

وفي جمال صورة المصري العربي : الوضوح في التفكـير ، والعزوف عن التعقيد ، وفيه الروحية المؤمنة بالله ، الواثقـة بنصره . وفيه العمق والتنسيق والتوحيد .

إن في دمه ذلك الروح القديم المنبعث من روح العروبة الأصيل . لقد آمن جمال عبد الناصر بالشخصية العربية إيماناً قوياً . آمن بعظمة الأمة العربيـة منذ كانت قوة ضخمـة تلمع في سماء الشرق كدرّة . إن في دمه ذلك العربي القديم الذي وقف موقف الحزم والثبات أمام الجموع الاجنبية التي تدفقت على بلاده ، ثم عزم على مطاردتها . فيه دم أولئك الذين طاردوا الحملات الصليبية حملة بعـد حملة ،والتتار جولة بعد جولة . وقاوم شراذم الغزاة طوال ألف عام.وفيه روح « الاسلامية » التي تكاملت شخصيتها بعد الاسلام . لقـد حمل العرب رسالة الاسلام الى المنطقة كلهـا ، وحملوا معها الاخوة والترابط والتعاطف والعدالة والوقوف صفاً واحداً أمام العدو المشترك الذي كان لا ينى يغير على البلاد مرة بعد أُخرى .

لقد عاشت في اعماقه وفي دمائه قصة الكفاح العربي كله ، كل البطولات : صلاح الدين وعمر مكرم واحمد عرابي ويوسف العظمة وابرهيم هنانو وعبدالقادر الجزائري وصلاح الصباغ ومصطفى كامل ومحمد فريد .

وعاشت في اعماق جمال صورة البطولة العربية ، التي طاردت الهكسوس ، وهزمت الصليبين ونازلت المغول .

وعاشت في اعماقه صورة الجيش العربي في امتزاجه وارتباطه ، وفي بطولاته

المتعددة .

كان الجندي العربي يدافع ببسالة ولا يستسلم ، ويبني الحصون والمعاقل والقلاع في القاهرة وحلب وسامرا . كان يجاهد في رد عدوان الغزاة ويقتحم المواقع الفاصلة ، ويحرس الشواطىء والحدود ويدحر الخصوم . لقد كان في كل مكان قوة لا تنسى وبطولة تذكر بالاعجاب .

ففي موقعة « عين جالوت » حمى جيش العرب أرض العرب، ورد العدوان الطاغي الذي ظل يندفع ويحطم اربعين عاماً . حمى جيش العرب الحضارة الاسلامية من ان تتحطم على صخرة التتار الجبارة . ووقفت العروبة برجالها وصناديدها في وجه الجيش الضخم الذي ساقه هولاكو وتيمورلنك من قلب آسيا.

وفي «نصيبين» حيث هزم الجيش العربي ، الجيش التركي ، وفي «نفارين» حيث حارب جيش العرب جيوش اوربا مجتمعة . وفي كل مكان ذهب فيه كانت له البطولة والنصر[1]. وعاشت هذه الرؤى والقصص والوقائع والانتصارات كلها في ضمير جمال عبد الناصر . كما عاشت في اعماقه صور اخرى .. كان يكرهها ويتمنى أن يحرر وطنه منها . هي صور الطغيان الذي عاناه هذا الوطن ، صور الطغاة والظلام من الحكام المستبدين والملوك والخديويين والولاة .

ولد جمال عبد الناصر في ١٥ يناير ١٩١٨ في تلك اللحظات الحاسمة من تاريخ الشرق العربي بل وتاريخ العالم كله. ففي هذا العام انتهت الحرب العالمية الاولى، واعلن «ولسون» أمام قبر وشنطون مبادئه التي خدع بها العرب .

قال ولسون : « ان عهد الفتوحات والتوسعات قد مضى وانقضى . وأصبح من الممكن لكل امة تتفق آمالها مع العدل ، وسلام العالم ، ان تصرح الآن او في أي وقت من الاوقات بالاغراض التي تصبو اليها . وان دعائم العدل الدولي يجب ان تركز على مبدأ تقرير العدل بالنسبة للشعوب قاطبة، ولكل الجنسيات،

---

١ ــ قال جمال عبد الناصر في خطاب الوحدة : « من بين الشواهد او الادلة ان جيش الفلاحين الذي سار تحت قيادة ابراهيم باشا ليحرر سورية من الظلم العثماني كان يسمي نفسه «الجيش العربي» .

لا فرق بين قويها وضعيفها .

وفي هذا العام عقدت الهدنة « ١١ نوفمبر ١٩١٨ » .

وكان العرب قد قبلوا العمل مع بريطانيا وحلفائها بعد ان وعدتهم باقامة الدولة العربية واعلنوا الحرب على الاتراك ، ثم تبين لهم مدى الخداع والمكر والظلم .

وكان فؤاد قد ولـّـي سلطاناً على مصر بتبليغ بريطاني . وكان ابطال الوطنية المصرية في منفاهم خارج مصر، وفي مقدمتهم الزعيم «قديس الوطنية» محمد فريد . وكان لكفاحه مع زميله مصطفى كامل الاثر القوي في روح الثورة المصرية التي اندلعت من بعد .

وفي سوريا كان المجاهدون يعملون تحت الارض ، جمعياتهم السرية تكافح في سبيل تحرير الشام من ربقة الاستعمار التركي. وكان شكري القوتلي وابرهيم هنانو ويوسف العظمة يقاومون الغدر البريطاني .

وذهب الوفد المصري الى باريس فلم يعترف به مؤتمر الصلح .

وذهب الوفد السوري الى باريس فلم يعترف به مؤتمر الصلح .

ولما بعث السوريون والمصريون الى «ولسون» يسألونه تفسيراً قال لهم : «انه لم يكن يعنيهم بتصريحه» .

وفي هذا العام حدثت مقابلة ١٣ نوفمبر ١٩١٨ بين سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلي شعراوي وممثل دار الحماية في مصر السير «رجلند ونجت» المندوب البريطاني . وهي المقابلة المخزية التي ظلت الاحزاب تحتفل بها مدى ثلاثين عاماً كيوم من الايام الخالدة المشرفة ، حتى جاء « عبد الناصر » فالغى هذا « العيد » المؤسف .

وتألف في هذا العام الوفد المصري وبدأ يجمع توكيلات من الامة لها صيغة هزيلة هذا نصها :

«نحن الموقعين على هذا قد انبنا عنا.. في ان يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجد للسعي سبيل في استقلال مصر تطبيقاً لمبادىء الحرية والعدل التي تنشر

رايتها دولة بريطانيا العظمى وحلفاؤها » .

وهكذا يمكن القول بأن « جمال عبد الناصر » ولد في أتون الحوادث . وفي اللحظات الحاسمة في تاريخ العرب . وفي فجر ثورات ١٩١٩ في مصر و ١٩٢٠ في العراق وسوريا ، حيث وضع الزعماء الذين قدمهم الاستعمار البريطاني في مصر والعراق والاستعمار الفرنسي في سوريا ولبنان الماء على نار الثورة، وقتلوا روحها التي كانت خليقة بأن تدفع العرب الى الامام بقوة ، لو قام على حراستها رجال في مثل امانة رجال ثورة ٢٣ يوليو .

ولد جمال عبد الناصر في معمعان ثورة ١٩١٩ وقد أدى أهله دورهم كغيرهم من ابناء هذه المنطقة في هذه الثورة التي اشتركت فيها جميع طبقات الشعب ، واندلعت في وقت واحد في جميع انحاء مصر وفق أسلوب منظم مرتب ، تجلت فيه معنوية الشعب واعتمدت على روحه وقوة ايمانه .

ولا شك ان جمال قد سمع من اهله في بني مر انباء هذه الثورة . فقد ظلت حديث الآباء امداً طويلا . سمع انباء الدور الذي قامت به اسيوط والبلاد المجاورة لها . ولقد هزت أحداث ثورة ١٩١٩ الانجليز في كل مكان من ارض مصر ، على نحو من الايمان والاستماتة في سبيل الحرية ، هذه الروح التي تبلورت في جمال عبد الناصر .

قامت اسيوط حيث اهل جمال عبد الناصر واعمامه بدور ضخم استمر طويلا . بدأ بحريق الكميات الهائلة من التبن المكدسة لحساب السلطات العسكرية فالتهمتها النار وتصاعدت ، وكان لها منظر مفزع استمر عدة ايام ، وهجم الثوار على مركز البوليس في المدينة واخذوا منه السلاح ، وهاجموا القوات البريطانية فيه . وتفاقمت الحال في اسيوط . وهوجم المكان الذي اعدته السلطة البريطانية لتتحصن فيه . فقد اخترق المهاجمون النطاق واخذوا يطلقون النار على الجنود البريطانيين .

وظل هذا الموقف الخطير بين اصرار اهل اسيوط وبين دفاع القوات البريطانية من ١٠ مارس ١٩١٩ الى ٢٤ منه حيث وصلت طائرتان حربيتان الى اسيوط فاشتركتا في اعمال الدفاع ، والقتا بعض القنابل ، فاصابت بعض الاهلين وقتلت

بعضهم . وسارت النجدات الحربية مسرعة من القاهرة الى اسيوط . ولكنها لم تسر في امان بل لقيت مقاومة عنيفة من ديروط من جماعات الثوار على ضفة النيل .

●

ولا بد ان جمال قد سمع قصص هذه الثورة بعد ان شب، وكان في سن الصبا يتفتح للحياة ، وكان لهذا القصص اثره في تكوين شخصيته المكافحة المجاهدة .
وسمع الى ذلك قصصاً تروى عن واقعة عرابي وعن هزيمته بفعل المؤامرة !

وتفتحت روح الشاب اليافع على امرين خطيرين : هذه الحياة التي يحياهـــا الفلاح ، إذ لم يكن جمال من عائلة غنية ولا اقطاعية ، وانما كان من اسرة «مستورة» شعبية متواضعة ، كل رجالها يكافحون ويعملون في الارض وفي التجارة .

وقد رأى جمال هؤلاء الذين يشقون الارض ، ورأى مدى الظلم الذي يعانونه من السادة والاقطاعيين ، وقد سمع قصص القسوة والفقر والحاجة .

ومن اعماق هذه البيئة ترعرعت في نفس جمال مبادىء الرجولة : مبادىء الصعيد في الايمان ورعاية التقاليد وحماية الذمار . ورد الصفعة بأقوى منها ، مع التسامي عن الصغائر والاغضاء الصابر .

ومن هذه المعاني جميعاً تكون الطابع الاول لشخصية جمال . هذا الطابع الذي ظل محتفظاً به طوال حياته حيث قال : « ... أؤكد لكم محافظتي الدائمة على تقاليد الصعيد ، وعلى شرف أهل الصعيد . واعدكم بان اكون في كل ما اعمل مثلاً للرجولة التي اشتهر بها رجل الصعيد ، فلا يخدعني مال ، ولا يغريني مظهر او سلطان . بل سأبقى ما حييت : جمال عبد الناصر ، ابن بني مر ، ابن الصعيد» .

والحق ان الصعيد هو طابع جمال في شخصيته وتصرفاتـــه ، وفي حميته ورجولته ، وفي غيرته على وطنه . لقد اتسعت هـذه المعاني الاقليمية القبلية في شخصيته فشملت مصر ، ثم شملت العروبة كلها . فاصبح يفتدي هــذا الوطن العربي كما يفتدي ابن الريف قريته وعزوته .

وهو يبدو في كل تصرفاته ابن الريف ، الصعيدي الخالص ، الذي تحرر من عيوب الريفية والقبلية ، واستبقى منها الحرص على الكرامة والرجولة والشهامة .

فالصعيدي الأصيل لا يغدر بخصمه . ولا يترك من يستنجد به . ولا يكون البادىء بالعدوان . ولا يدع حقه . ولا يعرف المالأة او المحاباة او النفاق .

وتلك كلها صفات تبدو جلية في تصرفات عبد الناصر .

والصعيدي الأصيل لا يحب اللف ولا الدوران ، مما يسمونه « المرونة » ما دام مؤمناً بأنه على الحق . بل يقول كلمته مواجهة وصراحة . ويستمسك بها ، ويصر عليها ولا يبالي اي النتائج تحدث في سبيل استمساكه بحقه .

وهذه المعاني تبدو واضحة في مواقف عبد الناصر المتعددة مع الانجليز ، ومع الاقطاعيين ، ومع خصومه وانصاره على السواء ..

ففي معمعان الاحداث في مارس ١٩٥٤ قال كلمته الخالدة :

« لن اخادع . لن اضلل . لن استجدي . »

وهذه صفة كنا في اشد الحاجة اليها بعد ان مضى عهد طويل عشنا فيه مع ميوعة اللباقة ، ورقاعة المرونة . ذلك الاسلوب الذي كان يعرفه رجال الغرف الدافئة ، اولئك الساسة القدامى الفاشلون الذين لم يؤمنوا بهذه الامة ، ولم ينشأوا في محيطها ، ولم يستمعوا اليها ، ولم يعرفوا آلامها ، ولم يحسوا بعواطفها ومشاعرها.

اما جمال فقد استمع الى انات الشعب منذ شبابه الباكر ، اذ نشأ في محيط شعبي خالص .

والشيء الثاني الذي تفتحت عليه «مشاعر» جمال عبد الناصر في هذه الفترة من عمره هو ما بعد ثورة ١٩١٩ . لقد شاهد ولمس في هذه السن كيف تحولت الثورة الى مطامع وصراع .

ففي سن الثامنة التي توافق عام ١٩٢٦ - وهو العام الذي قصد فيه جمال الى القاهرة ، كانت السياسة قد قضت على الوطنية ، ونقلتها من روح الجهاد ومقاومة المستعمر الى هذا الاسلوب من المناورات السياسية والصراع الحزبي . وتحول الكفاح من الخارج الى الداخل ، فبعد ان كانت الامة تتجمع كلها لتحارب المستعمر ، تمزقت في معركة داخلية قوامها الشتم والسباب بين الاحزاب .

طلائع الشباب

« ذات صباح ، بينما كان ابوه خارجا الى مقر عمله ، عثر عليه امام البيت ، وهو يحفر الارض بيديه . ونهاه ابوه عن الحفر ، ثم مضى في طريقه .

وعندما عاد من العمل وجد الحفرة الصغيرة قد اتسعت وزادت عمقا ، فسأله : لقد قلت لك لا تحفر الارض فلماذا مضيت في الحفر ؟ واجاب جمال ، وهو يضغط بحاجبيه على جبينه ، فيحوله الى بحر من التجاعيد : اردت ان اعرف يا ابي ماذا تخبيء لنا هذه الارض ، كيف تعطينا والى اين تأخذ منا . »

لما بلغ جمال الثامنة ارسله والده الى القاهرة لتلقي العلم ، فأعجب بجمال القاهرة ، وكثيرا ما كان يتبادل الرسائل مع والديه معبراً عما يخالجه من مختلف المشاعر .

ونضج جمال مبكراً . اعطاه الريف ضعف عمره خبرة وتجربة . هذه اليقظة التي تسمع وتستوعب وتخترق في اعماقها كل تجارب الشيوخ والاعمام والاجداد . فلما وصل الى القاهرة لم يأخذه بهرها رغم انه اعجب بها . كان في نفسه ذلك الطابع الذي ظل يعيش فيه حتى اليوم . طابع الخلوة والتفكير العميق . واعتزال المجتمع الصاخب والعكوف على آمال لم تكن بعد قد وضحت في صورتها النهائية .

كانت رؤى تتمايل في اعماق النفس . كان وراء هذه الرغبة في الخلوة هدف . وكان في العكوف على النفس رسالة ومهمة . مظهرها ما عرف عن جمال حيث

كان في المدرسة الثانوية يهيمن على الطلبة ويفكر في مستقبل مصر ، ويبـدي كراهيته العميقة للاستعمار .

وكان الى ذلك يحب ان يستمع الى رأي الناس . كانت في دمه القيادة ، وفي طبيعته الزعامة . كأنما كان القدر يهيئه لدور . كان يؤمن بانه يستطيع ان يعمل شيئاً .

ولعل هذا المعنى هو الذي دفعه الى آفاق الاحزاب والهيئات يريد ان يصل فيها الى توجيه النصح للزعماء . ليدرس الى أي حد تستطيع هذه الاحزاب اداء واجب الوطن المقدس .

كان جمال يؤمن بنفسه . ويؤمن بمصر . ويؤمن بانه لمصر . ومع ذلك اليوم الذي وصل فيه الى القاهرة ، كان قاسمـاً مشتركاً على جميع حركات التحرير والمقاومة .

وفي خلال هذا الاتجاه الذي كان يكشف شخصية جمال ، وقع حادث هـام له اثره في تكوينه واتجاهه . ذلك ان والدته توفيت في اواخر ١٩٢٦ . وكان جمال يحبها حباً خالصاً عميقاً ، فأثر ذلك في نفسه اي تأثير . وساعـده على الخلوة والتفكير .

وبدأت الحياة تأخذ في نظره مظهراً جديداً .

وامضى جمال عشر سنوات حتى كان عام ١٩٣٧ . كان قد نال شهادة «البكالوريا» من مدرسة النهضة المصرية بالقاهرة ، وكانت درجاته ممتازة ، وكان قد اشترك في ثورة ١٩٣٦ بعد تصريح هور ، هذه الثورة التي فقد فيها صديقه وزميـله في الكفاح الاول «عبد الحميد مرسي» الذي خر صريع الظلم والاحتلال . فانساه ما اصيب به في نفس اليوم . ورسم في نفسه يومئذ ان عليه واجباً عليه ان يفنى في سبيله .

فقد حدث في هذا اليوم ان صحا جمال مبكراً . وذهب الى المدرسة وقـال للطلبة زملائه : « ان الانجليز يفعلون كل يوم عملاً منكراً . فيجب ان نظهـر شعورنا باحتقارهم » ؛ ثم وقف في حوش المدرسة – بقوامه الطويل . وعينيـه اللامعتين ، وصوته الجهوري ، ولهجته الآمرة التي تحس فيهـا روح السيطرة

والزعامة دون استعلاء ولا كبرياء – وقال بأعلى صوته: «يسقط الانجليز».
وفي نفس اللحظات اجتمع حوله الطلبة وساروا في مظاهرة حتى وصلوا الى الجامعة. وهناك قامت الجامعة باخطر مظاهرة حدثت في ذلك الوقت .

وقاد جمال هذه المظاهرة ، ثم فجأة وبلا مقدمات، اطلق البوليس الرصاص على الطلبة ورأى أحد الجنود جمال فجرى وراءه حتى لحق به وأصابه في وجهه اصابة ما يزال اثرها باقياً حتى الآن . وما كاد يدخل المدرسة في اليوم التالي حتى قابله الناظر وقال له : انت مفصول .

هل كان هذا الحادث بداية القصة ومقدمة الكفاح ؟..

ان جمال عبد الناصر نفسه لا يوافق على هذا ويقول : ان بذور الثورة في نفسي كانت أبعد من الغور الذي عشت فيه طالباً أمشي مع المظاهرات الهاتفة بعودة دستور ١٩٢٣ ، وقد عاد الدستور سنة ١٩٣٥ ، ايام كنت اسعى مع وفود الطلبة الى بيوت الزعماء نطلب منهم ان يتحدوا من اجل مصر . وتألفت الجبهة الوطنية سنة ١٩٣٦ بالفعل على اثر هذه الجهود .

في خلال هذه الفترة كان جمال يقرأ بنهم عجيب . كان يتطلع الى تثقيف نفسه بكل ما تصل اليه يده . وكان محباً لتاريخ الابطال والزعماء من محرري البلاد . وكان كلفاً بابطال الاسلام وشخصيات التاريخ . وقد قرأ في هذه الفترة كتب «الحركة القومية» للرافعي وقرأ «عودة الروح» لتوفيق الحكيم .

وكان يتوق الى دراسة الحقوق بعد الانتهاء من البكالوريا .

ولكنه عاد في اللحظة الاخيرة فقرر دخول الكلية الحربية . وفي التفرقة بين كلية الحقوق والكلية الحربية ،كل الفارق بين شخصية الشاب ، الذي كان قد فهم ان تحرير مصر ليس عن طريق القضية المصرية، كما كان يطلق عليها المحامون الذين اتيح لهم ان يصبحوا زعماء مصر من تلاميذ المدارس الحزبية ،وبين شخصية هؤلاء.

وكأنما كان القدر يرسم الخط العميق في ثورة مصر ، وفي تحول التيار الوطني من اسلوب المغالطة وقلب الحق باطلاً، والباطل حقاً ، وهو ما اخذت به الزعامة السياسية في مصر والعالم العربي بعد الحرب العالمية الاولى . وهو نفس الاسلوب

الذي كانت تعرفه بعض الصحف المصرية خـــلال هذه الفترة من الصراع بـين الاحزاب على الاشلاء ، على المطامع الخاصة ، على كراسي الحـــكم ، على الفتات الذي القاه الانجليز تحت اقـدام الزعماء والاحزاب لتلتهي به عن الهدف الأول وهو تحرير البلاد من الاستعمار .

في هذه الاعوام، كان جمال يتقدم في سن الثامنة عشرة . وقد تكونَ طابعه النفسي على تلك الصورة ، الاعتكاف والازدراء للمتع الزائفـــة التي كانت تملأ نفوس الشباب في هذه السن، ولتلك الملامح البراقة التي يعيشها الطلاب في هـذه المرحلة من العمر .

كان يحمل فوق اكتافه هذا الحزن العميق الذي صبغه موت والدته بطابع من الألم الدائم ، وقد امتلأت روحه بآمال مصر ، ومضى يقرأ ويختزن في اعمـــاقه سير الاعلام والابطال .

ولا شك ان النبي محمداً كان في مقدمة هذه الشخصيات التي قرأ عنها بامعان، واستقى منها خبرتها وتجاريبها . وحـاول ان يقتدي بها حين اسلمت اليه الامور مقاليدها .

ولعل ابلغ ما استرعى نظره في شخصية النبي فأخذ نفسه به، وكان علماً على شخصيته يعرفه كل من يعرفه ، انه يكره المداهنـة والمسلك المزدوج . وقد آمن بقول الرسول في هذا « ذو الوجهين لا يكون عنه الله وجيهاً » .

●

كان جمال راغباً في التخرج من كلية الحقوق . ولكنه غير رأيه في آخر لحظة واختار الكلية الحربية . كان ذلك في اوائل عام ١٩٣٧ ،فما هو السر الذي دفعه الى هذا الاتجاه ؟

كانت مصر قد عقدت معاهدة الشرف والاستقلال في صيف عـام ١٩٣٦ ، وقد جندت لها الحزبية طابعاً مصنوعاً مفتعلاً من التقدير ، وكانت خدعة كبرى خدع بها الكثيرون . ولكن عدداً قليلاً من ذوي الرأي والشباب كان يعرف مدى ما في هذه المعاهدة من اخطار .

بل ان الشباب الذي دعا الى وحدة الامة واتحاد الزعماء لم يكن يظن ان يحوّل هذا العمل لخدمة الاستعمار بأن يتجمع هؤلاء ليوقعوا صك العبودية والاحتلال ، هذا الصك الذي تحول به الاحتلال من عدوان الى وضع شرعي بمقتضى وثيقة .

واذهل هذا جمال . جمال الذي اشترك في دعوة الزعماء الى الوحدة . لقد رأى زعماء مصر في ذلك الحين يوقعون معاهدة الشرف والاستقلال ، وقد حشدهم الاستعمار حشداً : مصطفى النحاس . محمد محمود . اسماعيل صدقي . احمد ماهر . علي الشمسي . عبد الفتاح يحيى . واصف بطرس غالي . عثمان محرم . محمد حلمي عيسى . مكرم عبيد . حافظ عفيفي . محمود فهمي النقراشي . احمد حمدي سيف النصر .

اذن لم يعد هناك امل في هذا الطاقم السياسي الذي خرّجته كلية الحقوق . وليس هذا هو الطريق الذي يؤدي الى تحقيق آمال البلاد ، ورد حريتها وكرامتها . ولا بد من سلوك طريق آخر :

.. هو طريق القوة ..

ولن يتحقق هذا الا بالتحول الى الكلية الحربية .

لقد اقتنع جمال بأن التفوق في العلم هو أهم اسلحتنا ضد الاجنبي ، وان مقابلة الرصاص الانجليزي لا يكون بالمظاهرات . ولكن بالحرب والتدرّب على فنونها.

وكانت السير التي قرأها للابطال والأعلام والزعماء قد رسمت له صورة «البطل» في صورة المحارب الفاتح الذي يحرر وطنه ، ويسوق المحتلين مورد الهلاك . وزاده يقيناً بهذا الاتجاه وتأكيداً له ، قراءته لتاريخ عرابي . فان لعرابي عند مصر ثأراً ، وله في عنق الجيش المصري وديعة .

لقد فتح الطريق امام الطامحين لمثل هذا المجد . مجد تحرير البلاد من ظلم هذه الأسرة الطاغية الاجنبية التي لا يجري فيها الدم المصري ، والتي تحتقر المصريين.

ولا استطيع ان اقول ان هذه المعاني كانت واضحة في ذهن جمال عبد الناصر على هذه الصورة . ولكنها كانت متجمعة كبؤرة من الضوء تدفع في قوة الى

اتجاه معين . وتدع الرؤيا تنبعث منها مع تطور الزمن ومرور الوقت .

وكل ما يمكن ان يقال ان جمالا ، الشاب في سن الثامنة عشرة ، كان قد اقتنع بأن البلاد تمر بمرحلة مريرة ذليلة من تاريخها . وان بريطانيا تدوس بقدمها على عنق هذا الوطن فترغمه على أن يمرغ رأسه في الوحل ..

●

ويبدو هذا في وضوح في رسالة جمال الى أحد اصدقائه ، وتاريخ هذه الرسالة ٢ ديسمبر سنة ١٩٣٥ ، وهو في ابان الثورة النفسية التي دفعته فيما بعد الى الإيمان بأنه لا سبيل الى تحقيق هدفه الا بالقوة ، والاتجاه الى الكلية الحربية كجزء من اعداد هذه القوة التي يمكن بها مقاومة الاستعمار وتحرير مصر ، ويحمل هذا الاتجاه معنى الوضوح والواقعية ، والاتجاه الى الناحية العملية الصرفة ، دون الاعتماد على الخيالات والاحلام ..

« اخي ..

قال الله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فأين تلك القوة التي نستعد بها لهم . ان الموقف اليوم دقيق . وموقف مصر أدق ، ونحن نكاد نودع الحياة ونصافح الموت . فان بناء اليأس عظيم الاركان . فأين من يهدم هذا البناء ؟

ان في الحكم حكومة قائمة على الفساد والرشوة [وزارة توفيق نسيم] فاين من يغير هذا الحال ؟ ان الدستور معطل . والحماية على وشك الاعلان . فأين من يقول للاستعمار قف عند حدك . فإن في مصر رجالاً ذوي كرامة ، لا يريدون ان يموتوا كالانعام . اين الكرامة ، اين الوطنية ، اين الذي يسمونه وعونة الشباب ؟ .. كل ذلك قد غاب في الآفاق . وظهرت الأمة نائمة كأهل الكهف والرقيم . فاين من يوقظ هؤلاء التعساء الذين هم عن حالتهم لا يعلمون؟

قال مصطفى كامل : « لا حياة مع اليأس . ولا يأس مع الحياة » ولكننا نجد الآن حياة مع يأس ويأساً مع حياة . لقد انقلبت الآية يا اخي فرجعنا الى الوراء . رجعنا خمسين سنة الى الوراء . رجعنا الى حكم كرومر ، ولكن كرومر وجد من أذله وشنع به في عرض المعمورة . فكانت النتيجة ان استقال ؛

ولكن اين من يشنع الآن ؟. الجميع يتمسحون باذيال الاستعمار ولا يعرفون الا الملق والتزلف . اين ذلك البلسم الذي تستظل بظله الوطنيــة ، ويحتمي به الوطنيون ساعة الخطب المروع ، وهو اثبت من الاطواد رأيـاً وقلباً ، اذا عز النصير وخيف الزيغ ، وارهبته القوة الغشوم... بل اين الوطنية التي كانت سنة ١٩١٩ تشتعل ناراً في الصدور ؟ بل اين ذلك الذي يذود بلسانه وخطرات قلبه عن حياض هــــذا الوطن العزيز المقدس ، مضحياً بالحيـاة والعمر في سبيل الاستقلال ؟..»

●

وفي رسالة اخرى مضى جمال في تصوير شعوره : شعور الوطني الصادق الذي تثور في أعماقه معركة توشك ان تحدد موقفه من الاستعمار ومن الاستبداد ومن الدجل السياسي جميعاً .

« .. لقد انتقلنا من نور الأمل الى ظلمـــة اليأس ونفضنا بشائر الحيـاة ، واستقبلنا غبار الموت. فأين من يقلب كل ذلك رأساً على عقب ويعيد مصر سيرتها الأولى ، يوم ان كانت مالكة العالم.. اين من يخلق مصر خلقاً جديـــداً ، حتى يصبح المصري الخافض الصوت الضعيف الامل ، الذي يطرق برأسه ساكنـــاً صابراً على حقه المهضوم.. يقظاً عالي الصوت ، عظيم الرجاء ، مرفوع الرأس ، يجاهد بشجاعة وجرأة في طلب الحرية والاستقلال؟.

يقولون : ان المصري يجزع من حفيف ثوبه في وضح النهـار . ولكن يجب ان يتقدم من يقودونه الى مواقف الدفاع ، ومواطن الكفاح. فيكون لهم صوت أعلى من صوت الرعد. تتداعى لقوته ابنية الظلم والاستبـــداد .. فكل روح سكنت جسماً جاء من ابوين مصريين لا ترضى بحالتنا الراهنة وتبذل نفسهـــا قرباناً للوطن العزيز والجامعة الوطنية المقدسة.

قال مصطفى كامل : لو نقل قلبي من اليسار الى اليمين او تحرك الاهرام من مكانه المكين ، أو تغير مجرى النيل ، فلن اتغير عن المبدأ ... كل ذلك مقدمة طويلة لعمل أطول وأعظم . فقد تكلمنا مرات عديدة في عمل يوقظ الأمـة من

غفوتها ويضرب على الاوتار الحساسة من القلوب ، ويستثير ما كمن من القوى في الصدور . ولكن كل ذلك لم يدخل في حيز العمل الى الان .. »

سبتمبر ١٩٣٥ — ٣ حارة خميس العدس. الخرنفش . **جمال عبد الناصر**

●

وبعد فماذا يمكن ان تعطينا هذه المعاني ؟

انها تعطينا صورة واضحة لعملية تأهيل وتخمير واعداد نفس. تواجه الحقائق والمعاني ، ثم ترى الفراغ في مكان القيـادة . نفس نفضت يدها من كل المظاهر البراقة التي حولها ، وانكرت ما عليه الزعماء من دجل وبلادة ..

لقد بدأ جمال يفكر في الطريق الذي يجب ان يسلكه الرجل الحر في سبيل وطنه وبلده . انه عمل طويل ذلك الذي يتطلبه الوطن ليوقظ الامة من غفوتها. ويعيد مصر سيرتها الاولى يوم كانت في مكان القيادة . انه يريد ان يحمي روح هذا المواطن الذي اصبح خافت الصوت، ضعيف الامل، مطرقاً برأسه ، ساكتاً عن حقه المهضوم .

انه يريد ان يحرر هذا « المصري » العالي الصوت المرفوع الرأس المجاهد في شجاعة وجرأة ، انه ينكر على « المصري » ان يجزع من حفيف ثيابـه في وضح النهار ، ويريده ان يصرخ صرخة تتداعى لها ابنية الظلم والاستبداد .

انه يستشهد كثيراً بمصطفى كامل . فقد كان هو المفتاح الذي يبدأ منه المجاهد الصادق في هذه المرحلة ، بعد أن حطمت السياسة تلك الخطوط التي رسمها هذا الزعيم المصري .

ان في كلمات جمال عبد الناصر الباكرة صورة الإصرار على المبدأ ، والايمان بالفكرة ، والرغبة في الاتجاه نحو العمل .. العمل الطويل العظيم . العمل الذي يعيد الكرامة . مؤمناً بأنه لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة .

انه ينكر على زعماء مصر استسلامهم للمستعمر : اين موقفهم هذا من موقف مصطفى كامل ازاء كرومر . عندما شنع به في انحاء المعمورة وأرغمه على الاستقالة ، أو أرغم بريطانيا على سحبه ... ثم ينتهي قوله بهذه الصيحة المدوية :

« ابن من يذود بلسانه وخطرات قلبه عن هذا الوطن العزيز .. مضحياً بالحياة والعمر في سبيل الاستقلال .. »

وبعد سبعة عشر عاماً اجاب القدر عن هـذه الصيحة وقال : أنت ، انت يا جمال! لقد كان هو الاجابة الحقيقية عنهذه الصرخة . لقد كان يسأل عنمكان القيادة ، في نفس الوقت الذي كان القدر يعده لهذا المكان .

طريق الجيش

« في سنة ١٩٣٥ كنت طالبا بجامعة القاهرة . ثم تركت الجامعة وكان يجول بخاطري دائما الطريق الذي نسير فيه والمصاعب التي تقف في سبيلنا . كانت امامنا كل المصاعب في هذا الوقت . وكان الطريق الى تحرير الوطن شاقا طويلا . فقد كان الطريق الوحيد هو طريق الجيش فسرنا في الجيش . كان الجيش هو السبيل الوحيد لهدم القوة الغاشمة الخائنة فنظمنا انفسنا نحن الضباط الاحرار ، تعاون اخوة لكم في جيشكم لكي يحققوا الآمال التي كانت تجيش بصدوركم انتم ويمحوا الذل الذي كنا نرسف فيه »

هكذا بدأ جمال عبد الناصر يؤمن بأن تحرير مصر لا يكون الا بالقوة وبالتضحية ، وبافتداء النفس . كشف له يقينه أن وسيلة هذه القوة هي الجيش .

وعند ما آمن جمال بذلك واتجه اليه ، كان هذا رمزاً على تحول الاحداث في تاريخ مصر والعرب ، اذ بدأت حلقة جديدة من حلقات جهاد الجيش في سبيل الكفاح الشعبي .

كان جمال يؤمن بان الجيش هو الذي سيحرر مصر ، ويحرر العرب . كان التاريخ يريد ان يعيد نفسه بعد ثمانمائة سنة . حين يضع اسم جمال عبد الناصر الى جوار اسم صلاح الدين الايوبي «كنت اعتقد اعتقاداً راسخاً بأن الجيش هو الذي سيحقق آمال الوطن. كنت أرى فيكم الجمهورية وهي تزيح الملكية . كنت أرى فيكم القضاء على الاقطاع . كنت أرى فيكم القضاء على الاستعمار . ان شباب

الجيش وقوة الجيش التي قامت بدور الطليعة ستستمر في الطليعة حتى تحقق آمال الوطن واحلامه» .

لقد ربط جمال عبد الناصر ثورة ٢٣ يوليو بثورة عرابي . وهو حق . فقد جاءت مكملة لها محققة لما لم يتحقق لعرابي منها. وان صفحات النصر التي احرزها الجيش في مصر والوطن العربي هي من امجاده ، بصرف النظر عن الغايات التي ارادها محمد علي ، والمطامع التي ساقها اليه . وموقف الجيش المصري في نفارين في ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧ كانت هزة ضخمة للدول الغربية التي اذهلتها هذه القوة. فقد انتصر الجيش المصري في الاستيلاء على الميناء الاوربي . ولو لم تتجمع الدول الاوربية لهزيمته ما وقعت هذه الهزيمة .

وان ابلغ وصف لهذا الجيش ما سجله الاستاذ فتحي رضوان في كتابه «اخي المواطن» ،حيث قال: «جيش مصري تزاحمت فيه المفاخر اكثر مما تزاحمت في صفحة جيش آخر . فلقد حارب المصريون في كل جو وكل طرف. حاربوا في الصحارى وفي الجليد وعلى ضفاف الانهار وعلى شواطىء البحار . وفي سفوح الجبال وفوق قممها . حاربوا في العالم القديم والعالم الحديث. في اوربا وآسيا وافريقيا وامريكا. حاربوا عند خط الاستواء في الحبشة وفي المكسيك حيث تتلظى الحرارة. وحاربوا في صحراء السودان وفي صحراء الحجاز ونجد. كما قاتلوا في القرم وفي نزيب. حيث تتجمد الاطراف ويأكل البرد لحم البشر . وقاتلوا تحت اسوار عكا بالشام، وفي مياه نفارين باليونان. ومن المعروف ان هذا الجيش كان جيشاً عربياً اندمجت فيه عناصر من كل ارض العرب . بل ما من جيش تجمع في هذه المنطقة الا كان عربياً. وفي كل مرة كانت صيحة الحرية تتعالى ، كان المتطوعون يندفعون من كل مكان لينضموا الى الجيش العامل. حدث ذلك في ايام صلاح الدين. وحدث في ايام محمد علي. وحدث في الثورة العربية بقيادة الشريف حسين وحدث في معركة فلسطين . وحدث في ثورة يوليو ١٩٥٢ عندما كشفت عن حقيقتها ثورة عربية خالصة واندمج الجيشان المصري والسوري .

●

ونحن نستطيع ان نربط بسهولة بين موقف الجيش في تحرير مصر في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وبين موقفه في ٩ سبتمبر ١٨٨١، بل اننا لا نعدو الحقيقة عندما نرى ان ثورة ٢٣ يوليو هي تتمة العمل الذي بدأه عرابي منذ اكثر من سبعين عاماً .

فلا شك ان وصول احمد عرابي الى رتبة «القائمقام» في الجيش ، تعد بمثابة النقطة ذات الاهمية في بروز دور الجيش في كفاح مصر وثوراتها . فقد زادت نسبة الضباط الارناؤوط والجراكسة والترك زيادة قضت على حق المصريين فيه، واجحفت بحقوقهم على يد عثمان رفقي ناظر الجهادية الجركسي .

ولا يغيب عن البال ان اول اجتماع عقده الضباط بمنزل احمد عرابي وحضره عبد العال حلمي. وخضر خضر وعلي فهمي الديب. ومحمد عبيد . والفى يوسف. واحمد عبد الغفار . وقد تضمنت عريضة المطالبة: تغيير نظام الحكم . وعزل ناظر الجهادية الجركسي ، وتعيين غيره من ابناء الوطن . وتشكيل مجلس نواب من نبهاء الأمة وابلاغ الجيش العامل الى ١٨ الف جندي .

وتبدو قوة هذه الحركة فيما قام به الضباط منوا لهجوم على ثكنات قصر النيل ، واطلاق سراح الضباط الثلاثة الذين اعتقلهم الخديو . وكان على رأس المهاجمين : محمد عبيد . فقد أمر الخديو بعد وصول هذه المطالب باعتقال عرابي وعبد العال وحلمي وعلي فهمي . وسرعان ما سار محمد عبيد في قواته فضرب الحصار على قشلاق قصر النيل وهجم على الديوان فبادر الجنود الى الفرار . وفي مقدمتهم عثمان رفقي نفسه . وفكوا اسر زملائهم وخرجوا بهم . وعزل عثمان رفقي . وبدأ النفوذ العسكري يأخذ طابعاً واضحاً قوياً أقلق الخديو وحاشيته الذين حاولوا اطفاء هذه الحركة بالتقرب الى الضباط ورفع مرتباتهم . ولم يكن عفو الخديو عن زعماء الحركة الذين قاموا بحادثة قصر النيل الا خدعة تخفي وراءها الاستعداد لقمع الحركة والانتقام من مدبريها .

وفي هذه الفترة كانت الآمال قد تعلقت بعرابي وامتدت الانظار اليـــه . وبرزت رابطة قوية بين مطالب الجيش ومطالب الشعب، الذي أحس في صوت «عرابي» مخرجاً ومتنفساً من الجرح والضيق الذي كان يلقـاه من الخديو الظالم.

وقد وصف استاذنا عبد الرحمن الرافعي هذا الشعور في صورة رائعة فقال : «..كل هذه الاعمال جعلت من عرابي زعيما قومياً اتجهت اليه الانظار لتحقيق اماني الشعب. ولم يكن الجيش يصدر عن افكار وعواطف تخالف افكار الجماهير، بل كان في واقع الامر يمثل الامة في افكارها ونفسيتها . ولم يكن الناس راضين بالحكومة وسياستها ، بل كانوا يتبرمون بمظالم الحكام . وينقمون من الوزارة استسلامها للنفوذ الاجنبي وخضوعها لأوامر القناصل ومحاباتها الموظفين الاجانب.»

ولم يأل عرابي جهداً في التحدث مع العلماء والأعيان والعمد حتى كسبهم الى صفه فأصبح قوة شعبية كبيرة لا يمكن تجاهلها . ومضى يوطد نفوذه بين صفوف الضباط . وحدد مطالبه بتأليف المجلس النيابي. واحداث انقلاب في الحكم يحل الشورى محل الحكم الاستبدادي .

وقد كان من نتيجة المنشورات التي وجهها عرابي الى اهالي البلاد ما وصفه عرابي في مذكراته «..وبناء على ذلك وفدت علينا الوفود من جميع انحاء القطر وسلمتنا عرائض النيابة عنها ، وفوضت الينا العمل لما فيه سعادة البلاد وخلاصها من براثن الاستبداد، معلنة تضامنها معنا في كل ما نقوم به من اعمال الاصلاح..»

وفي خلال هذه الفترة – بين واقعة قصر النيل (اول ابريل ١٨٨١) ويوم واقعة عابدين (٩ سبتمبر ١٨٨١) كان عرابي قد اطمأن الى ان الجيش اصبح متجاوباً معه تماماً ، وان الامة من ورائه . وهنا بدأ في احداث هذا الانقلاب بأن زحف بالجيش الى ميدان عابدين ، فازعج الخديو وهزه هزاً عنيفاً . وفشلت كل محاولاته في منع المظاهرة او تأجيلها . وزاد الامر خطورة عندما انضم حرس الخديو الخاص الى صفوف الكتائب .

ونزل الخديو الى الميدان ومعه القناصل الانجليز ، والمراقب المالي الانجليزي، حتى اذا ما توسط الميدان نادى عرابي فجاءه راكباً جواده شاهراً سيفه وخلفه نحو ثلاثين ضابطاً شاهري السيوف .

ودار بين عرابي وبين الخديو حوار تبين مدى الاحتقار الذي كان يكنه الخديو للمصريين :

الخديو – ما هي اسباب حضورك بالجيش الى هنا ؟
عرابي – جئنا لنعرض طلبات الجيش والامة وكلها طلبات عادلة .
الخديو – وما هي هذه الطلبات ؟
عرابي – عزل رياض باشا وتشكيل مجلس النواب وابلاغ عـدد الجيش الى العدد المعين في الفرمانات السلطانية .
الخديو – كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها، وانا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي واجدادي، وما انتم الا عبيد احساناتنا .

عرابي – لقد خلقنا الله احراراً ولم يخلقنا تراثاً وعقاراً، فو الله الذي لا اله الا هو : سوف لا نورّث بعد اليوم .

وعاد الخديو الى داخل السراي. وقبل مطالب عرابي وسقطت وزارة رياض. وعين محمد شريف رئيساً للوزارة . وكان هذا هو اوج النصر لحركة الجيش .

وتطورت ثورة عرابي تطوراً لم يكن في يده، فقد انتصر الانجليز بفعل الخيانة لا بضعف الجيش. ومال الخديو نحو الانجليز واسلم نفسه اليهم، وأعلن خيانة عرابي الذي وقفت الامة كلها من حوله لتفتديه بالأرواح .

شتت الخديو والانجليز عرابي وأنصاره، وسحقوا هذه القوة الشعبية الضخمة سحقاً، وظل عرابي الى عهد قريب يوصف بالخيانة . فقد كانت اسرة محمد علي ما تزال تحكم البلاد، وتقف بالمرصاد للتاريخ الحق لهذا البطل ، وتغض من قدر هذا العمل الخالد الذي هز هذه الاسرة هزة عنيفة وجعلها تتأهب للهزة الاخرى التي اسقطتها من مكانها .

وسرعان ما وضع الانجليز يدهم على الامور في مصر ، وكان اول عمل لهم هو الغاء الجيش المصري بصفة عامة . وانشاء جيش صغير برأسه ضباط من الانجليز . فما ان تم للانكليز احتلال العاصمة في ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ عقب هزيمة العرابيين حتى اصدر الخديو توفيق مرسوماً بالغاء الجيش المصري في ١٩ سبتمبر ١٨٨٢ بعد ان قبض على كبار الضباط لمحاكمتهم . كما صدر مرسوم بتجريد جميع الضباط الذين اشتركوا في الثورة العرابية ممن كانوا في رتبة يوزباشي وما هو أقل منها . وحرمانهم

أي حق في المعاش او مرتب الاستيداع .

وعهد بتنظيم الجيش الجديد الى ضابط انجليزي هو «فالنتين بيكو» ليكون خاضعاً للسياسة البريطانية ، فبدأ في خلق جيش جديد يكون اداة في يد الانجليز . واقترح اللورد دوفرين انقاص عدد الجيش الى ستة الاف .

وانحط مستوى الجيش الى أبعد حد ، والغيت الصناعات الحربية كما الغيت البحرية المصرية؛ وظل ذلك كذلك حتى قال سعد زغلول لعبد الرحمن الرافعي في برلمان ١٩٢٤ عندما سأله عن موقف مصر من بعد الحوادث في السودان فقال كلمته المعروفة «هل عندكم تجريدة».

وبقي الجيش قوة معطلة بعيدة عن العمل الايجابي يسيطر عليها الانجليز ولا يسمحون بتقويتها او زيادتها .

وقد وقعت في يونيه حزيران ١٩٢٧ ازمة سياسية حادة بين مصر وبريطانيا بشأن الجيش، وذلك عندما تضمنت الميزانية تقريراً باصلاح الجيش المصري وترقية التعليم في المدرسة الحربية . وقبل ان تتقدم اللجنة الفرعية للميزانية ببحث هذه المقترحات ، علمت بها دار المندوب السامي والصحف البريطانية فهبت ترعد وتبرق ، وتهدد وتتوعد . ونشأت ازمة ضخمة ، كان مظهرها توجيه مذكرة من الحكومة البريطانية الى الحكومة المصرية في ٢٩ مايو-أيار-١٩٢٧ جاء فيها : « انه لوحظ في الايام الاخيرة ، ان هناك اتجاهاً قلقاً يرمي الى ادخال النفوذ السياسي في الجيش المصري . واصطحب هذا الاتجاه بمحاولات اكيدة للتقليل من اختصاص المفتش العام للجيش والضباط البريطانيين الذين يعملون في المصالح المختلفة التابعة لوزارة الحربية . وترى الحكومة البريطانية ان الموافقة على هذه التوصيات يقلل كثيراً من الفرص التي تتهيأ للتسوية الودية لهذه المسألة الهامة بين مصر وبريطانيا «العظمى!»، ولذلك تدعو الحكومة المصرية الى اعادة النظر في موقفها بغير ابطاء » . وتضمنت المذكرة طلبات جديدة تضيف الى سلطان انجلترا على الجيش المصري سلطاناً جديداً بتعيين ضباط بريطانيين جدد ، ورفع درجة اللواء سفينكس باشا، المفتش العام، للجيش ، الانجليزي، الى رتبة فريق، وان

تضم مصلحة الحدود وخفر السواحل لاشراف المفتش العام البريطاني للجيش.

وبذلك عاد الجيش المصري الى أسوأ مما كان في ايام الحماية .

واذاعت الانباء ان ثلاث بوارج بريطانيــة أمرت بالسفر من مالطة الى المياه المصرية . وقال وزير خارجية بريطانيا في مجلس العموم : ان الحكومــة المصرية تدخلت في هذه المسألة، لأن فريقاً من الساسة المصريين، ذوي الكلمة النافذة، اراد استعمال الجيش اداة معادية لانجلترا . والدليل على ذلك انه طلب زيادة وحدات الجيش .

وخضعت الحكومة المصرية للانذار البريطاني ونفذت كل ما تضمنه .

وفيما عدا هذا الحــادث ، لم يسمع عن الجيش المصري شيئاً في ذلك التاريخ الطويل . وظلت قبضة بريطانيا على الجيش المصري قوية حتى جاءت معــاهدة ١٩٣٦، حيث تقرر ايفاد بعثة بريطانية لتدريب الجيش المصري. وقد قدمت هذه البعثة من ١٥٠ ضابطاً وصف ضابط . وكلفت الخزانة في الفترة التي اقامتهــا في مصر ستة ملايين من الجنيهات ـ واعتبرت التقارير التي وضعتها البعثة ملزمة، تنفذ بدون معارضة من جانب الجيش المصري .

واستمرت عشر سنوات(١٩٣٦ -١٩٤٦)،واشارت ملاحق معاهدة صدقي - بيفن الى تحويل هذه البعثة العسكرية الى لجنة دفاع مشترك . وظلت بريطانيا تحول بكل قواها دون تكوين الجيش المصري أو تزويــــده بالاسلحة او بناء المصانع الحربية وغيرها .

وكان فاروق، بوصفه القائد الأعلى للجيش، يفخر بأن هذا الجيش ليس جيش مصر بقدر ماهو جيش فاروق. وتولى امرته رجال حاولوا ان يخضعوه لسلطانه، وكانت الاحاديث تروى عن مدى هذا الولاء .

ومن سخرية الاقدار بفاروق ، انه في نفس الوقت الذي كان يرى في الجيش العصا التي يهدد بها البلاد، كان الجيش يتجمع ليضرب الضربة الاخيرة، وليتم عمل عرابي وليفتح لمصر باباً جديداً من الحرية .

وجاءت احداث ٤ فبراير—شباط—ومعركة فلسطين ومعركة النضال،فأججت

النار ورتبت الخطط ودفعت الضباط الاحرار الى الثورة .

وكانت فلسطين هي الموقعة الاولى بعد اكثر من ثمانين عاماً .

وقد دلت جميع التقارير على ان الجيش لم يهزم ،بالرغم من نقص الامكانيات والعتاد الحربي ، وانما هزمته السياسة في مصر ، فقد كانت روحه المعنوية عالية، لولا ما بيتته السياسة ، ومن ورائها بريطانيا ، له في القاهرة من مناورات .

وقد سجل جمال عبدالناصر هذه المرحلة من التاريخ في عبارات قليلة واضحة :

« قد يحدد الناس تاريخ الثورة المصرية التي قام بها الجيش ممثلاً للشعب باليوم الثالث والعشرين من يوليو – تموز – ١٩٥٢ »

والواقع ان في هذا التاريخ مجافاة للواقع ، لأنه لم يكن الا آخر مراحل الثورة . اما أُولى مراحلها فسابقة لهذا التاريخ عشرات السنين .

انه اليوم الحادي عشر من يوليو–تموز– ١٨٨٢ ، اي قبل قبل هذا التاريخ الأخير بسبعين عاماً واثنى عشر يوماً على التحديد .

ففي ١١ يوليو –تموز– عام ١٨٨٢ ضُربت الاسكندرية الوادعة بمدافع العدوان البريطاني،ثم كان الاحتلال البغيض،واشتعلت مصر ثائرة، وخرج الجندي والفلاح أحمد عرابي على رأس ثورة الاحرار من الضباط والجنود ليرد هذا العدوان الطاغي.

ولكن الثورة لم تحقق اهدافها واكتفت بأن سجلت مولدها . وكان لا بد لها ، وقد بدأت طفلة ساذجة صغيرة، من ان تصبر حتى تنمو مع الايام، حتى اذا اصبحت مكتملة قادرة على ان تقوم بعمل ما لم تتردد في القيام به .

لقد حددت الثورة اهدافها منذ اليوم الأول لمولدها : لا بد من تحرير مصر ولا بد من جلاء قوات الاحتلال .

وكلما كانت الثورة تنمو كانت هذه الاهداف تزداد عمقاً في ضميرها . وكلما كانت الايام تمر كانت هذه الأغراض تشتد اتصالاً بإرادتها ؛ فما ان اقبلت ثورة ١٩١٩ وكانت الحرب العظمى قد انتهت ، حتى هبت الثورة تطالب بتحقيق اهدافها فصاحت : «الاستقلال التام او الموت الزؤام » ،وكانت تعني ما تقول ، فبذلت في سبيل فكرتها وهدفها دما زكياً وتضحية غالية وروحاً سامية .

ولم تخف الثورة امام رصاص المستعمرين ، ولا امام اذنابهم من رخـــاص المصريين، ولكنها مضت قدماً لا تبالي بالخديعة والدس. واذا كانت الثورة بطبيعتها طيبة القلب صادقة النية فقد صدقت الخداع والخادعين ، وسكنت واخـــذت تنتظر الوعود فاذا الوعود سراب .

واذا بالثورة العارمة التي قامت لجلاء المستعمرين كانت قد كبلتها ، فما كانت تستطيع الا ان تنتظر بعض الوقت حتى تفك قيودها .

واكتفت الثورة من وقتها بأن تنظر حواليها وهي تسخر ممن استغلوهـــا واخذوا يتجرون بها ويتلاعبون باسمها .

كان كل من يريد ان يكسب لنفسه مجداً يعلن صلته بها . كان كل من يريد ان يكسب لنفسه مركزاً ، يباهي بأنه ابن الثورة وصانعها ومحركها . واصبحت الجماهير ضحية هذه المزايدة الوطنية ، وهذا اللون الجديد من الوان الاستقـلال السياسي والاتجار باسم الثورة .

وبدأ تجار السياسة يختلفون ويتفقون، دون ان يكون لأهداف الثورة دخل فيما يختلفون وفيما يتفقون ... »

وغاية القول ان القصر والانجليز عملا على افساد الجيش وجعله اداة طيعة في ايديهم ، وحرصا على خنق كل روح وفية حتى يظل العوبة في ايديهم . وحتى يظل تحت سلطانهم . ويظل قوة ارهابية للشعب. ولا يلتقى به أبداً ليبقى عاملا من عوامل اخافته .

وقد وصف جمال عبد الناصر هذا المعنى في قوله : « لقد كان الحاكم في الماضي يعمل كل ما في وسعه للفصل بين الشعب والجيش . وكانوا يجيبون مطالب الضباط في الجيش حتى يظلوا اداة في يد الطغاة للضرب على يد الشعب . ولكن فئة من ابناء مصر الاحرار عرفت ان الشعب اذا كان يمثل الحق ، فان الجيش يمثل القوة. وان الحق يحتاج الى القوة حتى يظهر جلياً واضحاً . وعملنا متعاونين متساندين حتى التقى الحق والقوة في هذه الثورة الشعبية » .

كل هذه المعاني عن تاريخ الجيش كانت تتحرك دائماً في نفس جمال عبدالناصر

الذي آمن بأنه اداة تحرير كبرى ، فبدأ يكون مجموعته ويضم اليه اعوانه ويعد عدته لأمر خطير ، لسحق هذه الملكية الطاغية وهذا الاستعمار البغيض.

ولم يكن في الامكان ان يعتز وطن وجيشه العوبة في يد الطغاة . وهو ذليل ضعيف .«ان الجيش هو عنوان شرف الامة وهو قبضتها التي تضرب بها المهاجمين، وتلوح بها في وجه المتربصين . وهو آخر الامر خلاصة ما في الشعب من قوة وثروة وعلم واخلاق . فلن يكون في امة ضعيفة جيش قوي وليس يكون جيش ضعيف في امة قوية » .

ولذلك فان أول خطوة في ثورة ٢٣ يوليو ـ تموز ـ كانت تخليص الجيش نفسه من قيادته القديمة البالية . كما جاء في اول بلاغ لها .« اجتازت مصر فترة عصيبة من تاريخها الاخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم . وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش ؛ وتسبب المرتشون المغرضون في هزيمتنا في حرب فلسطين . اما فترة ما بعد الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد ، وتآمر الخونة على الجيش، وتولى أمره اما جاهل او خائن او فاسد ، حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها. وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير انفسنا ، وتولى أمرنا في داخل الجيش رجال نثق في قدرتهم وفي خلقهم وفي وطنيتهم . . »

تلك هي قصة الجيش الذي التحق به جمال طالباً بالكلية الحربية في ١٧ مارس ـ آذار ـ ١٩٣٧ .

الثائر بعد تخطيطه

« ان التعاون كلمة نؤمن بضخامتها ، ونحن اول من آمن بهـا منذ ان قامت حركتنا . فقد تعاونت فئة من الناس على انقاذ الوطن ، واول شروط التعاون انكار الذات . اننا نحلم بمجد امة ، ويجب ان نبني هذا المجد . » .

ودخل جمال الكلية الحربية ، ولم يكن طلاب الكليـة يتجاوزون اذ ذاك تسعين طالباً . وعرف باستقامته والاعتزاز بنفسه ، وميله الى الحياة الجديـة . واني ادع اللواء عبد الواحد عمار مدير الكلية الحربية يصفه :

« الطالب جمال عبد الناصر حسين ذو النظرة الجدية للحياة منذ رأيتـه ، ومنذ التحق بالكلية الحربية في ١٧ مارس–آذار– عام١٩٣٧، وانا اراه لا يميل للمزاح. فلا يأتي بحركات تخرج به عن حدود الرزانة والوقار. عرف جميع زملائه في الكلية انـه رجل ، فلا يوقع بأحد ، ولا يخون احداً . ومما عرفته أنه يعمل لكل شيء حسابا ، ويقدر العواقب ويعمل وفق ما يرضي ضميره وربه .

حصل على ٧١ في المائة فلم ترض طموحه ، فالتحق بكليـة اركان الحرب . وسهر الليالي الطويلة مكباً على الدراسة العسكرية حتى هضمها . كان ثائراً منذ تخرج من الكلية ، وكان ينتقد كل ما في مصر من اخطـاء . ولا ازال اذكر مناقشاته لأصحابه وزملائه ، فقد كانت لا تدور الا عن مصر ومستقبلها » .

وتخرج جمال في الكلية الحربية سنة ١٩٣٨ والتحق بالكتيبة الثالثة بنادق .

ونقل الى منقبـاد باسيوط ، حيث تعرف بانور السادات وزكريا محيي الدين . وفي سنة ١٩٣٩ نقل الى الاسكندرية حيث تعرف بعبد الحكيم عامر الذي تخرج في الدفعة التالية له من الكلية الحربية .

وفي سنة ١٩٤٢ نقل الى معسكر العلمين ، وكانت هذه فرصة ليرقب حالة التوتر التي كانت تسود مصر . ثم نقل الى السودان ، وصحبه عبد الحكيم عامر حيث عملا في جبل الاولياء .

●

في هذه السنوات الخمس تنقل جمال بين منقباد والاسكندرية والعلمين والسودان، فكانت فترة خـبرة لا شك في اثرها البعيد في تكوينه واعـداد الخطوط الرئيسية للخطة العملية التي كان يدرسها في سبيل تحقيق الرسالة التي ملأت عليه آفاق حياته، وهي بداية صفحة جديدة من تاريخ جمال الضابط داخل الجيش .. « فقد كان الضباط في ذلك الوقت يكونون شبه احزاب داخـل كل كتيبة » ، و « كان كل حزب يحاول ان يستميل اكبر عـدد من الضباط ليتغلب على باقي الاحزاب » .

وقال اللواء عبدالواحد عمار عن جمال وعبد الحكيم: « كنت لا أرى أحدهما بدون الآخر ، فجمال وعبد الحكيم روح واحدة في جسدين ، وعندما نقل جمال وعبد الحكيم معاً مع القوة المسؤولة عن حراسة منطقة جبل الاولياء في السودان. حمدا الله على انه لم يفرق بينهما .. »

ومن جبل الأولياء كتب لأحد اصدقائه في مصر مصوراً آماله :

« .. سيكون امامك المستقبل. ولكنه يحتاج الى جهاد . ولا لذة لمستقبل دون جهاد. فالحياة الخاملة ، او الطريق الموسومة المعروفة تنعدم فيها اللذة. كل عيبي هنا انني « دغري » لا اعرف الملق ولا الكلمات المنمقـة ، ولا اتمسح بالأذيال ، اذ ان شخصاً هذه صفاته يحترم من الجميع . ولكن الرؤساء يسوؤهم ذلك الذي لا يسبح بحمدهم ، ويسوؤهم ذلك الذي لا يتملقهم . فهـذه كبرياء . وهم الذين اعتادوا الذل في كنف الاستعمار . يقولون : « كما كنـا ، يجب ان

يكونوا ؛ وكما رأينا يجب ان يروا !..» والويل كل الويل لذلك المتكبر الذي تأبى نفسه السير على منوالهم .

ويحزنني أن اقول : ان هذه السياسة نجحت نجاحا باهراً . فهم يصهرون نفوس الشبان ، وكلهم شباب لم تضللهم الأيام بعد . ويحزنني ان هـذا الجيل قد أفسده الجيل القديم ، فأصبح منافقا متملقا . ويحزنني أن اقول اننا نسير الى الهاوية بالرياء والملق والنفاق .

اما انا فقد صمدت وما زلت . ولذلك تجـدني في عداء مستمر مع هؤلاء الكبار ..» .

ولكن جمال كان يحمل معه فكرته ورسالته . فبدأ يبشر بمذهب جديـد يقوم على المحبة ، يربط بها القلوب . ويحل الصداقة محل التطاحن الحزبي . فحل الاحزاب الموجودة ، وبدأ يغرس في النفوس الصفاء والاخوة والسلام .

وبعد وقت قصير ، وجد اصحاب الاحزاب انفسهم وقدانفض عنهم الجميع . ولكن الامور لم تسر طبيعية بعـد، فقد بدأ كبار ضباط الجيش في ذلك الحـين ينظرون الى جمال كمنافس خطير، جاء ليحطم الاصنام ويبشر بدعوة جديدة ، فشنوا عليه حرباً لا هوادة فيها ، وحاكوا له الدسائس .

ولكنه استمر في دعوته . وان كان قد أحس بان الطريق شاق . وان كبار الضباط الذين عاشوا على الدس والوقيعة لن يتركوه .. فلما حان وقت الترشيح للنقل الى السودان « الكتيبة الثالثة » وضعوا اسمه بها .

ورحب هو بذلك ..

وفي السودان توطدت صداقة جمـال وعبد الحكيم ، وعلى الرغم من عزلتهما فإنهما كانا يشعران بسعادة كبيرة ، واتحد تفكيرهما في كثير مما كان يساورهما من الآراء نحو مصر واوضاعها، وتبلورت هذه المعاني في صورة جدية واضحة .. هي القضاء على الفساد الذي استشرى فيها .

وفي هذه الفترة قرأ جمال كثيراً ... والتهم وزميله عـدداً من الكتب . وكانت الكلية الحربية قـد فتحت امامه آفاقـاً جديدة من الدراسة ، دراسة

الحروب والتكتيك والوقـائع والأعمال الضخمة التي قـــام بها نابليون وخالد والاسكندر .

وكانت فرصة للتحضير لكلية اركان الحرب ..

حقاً .. لقد دخل جمال عبد الناصر في دور صراع جديد ، هو الصراع مع الطبقة القديمة في الجيش . انه رفض ان يكون ذليـــلاً مثلهم . ان الذي يزعج جمال في هذه الفترة ان الجيل الجديد قد افسده الجيل القديم **فأصبح منافقاً متملقاً**. وان الجيش لذلك يسير نحو الهاوية ..

ويبدو أن فترة التأمل الطويل التي اتاحها له الفراغ في جبل الاولياء قـــد اكدت افكاره وآراءه . فهو يكتب في اغسطس – آب – سنة ١٩٤١ الى صديقه في القاهرة خطاباً يبين فيه هذا التطور الجديد :

« ان الحياة الآن تختلف اختلافاً كلياً عما كانت عليه في الماضي . وطبعاً في هذا الاختلاف تأثير على النفس وعلى الفكرة التي كونتها عن الحياة . والحقيقة ان كل ما كنت اعتقده في سنة ١٩٣٦ ، وما حولها من الايام ، يتغير تغيراً مستمراً . وتثبت لي الأيام ان تفكيري في الأيام المـــاضية كان خطأ ، وان نظرياتي ونظرياتك ايضاً كانت كلها من بنات الخيال ، وان الحقيقة الآن تهدم هذا الخيال بالنسبة لي ..

تصور كلامي وتعجب . جوى ايه لجمال عبد الناصر .. ولكن اذا عشت ربع المدة التي عشتها في هذا الجو لكنت العن من ذلك . الاخلاص معدوم . والذمة مفقودة . والضمير لا تسمع عنه . اذا كنت انا الوحيد في هـذه البيئة اعترف بالضمير ، واعترف بالذمة ، فطبعاً اكون مغبوناً جداً . اذ ان كل البلاد ستقع على هذا الذي لا يرضى عن الذمة بديلا .. »

لقد ادخل جمال في حسابه أن الناس لا يؤمنون بالمثالية ايمانه بهـــا . وانهم عبّاد المصالح والأهواء .

ورسم جمال رأيه في الأحداث . صوّر ذلك المعنى الذي يملأ قلبه في حادث ٤ فبراير–شباط– :

« لو أحس الاستعمار أن بعض المصريين ينوون التضحية بدمائهم ، ويقاتلون القوة بالقوة ، لانسحب كأي امرأة من العاهرات ..

« اما الجيش ، فقد كان لهذا الحادث تأثير جديد على الروح والاحساس فيه ، فبعد ان كنت ترى الضباط لايتكلمون إلا عن الفساد واللهو ، اصبحوا يتكلمون عن التضحية والاستعداد لبذل النفوس في سبيل الكرامـــة . واصبحت تراهم وكلهم ندم لأنهم لم يتدخلوا مع ضعفهم الظاهر . ويردوا للبلاد كرامتها ويغسلوها بالدماء . ولكن ، إنّ غداً لناظره قريب .

« لقد حاول البعض بعد الحادث أن يعملوا شيئاً بغيـــة الانتقام ، ولكن الوقت كان قد فات .

«اما القلوب فكلها نار وأسى... عموما، فان هذه الحركة، بل هذه الطعنة، قد ردت الروح إلى بعض الأجساد ، وعرفتهم ان هناك كرامة يجب ان يستعدوا للدفاع عنها .

وكان هذا درساً .. درساً قاسيا »

وهنا تبدو في عبارت جمال روح التحفز . روح الرغبة في الانتقام واعادة الكرامة الى هذا الوطن .

●

وفي خلال هـذه الفترة بدأ جمال عمله الفعلي . اشعل الجذوة في ليـــالي « منقباد » . وكان في صمته خلال نقله الى السودان ، وبعد عودته ، يعد العدة لجذوة اخرى لا ينطفىء ضوؤها ولا يفرغ زيتها – على حد تعبير انور السادات .

كان جمال في خلال هذه الرحلة الطويلة يبحث عن الرجال والاعوان.. عيناه الفاحصتان تبحثان عن الأعوان والرجال .

وقد غلبت الحكمة على جمال حتى في هذه الفترة المبكرة . ولذلك فهو يقول لصديقه في مارس–آذار– ١٩٤١ في خطاب من الخرطوم : « ارجو ألا تكون قد اندفعت بغير عقل . او تندفع بغير روية .. »

وهو بهذه الحيطة ، وهذه الاعصاب الهادئة ، يفكر طويلا . وتعيش الفكرة

في اعماقه حتى تنصهر وتستوي وتولد قوية حية .. لا تموت .

لقد فتح جمال هذا الباب الجديد : باب الضابط المصري المحتفظ بكرامته . الذي لا ينحني ولا يتملق . والذي لا يخشى احداً الا الله . هذا النموذج الجديد الذي لا يعرف السهر ولا الشراب ولا اللذات الرخيصة . المستقيم . الذي يصلي ويصوم ويعبد الله ويخشاه .

لقد كسب خبرة ضخمة من معرفة الناس والبلاد . وشاهد عن كثب أوضاع الاستعمار في السودان والعلمين .

●

وعاد جمال من السودان عام ١٩٤٢ ليكافح في ميدان جديد . حيث عين مدرساً بالكلية الحربية . والتحق بكلية اركان الحرب فنال شهادتها بتفوق . والتقى في خلال دراسته بها بزملائه . وكان الله قد اتاح لهم خير فرصة لتدارس امورهم وتوحيد صفوفهم . وكانوا يدرسون في ذلك الوقت كيفية حماية القاهرة ومداخلها من مشاة العدو او الهابطين بالمظلات ، وقد طبق كل هذا فيا بعد ابان ثورة الجيش . وكانت الكلية تضم عدداً كبيراً من ممثلي الاسلحة المختلفة فساعد بذلك على ربط اللجنة السرية بجميع اسلحة الجيش.

وفي هذا المحيط بدأ جمال يكون مشروعه الضخم ، وينظم خطوط العمل الكبير الذي ظل يفكر فيه ويعد نفسه له منذ اول الشباب .

●

الوقت عام ١٩٤٢ .

لقد وصف هو هذا الاتجاه بأنه كان مجموعة مشاعر اتخذت شكل الامل المبهم ، ثم شكل الفكرة المحددة .ثم دخل في دور التجارب : أيُ طريق يمكن ان يصل به الى الغاية الكبرى ، وأي عمل ؟.. كانت الحماسة في فترة من حياته هي العمل الايجابي . ثم تغيَّر مثله الاعلى وأصبح يرى انه لايكفي ان تضج اعصابه بالحماسة ، وانما عليه ان ينقل حماسته كي تضج بها اعصاب الآخرين .

ومضت هذه الفترة في حياة جمال . ثم توجهت في خياله المشتعل فكرة

الاغتيالات على انها العمل الايجابي الذي لامفر من الاقدام عليه لانقاذ مستقبل الوطـــن .

وفكر في اغتيال كثيرين وجد انهم العقبات التي تقف بين الوطن وبـــين مستقبله . وراح يفند جرائمهم ، ويضع نفسه موضع الحكم على اعمالهم ، فكر في اغتيال الملك السابق وبعض من رجاله الذين كانوا يعبثون بحقوق البلاد .

وانتقل الى التدبير ،وأخذ يرسم الخطط المتعددة . كانت حياته في هذه الفترة اشبه بقصة بوليسية كلها اسرار ورموز، واستتار بالظلام ، ومسدسات وقنابل.

ولكن ، هل استقر هذا الاتجاه في ضميره كعمل حاسم ؟...

كلا .لم يكن مستريحاً في اعماقه الى تصور العنف على انه العمل الايجابي الذي ينقذ مستقبل مصر .

ولندعه يصوّر لنا هذه الفترة العصيبة من حياته :

« كانت في نفسي حيرة تمتزج بها عوامل متشابكة . عوامل من الوطنية ومن الدين . ومن الرحمة ومن القسوة ومن الايمان ومن الشك ..

وأذكر ليلة حاسمة في مجرى افكاري وأحلامي في هذا الاتجاه .

كنا قد اعددنا المدة للعمل . واخترنا واحداً ، قلنا إنه يجب ان يزول من الطريق ، ودرسنا ظروف حياة هذا الواحد . ووضعنا الخطـــة بالتفصيل . وكانت الخطة ان نطلق الرصاص عليه وهو عائد الى بيته بالليل . ورتبنا فرقـة الهجوم التي تتولى اطلاق النار . ورتبنا فرقة الحراسة التي تحمي فرقة الهجوم . ورتبنا خطة تنظيم الافلات الى النجاة بعد تنفيذ العملية بنجاح .

وجاءت الليلة الموعودة . وخرجت بنفسي مع جماعات التنفيذ وسار كل شيء طبقاً لما تصورناه .

كان المسرح خالياً كما توقعنا . وكمنت الفرق في اماكنها التي حددت لهـا . وأقبل الواحد الذي يجب ان يزول . وانطلق نحوه الرصاص وانسحبت فرقة التنفيذ وغطت انسحابها فرقة الحراسة . وبدأت عملية الافلات الى النجـــاة . وأدرت محرك سيـــارتي وانطلقت اغادر المسرح الذي شهد عملنا الايجابي

الذي رتبناه .

وفجأة دوت في سمعي اصوات صراخ وعويل .وولولة امرأة . ورعب طفل. ثم استغاثة متصلة محمومة . وكنت غارقاً في مجموعة من الانفعالات الثائرة والسيارة تندفع بي بسرعة .

ثم ادركت شيئاً عجيباً . كانت الاصوات مـــازالت تمزق سمعي والصراخ والعويل والولولة والاستغاثة المحمومة .

لقد كنت بعدت عن المسرح بأكثر مما يمكن ان يسري الصوت . ومع ذلك بدأ ذلك كله يلاحقني ويطاردني .

ولم أنم طول الليل ..

اكنت على حق ... « اكانت تلك هي الوسيلة التي لامفر منها ... ايمكن حقاً ان يتغير مستقبل بلدنا اذا خلصنا من هذا الواحد ، او من واحد غيره . ام المسألة اعمق من هذا ؟ » .

وخلص من هذا التفكير الى نتيجة حاسمة :

« اننا نحلم بمجد أمة ، ويجب ان نبني هذا المجد. واذن يجب ان نغير طريقنا . **ليس هذا هو العمل الايجابي ، الذي يجب ان نتجه اليه ، المسألة أعمق جذوراً واكثر خطورة وابعد غوراً »** .

وهكذا تحدد العمل امام الرجل الذي اعد نفسه لقيادة الثورة في العمـــل الإيجابي المنظم القائم على إعـــداد تشكيل ضخم في قلب الجيش ؛ فمضى ينظم خطوطه ويحدد أعوانه ويرسم خطواته .

« ... [1] وكان جمال الذي يعمل ، هو جمال الناصح الذي مرت به تجارب السنوات الست الكثيرة . سنوات الحرب . وما تخللها من احداث داخليـــة وخارجية . وما رآه فيها من هزات عنيفة ومن محاولات وطنيـــة واخرى خائنة . ومن بطولات زائفة واساليب خادعة. ومن أوضاع غريبة حلت بالجيش

---

١ ــ من مذكرات انور السادات .

او فرضت عليه .. »

وكان اخوانه الذين تعرف بهم، وربطت بينه وبينهم اواصر الصداقة والاجتماع على الهدف ، قد بدأوا يندمجون في صورة منظمة .

ان القصة الحقيقية للضباط الاحرار لم تكتب بعد . قصة التضحية وانكار الذات . قصة الجنود المجهولين الذين التفوا حول هذا الشاب السمهري القوام ، وآمنوا بفكرته واحبوه ، واستمدوا ايمانهم من ايمانه .

وقد كتب السيد انور السادات في يناير - كانون الثاني - ١٩٥٧ مذكرات جاء فيها قوله : انه الى هذه اللحظة مثلاً ، وبعد مضي عدة سنوات على قيـــام الثورة ، فان احداً منا ، نحن الذين كنا في مجلس قيادة الثورة ، لا يعلم بالضبط عدد الضباط الأحرار ، وهم الذين خرجوا في ٢٣ يوليو -تموز- ١٩٥٢ ، ومن هم الذين لم يخرجوا ، إلا فرداً واحداً هو جمال . »

وقد مرت عملية الإعداد في مراحل ثلاث :

الأولى خلال الفترة الواقعة بين سنة ١٩٤٢ و سنة ١٩٤٥ ، وهي فترة صعبة قام خلالها بنشر مبادئه واشعال الروح الوطنية . وكان أول وهج لذلـــك هو حادث ٤ فبراير -شباط- ١٩٤٢ الذي اهدرت فيه كرامة الوطن .

لقد كان هذا الحادث فرصة لم تمر دون أن يستغلها جمال في اشعال قـــلوب الضباط بالحماس ، والتعرف الى النفوس من حوله ، ومدى استعدادها للعمل من اجل الوطن .

كان يسمع صامتاً ، ويستدرج من يرى فيهم روح الوطنية الى امتحان دقيق ، ويضعهم تحت الاختبار .

ودخلت الحركة في الدور الثاني تواً.. بين سنة ١٩٤٥ ومايو -أيار- ١٩٤٨ ، إذ بدأت تأخذ شكلاً منظماً ، وأصبح من حول جمال مجموعة كبيرة .

يقول جمال«..كنا مترددين في هذه الفترة : أول الأمر ، الخطة التي نسلكها لتحرير الوطن ، وهل نبدأ حربنا بالاستعمار أولاً ام نبدأ بأعوانه ... ولكن ترددنا لم يطل ، اذ رأينا أن الاستعمار لا يستطيع ان يثبت أقدامه الا باعتماده

الكامل على أعوانه من الخونة ، أو الاشخاص الذين تتفق مصالحهم مع سياسة المستعمر المتقلبة المتغيرة حسب ظروفه وأهوائـــه في تقريب الاشخاص او الاحزاب .. »

«وقد اعترضت طريق المرحلة الثانية عقبات« كان أهمها عدم وجود الثقة في النفوس . فالفرد لا يثق بنفسه ولا بزميله . وكانت هذه اصعب فترة مرت بنا . لذلك بذلنا جهدنا في بث الثقة بين الضباط . وكنا نتتفع بالصداقات التي تربط الضباط بعضهم ببعض لإيجاد هذه الثقة وعدم إفشاء الأسرار الشخصية للأفراد، ثم أسرار حركتنا . واستطعنا بذلك ضم أحرار جدد الى صفوفنـــا في الوقت الذي كانت المخــابرات السرية والبوليس السياسي ينشطان في تعقب أي حركة . ولكننا نجحنا بفضل الإيمان بالله ، والإيمان بالوطن ، والصبر والعزيمة ..»

وقد روى السيد انور السادات قصة حدثت في هذه المرحلة تصور الى أي مدى كان جمال عبد الناصر يصنع الثورة في حكمة وتعقـــل . وكان لا ينتقل خطوة الا بعد ان يتأكد من ان الارض ثابتة تحت قدميه .

«.. كنت اتعجل ، وكان جمـال يتريث . حتى أتى اليوم الذي شكلت فيه وزارة النقراشي عقب مصرع احمد ماهر . وذهب النقراشي الى السفارة البريطانية فقابله كلين على سلم السفارة . وكانت هذه القصة حديث مصر .

فقد كانت قصة بغيضة فاضحة . ولم يكن في البلاد مصري واحد يحتمـل سماعها دون ان تفور الدماء في عروقه ، ويهم بأي عمل يمكن ان يسمى من اعمال الجنود . فقد كانت خلاصة هذه القصة ان النقراشي لم يكـد يشير الى مطالب مصر حتى هز ذلك اللورد كتفيه في استهتار وسخرية . وقال للنقراشي :

— دعك من هذا الكلام ، فان حديث الجلاء والوحدة ليس الا حـديث خرافة !

وكانت لطمة قاسية أردنا ان نردها .

وذهبت الى جمال وفي يدي خطـــة من التشكيل الشعبي لنسف السفارة البريطانية على كل من فيها . واستمع اليّ جمال طويلا . وناقش خطتي منـاقشة

كاملة . وأقرّ كل أطرافها وعناصرها . ولكنه في آخر الأمر هز رأسه وقال : لا ؛ نحن لا نريد ان نعيد مأساة السودان التي وقعت منذ عشرين عاماً ..»

هذا هو جمال في صورة القائد المسئول الذي يعد نفسه لثورة كبرى .

إنه مثلٌ للعقل الكبير الذي لا تهزه العاطفة، فتخرجه عن الحكمة ، وتعرّض البناء كله للخطر .

في فلسطين

« لقد مرت على حركتنا ثلاث مراحل : الاولى كانت خلال الفترة الواقعة بين سنة ١٩٤٢ وسنة ١٩٤٥ وهي فترة صعبة قمنا خلالها بنشر مبـادئنا واشعال الروح الوطنية وتقوية الجيش عن طريق رفع مستوى ضباطه . وكان اول مشكل لذلك هو حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ الذي اهدرت فيه كرامة الوطن. والمرحلة الثانية كانت خلال الفترة الواقعة بين سنة ١٩٤٥ وشهر مايو سنة ١٩٤٨ وقد بدأت الحركة تأخذ خلالها شكلا منظما واصبحنا مجموعة وكنـا مترددين في اول الامر في الخطة التي كنا نسلكها لتحرير الوطن وهل نبدأ حربنا بالاستعمار اولا او نبدأها بأعوانه ؟

ولكن ترددنا لم يطل اذ رأينا الاستعمار لا يستطيع ان يثبت اقدامه الا باعتماده الكامل على اعوانه من الخونة او الاشخاص الذين تتفق مصالحهم مع سياسة المستعمر المتقلبـة المتغيرة حسب ظروفـه واهوائه في تقريب الاشخاص او الاحزاب .

لقد اعترضت طريق المرحلة الثانية عقبات ، كان اهمها عدم وجود الثقة بين النفوس ، فالفرد لا يثق بنفسه ولا بزميله ، وكانت هذه اصعب فترة مرت بنا لذلك بذلنا جهدنا في بث الثقة وعدم افشاء الاسرار الشخصيـة للافراد ثم اسرار حركتنا .

واستطعنا بذلك ضم احرار جدد الى صفوفنا في الوقت الذي كانت المخابرات السرية والبوليس السياسي ينشط في تعقب اي حركة ، ولكننا نجحنا بفضل الايمان بالله والايمان بالوطن والصبر والعزيمة . وكانت المرحلة الثالثة للحركة وهي التي بدات عـام ١٩٤٨ الى عـام ١٩٥٢ وهي المرحلة الفاصلة التي بدأت الحركة فيها تتطور وتتخذ لاتجاهها شكلا محددا لتحقيق خطتها في القضاء على اعوان الاستعمار .

وبدأت مشكلة فلسطين فسارع الضباط الاحرار في التطوع مع البطل « احمد عبد العزيز » وكان اغلب المتطوعين من الضباط الاحرار الذين سارعوا لنجدة اخوانهم العرب .

وكان الصاغ كمال الدين حسين من اوائل المتطوعين في هذه الحرب

فقد ترك اهله وبنيه وزوجته التي كانت على وشك الوضع ، ترك كل شيء وسارع ليجاهد مع المتطوعين .

واشترك الجيش المصري في حرب فلسطين ، وبدأت الخيانة تظهر كل يوم بوجه جديد وبدأت رائحة الفساد تسد الانوف وقد ساعد كل هذا على تقوية حركتنا وبدأت النفوس تتحد بعد ان جمعتها الآلام ... »

***

وهكذا دخل جمال مرحلة الاعداد للثورة .

وكانت حملة فلسطين ونتائجها هي روح هذه المرحلة الخطيرة الحاسمة .

وكان جمال قد انتهز هذه الفرصة ، فقدم استقالته ليشترك في التطوع وليحارب بنفسه ، وذلك قبل دخول جيش مصر الحرب بصفة رسمية. وقد اتخذ هذا القرار بالرغم من انه لم يكن له ولأولاده مورد آخر . ولكن طلبه رفض ، وتحقق أمله من بعد بأن سافر مع القوات المصرية .

« وسارع الضباط الأحرار في التطوع مع البطل احمد عبد العزيز . وكان أغلب المتطوعين من الضباط الأحرار الذين سارعوا لنجدة اخوانهم العرب . واشترك الجيش المصري في حرب فلسطين ، وبدأت الحياة تظهر كل يوم بوجه جديد ، وبدأت النفوس تتحد بعد أن جمعتها الآلام . .

وكانت معركة فلسطين هي بؤرة الثورة. فهناك، بين خطوط القتال وخنادق الحرب ، كان جمال يجتمع باخوانه ؛ كانوا يتناجون بمصر وامور مصر ، والعرب وأمر العرب ، وقد تأكدت بينهم وحدة التفكير وروابط الثقة .

وكشفت فلسطين لجمال عبد الناصر عن دوره الحقيقي . واكدت في نفسه حاجة العرب ، لا حاجة مصر وحدها ، الى القائد والزعيم والمنقذ .. فقد كشفت عن مخازٍ ومآسٍ جعلت أفكاره تتبلور في الصورة الحاسمة النهائية .

وكشفت فلسطين بطولة جمال،فقد قاد المعارك التي اشترك فيها بروح عالية. كان يتصدر جنوده دائماً في المعارك ، مما أدى الى اصابته برصاصة فوق القلب فأرسل الى مستشفى غزة للنقاهة لمدة شهر . ولكنه لم يحتمل البقاء في سريره إلا

أياماً ، ثم هرب منه — ان صح ان يسمى هذا هرباً — عائداً الى ميدان المعركة ..

ويصف جمال شعوره في هذه الفترة ، فيقول :

« لقد كنا نحارب في فلسطين ، ولكن احلامنا كانت في مصر . كان رصاصنا يتجه نحو العدو الرابض أمامنا في خنادقه .. ولكن قلوبنا كانت تحـــوم حول وطننا الذي تركناه للذئاب ترعاه . وفي فلسطين ، كانت خلايا الضباط الأحرار تدرس وتبحث وتجتمع في الخنادق والمراكز ..

وقال الشهيد احمد عبد العزيز : إن ميدان الجهاد الأكبر هو في مصر .

وفي «الفالوجا» كانت هناك تجربة اخرى .

كانت الفالوجا محاصرة . وكان تركيز العدو عليها ، ضرباً بالمدافع والطيران ، تركيزاً هائلاً مروّعاً . وكان جمال يقول لنفسه : « ها نحن في هـــذه الجحور محاصرون . لقد غُرِّر بنا ، ودُفعنا الى معركة لم نُعد لها .. لقـد لعبت مطامع ومقدرات وشهوات ، وتركنا هنا تحت النيران بغير سلاح . »

وكان جمال أركان حرب الكتيبة السادسة بنادق . وحوصرت كتيبته في عراق المنشية . وهوجمت مرتين . وانتصر جمال . انتصر بقوة أعصابه . فقـد استدعى نصف القوات المعسكرة في الجانب الآخر من حدود المعركة دون ان يعلموا أن اليهود قد توغلوا هذا التوغل الخطير في صفوفهم ، واقتحم جمال المعركة بالمدد الجديد .. وانتصر .

لقد شهد جمال معركة فلسطين منذ يومها الأول الى يومها الاخير .. من ١٦ مايو — أيار — ١٩٤٨ الى ٦ مارس — آذار ١٩٤٩ ، فماذا أعطته ، بماذا أمدت المعركة هذه الشخصية الثائرة التي كانت تعد عدتها لعمل ضخم كبير ؟..

لقد أعطته فلسطين الحقيقة الأخيرة : الإيمان الأكيد بانه على الحق . وبأن مصر تشهر مرحلة الغروب . غروب الدولة الظالمة الفاجرة ، المستبدة ، ليشرق على يديه فجر جديد .

آمن جمال بأن مصر لا تستطيع بعد هذا أن تنتظر كثيرا . هـذه علامات النهاية .

واعطت فلسطين جمالاً تجارب جديدة ،فهي أول معركة فعلية يخوضها هو.. ويخوضها الجيش المصري كله. وقد كان على الرجل الذي كان يدرس في كلية اركان الحرب أن يدرس المعركة على الطبيعة بصورة واقعية .

وكان من الضروري ان يصادفه في هذه الحرب مواقف حرجة .

ومن اهم هذه المواقف ليلة ٢٨ ديسمبر – كانون الاول – ١٩٤٨ .

وقد روى جمال هذا الموقف الخطير :

«كان احرج موقف هو ليلة ٢٨ ديسمبر – كانون الاول – ١٩٤٨ . كنت اركان حرب الكتيبة السادسة التي كانت تحتل عراق المنشية في منطقة «الفالوجا» المحاصرة . وكان عراق المنشية يبعد عن «الفالوجا» بحوالي ٣ كيلومترات .

وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ابلغني قائد إحدى السرايا أن اليهود قاموا بهجوم ليلي . وانهم قد استطاعوا ان يتسللوا خلال سريتهم . وانهم يندفعون الى داخل عراق المنشية . ولم يكن عندي احتياط سوى عشرين جندياً فقط . ولكنني تمكنت بواسطة هذا الاحتياطي الصغير أن اسد المنافذ المؤدية الى رئاسة الكتيبة .

وبعد ساعة كان اليهود يحتلون ثلثي البلدة. ونحن نحتل الثلث الآخر . وكانت قواتنا موجودة في خنادقها حول البلدة . كان الموقف في غاية الخطورة والحرج، وكان الحل الاول هو طلب معونة من الفالوجا . اذ ان لديها قوات احتياطية كبيرة . وقد وعدوني بارسال قوة استطيع بها ان اقوم بهجوم مضاد لطرد قوات العدو من البلدة . وبدأت أنفذ خطة أخرى هي سحب بعض الافراد من القوات الموجودة بالخنادق لتعزيز الاحتياطي الموجود حول مركز رئاسة الكتيبة. وحتى الساعة الرابعة لم يصل اي شيء من الفالوجا . واستنتجت انهم لم يبتوا في: هل يرسلون قوة ام لا يرسلون . وكان تفكيرهم أنهم لو فعلوا ذلك سيكون مصيرهم مثل مصيرنا . وهو القتل او الاسر .

ولم يكن امامي غير حل واحد في هذا الوقت العصيب الحرج ، هو اعتمادنا على انفسنا . فأصدرت الأوامر بسحب جميع قوات الكتيبة من الخنادق وبجمعها

في ثلث البلد الذي لا يزال في ايدينا . وقد تم سحب هذه القوات بكل هدوء . وعند أول ضوء من الصباح كانت جميع افراد الكتيبة تقريباً تكوِّن قوتين متقاربتين . وبدأنا في تنفيذ خطة الهجوم المضاد لطرد اليهود . وكانت مفاجأة مذهلة لليهود ، الذين لم يتوقعوا انتظاراً . ودامت المعركة الحامية من الساعة السادسة الى الساعة التاسعة . وانتهت بقتل ٣٠٠ يهودي وأسر خمسة منهم . وفرت باقي القوات المعادية التي كانت في قلب البلدة . وعند الساعة الحادية عشرة تقريباً استعادت قواتنا مراكزها حول البلدة ...»

ثم عاد جمال من فلسطين فماذا كان بعد ذلك ؟

«وعدنا من فلسطين في مارس ـ آذار ـ ١٩٤٩ ، وبدأنا نجمع صفوفنا بعد ان تفرقت جموعنا . وقتل في الحرب عدد كبير من الضباط الاحرار ، وتخلف البعض منا في الطريق . اذ رأى انه لا أمل لنجاح خطتنا الا بالاتصال بالملك السابق والاتحاد معه في حربنا مع المستعمر واعوانه من الخونة . واتصلوا برجال الملك السابق فساقتهم شروره ومفاسده ، وحادت بهم عن خطتهم . لقد كانوا وطنيين ، ولكن الغواية أضلتهم عن الطريق الصحيح . ورأينا إزاء ذلك ان نحيط أعمالنا بكثير من الحذر ، لأن البعض يعرف الكثير من أسرارنا ، وهو متصل بالملك ورجاله .

وتظاهرت ، أنا وزملائي ، أمام هذه الجماعة بأننا صرفنا التشكيلات التي كنا أقمناها ، وانه اصبح لا هم لنا إلا اكل العيش .»

وكانت هزيمة فلسطين هي الشر الذي ينبثق منه الخير والنور . فقد كانت بصفحاتها السوداء «كوة النور» التي لمع منها شعاع الثورة .

كانت بداية النهاية بالنسبة لعهدٍ ونظامٍ وحكمٍ وملك ..

كانت علامة الغروب . وملامح الرجل المريض وهو يلفظ آخر انفاسه .

كانت مأساة فلسطين هي المسمار الأخير في نعش دولة الخونة والسماسرة الذين حكموا الشعب وقتلوا جنوده وضباطه ، ومزقوا كرامته وسخروا من مقدساته ..

وسرعان ما اعاد جمال بناء الضباط الاحرار وفق تنظيم جـــديد يكفل السيطرة على الجيش كنقطة البدء لتحرير مصر .

ولطالما فكر جمال عبد الناصر وإخوانه فيمن يتولى المعركة .. وانتهى هذا التفكير بنهاية واحدة . هو ان الجيش وحده هو القوة الباقية النظيفـة التي لم تتلوّث ،والتي تستطيع ان تقوم بهذا الدور ، إذ لديها الإمكانيات الكاملة .

بل لقد تأكد جمال ـ وتأكد الشعب كله من بعد ـ بأن أية مجموعة اخرى لو ارادت ان تؤدي هذا الدور لفتحت البـاب لفتنة دامية ، وخلاف عنيف ، لا يعرف مداه ولا نتائجه... وكأنما قد ادخر الله هذا الجيش على هذه الصورة التي كنا نعرفها ، ليؤدي هذا الدور الحاسم من تاريخ الامة العربية ، وليطلع الفجر على البلاد بعد ليل طويل مظلم .

« ... [1] كان لا يمكن ان تظهر هذه القيادة من خارج قوات الجيش، وإلا لكانت مذبحة يفنى فيها الجيش والشعب، قبل ان يفنى الاعداء . فمن غير القوات المسلحة كان لا يمكن للشعب خوض معركته ضد أعدائه ـ لأن القوات المسلحة كانت في هذه الحالة ستنضم الى الجانب الآخـر ... الى جانب القصر والإقطاع والاستعمار والرجعية . ليس لأن وحداتها خارجة على الشعب ، بل لأن قيادتها كانت خاضعة لأعداء الشعب ، وكانت تعمل على حماية هؤلاء الاعداء » .

●

عاد جمال وإخوانه بعد رفع حصار الفالوجة .. وما كاد يصل الى بيته حتى حضر لزيارته من طلب اليه مقابلة رئيس اركان حرب الجيش الذي طلب اليـه مقابلة رئيس الوزراء في ذلك الوقت «ابراهيم عبد الهادي» حيث وجهت اليه تهمة العمل ضد القصر .

ولندع جمال يروي القصة بقلمه :

« كان هذا اول تحقيق معي وانا ضابط . ولو انه لم يكن اول تحقيق معي . فقد أجروا معي عدة تحقيقات من قبل ، وانا طالب بالمدارس الثانوية .

---

١ ـــ انور السادات .

حضر اليّ أحد الضباط نحو الساعة الواحدة بعد ظهر يوم ٢٥ مايو – أيار – واخبرني ان رئيس هيئة أركان الحرب يطلبني لمكتبه . وسألني ، وهو مضطرب ، عما اذا كنت قد عملت شيئاً يستحق المؤاخذة. فطلبت من زوجتي ان تبلغ عبد الحكيم عامر بأمر استدعائي اذا لم أعد حتى الساعة الرابعة . فقـد أحسست بالخطر . وكانت التهمة الموجهة اليّ في ذلك الوقت هي تدريب المجاهدين في فلسطين .

وأجرى رئيس الوزراء التحقيق بنفسه معي . وقد دام هذا التحقيق سبع ساعات في حضور الفريق عثمان المهدي ، رئيس هيئـة اركان حرب الجيش . وحضر اللواء احمد طلعت رئيس البوليس السياسي جانباً منه.

ولقد كانت اعصاب رئيس الوزراء ثائرة في ذلـك اليوم . وكان يسألني عن الضباط الذين اشتركوا معي في التدريب . وكان يهددني بإحالتي الى النيـابة والبوليس لتؤخذ الإجراءات معي . وقد كانت هذه الاجراءات تعني الذي كان الشعب بأجمعه على علم به .

ولقد كنت مالكاً لأعصابي في ذلك اليوم. وطلبت منه ان يواجهني بالمبلغين.

وسألني في التحقيق : هل عندي اسلحة في منزلي. فقلت له : عندي ذخيرة يهودية من فلسطين تبلغ حوالي ٢٠٠ طلقة مدفع ستين .

ولقد فقد رئيس الوزراء الكثير من أعصابه في ذلك اليوم. وكان يقول لي، بعد ان ضاق صدره من إصراري وصمودي أمام تهديداته : لا أدري ماذا أعمل معك . ضابط كبير مثلك، قد تصدر إليه الأوامر فجأة لمقاومة اي حركة ثورية! كيف يكون الوضع ، وكيف نطلب من الانجليز الخروج ، والوضع على هـذا الحال ؟..إنكم تقولون إنني جبان، ولكني لست بجبان، الا في حالة واحدة فقط، وهي يوم يعتدى على انجليزي واحد ، حتى ولو كان مرتدياً بنطلوناً مقطعاً .

وكان رئيس الوزراء يقول في ثورته : هل تريدون ان يحتل الانجليز القاهرة والاسكندرية ؟.. لقد وجدت في قصر الملك مفرقعات . وانا أود أن أعرف ما الذي نعمله اذا «جرى حاجة» للملك ، فان ظفر اصبعه بالعائلة المالكة كلها .

وبعد سبع ساعات، وكنت قد خرجت من مكتبه ليقوم رئيس هيئة اركان

حرب الجيش بمحاولة اقناعي بالاعتراف ، ثم طلبني ابراهيم عبد الهادي مرة اخرى وقال : روح يا ابني .

وطلب مني الفريق عثمان المهدي ان يتوجه معي لإحضار الذخيرة الموجودة في منزلي ، والتي حفظت في خزانة مدير المكتب ، القائمقام عبد العزيز فتحي ، حتى استولينا يوم ٢٣ يوليو – تموز – على رئاسة الجيش ، ووجدها عبد الحكيم عامر في خزينة مدير مكتب رئيس هيئة اركان حرب الجيش .

وانتهى التحقيق في الساعة الثامنة. وتوجهت الى منزل عبد الحكيم فوجدته قد اتصل ببعض الضباط الأحرار الموجودين في القاهرة . وكانوا مجتمعين به في منزله . وكان هذا اول يوم لي في الاجازة التي اخذتها من عملي في الاسماعيلية . وكانت لمدة شهر .

وقد بدأنا في وضع خطتنا في ذلك اليوم . وفي نهاية الشهر كان شملنا قد اجتمع ، ورأينا اننا نحتاج الى خمس سنوات لتعبئة ضباط الجيش حتى نستطيع التخلص من النظام كله . اي اننا كنا سنقوم بحركتنا في عام ١٩٥٤ ، وليس في عام ١٩٥٢ كما دفعتنا الظروف والحوادث الى التفكير في تنفيذ الخطة .

وتعددت بعد ذلك اجتماعاتنا في كل مكان . وفي منازل متعددة .

ونقلت في شهر اغسطس الى القاهرة . وبدأت في شهر سبتمبر – ايلول – ١٩٤٩ في التنظيم الجدي ، والخروج بالحركة الى نطاق واسع ، فبثثنا العيون في كل مكان : في القصر ، وفي القيادة العامة للقوات المسلحة ، وفي البوليس السياسي ، وفي مختلف الاسلحة والوحدات . وكانت هذه العيون تنقل الينا كل المعلومات التي تصل الى المسؤولين في ذلك الوقت عن حركة الضباط الاحرار . »

●

« ورأينا ان ننشر آراءنا ودعوتنا بين صفوف الضباط على نطاق واسع عن طريق المنشورات السرية .واشترينا آلة رونيوم لطبع المنشورات وآلة كاتبة ، وقام زملاؤنا من الضباط بشرائها . وقد وضعنا هذه الآلة في منزل احد زملائنا لأنه كان متصفا بالمرح الذي يبعد عنه اي شبهة . وبدأنا بطبع المنشورات

في داره بكوبري القبة » .

وصدر اول منشور للضباط الاحرار في شهر نوفمبر–تشرين الثاني–١٩٤٩. وقد تضمن تحليلا وسرداً للحالة ولمأساة فلسطين. وكان جمال واخوانه يقومون بتوزيع المنشورات على صناديق البريد ، وعلى فروع التوزيع في الوحدات والاسلحة المختلفة ، وكانوا يطبعون في المرة الواحدة الف منشور. وكانوا يحصلون على حاجتهم من الورق والحبر من الجيش . وكان توزيع المنشورات يتم بعضه بواسطة البريد والبعض الآخر باليد .

ثم انتقل زميلنا من منزله في القبة الى حي يكاد يكون غير معروف فيه . فانتقل الى الجيزة واستمرت المطبعة في عملها ، وفي منزله ، حتى بدأت الثورة في ٢٣ يوليو – تموز – » .

وقد قامت السلطات المختصة بضبط هذه المنشورات مرة واحدة في البريد ، إذ أنها تشككت في محتويات ظروفها التي كانت من مقياس واحد ، فغيّر جمال طريقة التوزيع في البريد .

وكان لكل ضابط من الضباط الاحرار مهمته الخاصة ، فكان على البعض منهم مراقبة الضباط عند قراءتهم للمنشورات ، ونقل تعليقاتهم على ماجاء فيها ، وضم الاشخاص الذين يبدون تشجيعاً للحركة بعد وضعهم تحت الرقابة .

•

واستمر جمال يعمل بهمة مع اخوانه في توسيع نطاق التنظيم ، ونشر الدعوة وتخير الممتازين حتى سنة ١٩٥٢ . وكان الملك السابق يبدي اهتماماً كبيراً بحركة الضباط الأحرار ، ويعمل للقضاء عليها . وبدأ جمال واخوانه ينظمون انفسهم للمعركة ليكونوا مستعدين في اي وقت .

وفي اكتوبر–تشرين الاول– ١٩٥١ اعلن رئيس الوزراء الغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وبدأت إثر ذلك ، معركة القنال بين الفدائيين المصريين وبين الجنود الانجليز . وكان موقف الوفد – بصفته الحزب الحاكم – مخزياً .

وحمل جمال على اكتافه اكبر عبء في أعمال الفدائيين . إن احداً لم يكن

يعرف الدور الضخم الذي قام به دون إعلان او دعاية .

ولكن الموقف تحول تحولاً خطيراً حين حرقت الخيانة مدينة القاهرة (٢٦ يناير – كانون الثاني – ١٩٥٢) .

ويقول انور السادات : إنه مثلما كان حادث ٢٦ يناير – كانون الثاني – مفاجأة كبيرة لنا، فقد كان ايضاً حافزاً على ضرورة تحديد موعد الحركة بصورة نهائية. وبما ان الحادث كان ايذاناً ببدء عهدٍ من النكبات والكوارث والإرهاب الملكي في البلاد، فقد كان لا بد ، بالطبع ، ان يوضع حد لهذا الجو الذي وجدت مصر فيه. وكنا قد رتبنا أنفسنا على ان نضع هذا الحد مهما كانت عواقب المخاطرة.

وقد تساءل كثيرون ، لماذا لم تستغل حوادث ٢٦ يناير – كانون الثاني – وخاصة ان قوات الجيش كانت تحتل الشوارع ، وكان التجول ممنوعاً بعد غروب الشمس .. ولكن جمال عبد الناصر يجيب على هذا السؤال بقوله : كان الوضع يستلزم المحافظة على الأمن في البلاد ، وكانت الظروف لا تحتمل حوادث جديدة .

وأعلن الثورة ..

« وعدنا من فلسطين في مارس ١٩٤٩ وبدأنا نجمع صفوفنا بعد ان تفرقت جموعنا وقتل في الحرب عدد كبير من الضباط الاحرار . وتخلف البعض منا في الطريق ، اذ رأى انه لا امل لنجاح خطتنا الا بالاتصال بالملك السابق والاتحاد معه في حربنا مع المستعمر واعوانه من الخونة . واتصلوا برجال الملك فساقتهم شروره ومفاسده وحادت بهم عن خطتهم . لقد كانوا وطنيين ، لكن الغواية اضلتهم عن الطريق الصحيح .. ورأينا ازاء ذلك ان نحيط اعمالنا بكثير من الحذر لان البعض يعرف الكثير من اسرارنا وهو متصل بالملك ورجاله .

وتظاهرت انا وزملائي امام هذه الجماعة باننا قد صرفنا التشكيلات التي اقمناها وانه اصبح لا هم لنا الا اكل العيش .

وفي نهاية شهر مايو ١٩٤٩ كان شملنا قد اجتمع . ورأينا اننا نحتاج الى خمس سنوات لتعبئة ضباط الجيش حتى نستطيع التخلص من النظام كله . اي اننا سنقوم بحركتنا في عام ١٩٥٤ وليس في عام ١٩٥٢ .

وتعددت بعد ذلك اجتماعاتنا في كل مكان وفي منازل متعددة . ونقلت في شهر اغسطس الى القاهرة وبدأنا منذ شهر سبتمبر سنة ١٩٤٩ في التنظيم الجدي والخروج بالحركة الى نطاق اوسع .

فبثثنا العيون في كل مكان : في القصر وفي القيادة العامة للقوات المسلحة ، وفي البوليس السياسي ، وفي مختلف الاسلحة والوحدات . وكانت هذه العيون تنقل الينا كل المعلومات التي تصل المسئولين في ذلك الوقت عن حركة الضباط الاحرار . ورأينا ان ننشر اراءنا ودعوتنا بين صفوف الضباط على نطاق واسع عن طريق المنشورات السرية . ولقد جمعنا فيما بيننا ثمن الة رونيو لطبع المنشورات والة كاتبة وقام بعض زملائنا من الضباط بشرائها .

وقد وضعنا هذه الالة في منزل البكباشي حمدي عبيد لانه كان متصفا بالمرح الذي يبعد عنه اية شبهة وبدأنا بطبع المنشورات في داره بكوبري القبة .

وكان عبيد وخالد وانا ، كنا نحن الثلاثة نتولى عملية الكتابة والطبع ،

وقد صدر اول منشور للضباط الاحرار في شهر نوفمبر ١٩٤٩ وقد تضمن تحليلا وسردا للحالة ولمأساة حرب فلسطين .

وكان عبد الحكيم عامر وصلاح سالم وكمال الدين حسين وانــا تقوم بتوزيع المنشورات على صناديق البريد وعلى فروع التوزيع في الوحدات والاسلحة المختلفة . وكنا نطبع في المرة الواحدة الف منشور ، وكنا نحصل على حاجتنا مــن الورق والحبر من الجيش ، وكان توزيــع المنشورات يتم بوساطة البريد والبعض الآخر باليد .

وكان لكل ضابط من الضباط الاحرار مهمته الخاصة فكان على البعض منهم مراقبة الضباط عند قراءتهم للمنشورات ونقل تعليقاتهم على مــا جاء فيها وضم الاشخاص الذين يبدون تشجيعا لحركتنا ووضعهم بعد ضمهم تحت المراقبة .

وفي نهايــة ١٩٤٩ اجتمعت اللجنــة التأسيسية للضبــاط الاحرار وقررت ادخال بعض التنظيمات الجديدة على الحركة . واستمرت الحركة في نشر دعوتها بين صفوف الضباط حتى عام ١٩٥٢ .

وبدأ الملك السابق يهتم بحركة الضباط الاحرار وبالقضاء علينا فبدأنا ندرب انفسنا للمعركة لنكون على استعداد لها في اي وقت .

كان الوضع يستلزم المحافظة على الامن في البلاد . وكــانت الظروف لا تحتمل حوادث جديدة ولم نكن قد وضعنا خططنا بعد للانقلاب او التمهيد له في صفوف الضباط الآخرين .

ولقد كنا نزن قوتنا في كل وحدة وكل سلاح لسد الثغرات الضعيفة في جبهتنــا .

وفي اول يونيو سنة ١٩٥٢ قمت بالاجازة الثانية لي بعد حرب فلسطين وتوجهت الى الاسكندريــة وكان الجهاز كله يعمل فــي صمت وسكون في القاهرة ما عدا عبد الحكيم وصلاح اللذين كانا في فلسطين .

وفي يوم ١٢ يوليو عدت الى القاهرة بعد ان اطمأننت الى قوتنا فــي الاسكندرية وكان عبد الحكيم ينتظرني ومعه تقرير كامل عن فلسطين وقال ان صلاح مستعد لتنفيذ اي طلب في رفح وجمال سالم مستعد في العريش .

واجتمع اعضاء اللجنة التأسيسية بالقاهرة لبحث الموقف وانتهينا الى اننا نسيطر فعلاعلى رفح والعريش والقاهرة والاسكندرية وانتظرنا الحوادث .

وفي يوم ١٥ يوليو بدأت الحوادث والاخبار ترد الينــا بعزل مجلس ادارة نادي ضباط الجيش في داخل الجيش ثم الاتجــاه بعد ذلك الــى الشعب وباتجاه الطرف الآخر الى كبت الشعور القومي للتنكيل به . وكانت هذه هي « اشارة الخطر » .

فاجتمعنا وقررنا ان نتخذ اجراء مضادا وفي اقرب وقــت ، فكانت امامنا خطتان : الخطة الاولى ان يقوم الجهاز الخاص بالعمل على اغتيال جميع الخونة المصريين .

والخطة الثانية هي ان يقوم جميع الضباط الاحرار بالعمل لتغيير

النظام باجمعه .

وقررنا يوم ١٨ يوليو تنفيذ الخطة الاولى بل لقد وضعت هذه الخطة فعلا وصدرت الاوامر بتنفيذها في القاهرة والاسكندرية يوم ٢٠ يوليو . ولكنا اجتمعنا يوم ١٩ يوليو ووجدنا اننا بذلك قد نقضي على حركة الضباط جميعا ، اذ ان النظام سيبقى مهما قتل من انصاره وستكون النتيجة حملة من الارهاب في الجيش وبين افراد الشعب وسيكون الضرر الذي يحل بالبلاد كبيرا .

ولذلك قررنا الغاء الخطة الاولى وتنفيذ الخطة الثانية وكلف عبد الحكيم عامر وكمال حسين وانا بوضع الخطة التنفيذية .

وصدرت الاوامر للضباط الاحرار بعدم ترك منازلهم من الساعة الثالثة بعد الظهر يوميا . واستدعينا من هم خارج القاهرة بالاجازة للعودة اليها للاستعداد .

وفي يوم ٢٢ يوليو ، اجتمعت اللجنة التأسيسية في منزل خالد محيي الدين لاخذ الاوامر النهائية . وتم اصدار الاوامر في الساعة الخامسة وخرج افراد اللجنة التاسيسية للتنفيذ » .

وهكذا حانت ساعة الصفر .. وجاء الى جمال من قال له : ان الملك قد كشف الخطه : فاجاب :

« ان العجله قد دارت ولن تتوقف أبدا »

❊ ❊ ❊

ويروي « عبد الحكيم عامر » قصة الساعات الفاصلة في تاريخ الثورة :

« نحن في أوائل يوليو – تموز – ١٩٥٢ : والوزارة وزارة السيد حسين سري. وموجات السخط تجتاح النفوس وتزداد وطأتها كلما قامت وزارة ، وراحت اخرى بسرعة مجنونة ، يحرك خيوطها ملك مجنون وعصبة فاجرة. وجاءني جمال عبد الناصر وحسبتها زيارة عادية ، لكن كان لها ما بعدها . فلا شيء وراء جمال عبد الناصر الا الحسم .

سألني : هل سمعت بأمر الملك الخاص بإغلاق نادي الضباط ؟

واجبت : نعم .

وصمت جمال قليلاً . إلا أنه كان بادي التفكير . كمن قد اتخذ بينه وبين نفسه قراراً معيناً . ثم عاد وسألني :

— ايه رأيك .. إن حل مجلس ادارة نادي الضباط معناه ان الضباط سيصابون بهزيمة معنوية ينتج عنها تفكك رابطتهم وقوتهم .

وأتبع كلامه بقوله :

— وحسين سري عامر إذا أصر الملك على تعيينه وزيراً للحربية ، فمعنى ذلك ان أي ضابط فيه رمق « حيتبهدل » .

وتكلمت ، وانا اعتقد ان كلامي سيطابق القرار الذي اتخذه بينه وبين نفسه .

وقلت : مفيش حل إلا ان الحركة تتعمل .

فقال : انا فعلاً وصلت الى هذا القرار .

وتصافحنا .. واصبحنا منذ هذه اللحظة داخل خط النار . لا خارجه كما كنا منذ دقائق . ووجدنا انفسنا في المعمعة ، نجدّ ونكدّ ونسهر . وننام ، ان نمنا ، بعين واحدة ، والأخرى تراقب الاحتمالات والمفاجآت التي تحملها لنا الليالي .

واتفقنا على اتخاذ اجراءات واسعة للاتصال بالضباط الموجودين خارج القاهرة والموجودين بها ، وكثير منهم كانوا بالاجازات .

وأخذ « البكباشي » جمال على عاتقه ان يتصل بالضباط الموجودين بالقاهرة أساساً . وكان لا بد ان اتصرف في حكاية الاجازة التي انتهت ، حتى استطيع البقاء في القاهرة . فذهبت الى المستشفى العسكري وقلت « عيّان » . فقالوا : لأ ، مش عيان . ولازم ترجع وحدتك ، ياللا على رفح . »

ولكني قلت للأطباء : « هوّ العيّان يتقال له « لأ » كده ؟ مش تكشفوا عليّ الأوّل ؟ » فسابوني ومسألوش فيّه . وغبت عن المستشفى اسبوعاً كاملا بلا إجازة . قمت فيه بمهمتي من حيث الإعداد والتنظيم والاتصال .

.. ودخلنا في اللحظات الحرجة . ووضعت اكثر من خطة على أساس تقديرين اثنين لا ثالث لهما . أما ان نقوم بعمل لتنفيذ الحركة . وإما ان يقسم الضباط أنفسهم الى « ٣٠ تيم » بأسلحة كاملة من الجيش . وفي ساعة الصفر تخرج هذه الجماعات وتخلص البلد من السياسيين الخونة وعملائهم وتنظف البلد تنظيفاً شاملا .

ثم اقتربت الساعة الحاسمة . وكنا قد انتهينا من إحصاء قوتنـا ، والتعرف على امكانياتنا . فرأينا ان الأساس الأول هو : القيام بحركة كامـلة هو الأساس الامثل . واتخذنا هذا القرار . ذلك لأن التدبير الثاني فيه ضرر ، وهو اننا مهما خلصنا البلاد من المفسدين فان أذنابهم لا تنتهي . وهنا رأينا أيضـاً ان « تقدير الموقف » الذي حسبناه بعد عودتنا من فلسطين ، قد طابق الواقع تماماً . إنه في خلال ادنى مدة – وهي ثلاث سنوات – استطعنا تجهيز قوتنا تماماً . ولقـد ساعدتنا الظروف السياسية القلقة من ناحية ، وتذمر الضباط الشديد من تصرف الخونة في مصير الجيش وانظمته وكرامته على ان ننفذ خطتنا في سنة ١٩٥٢ .. »

●

وخرج جمال عبد الناصر من بيته ليلة ٢٣ يوليو على انه قد لا يعود ..

لقد أحس بأن اللحظة الفاصلة التي لا سبيل الى تجاوزها قد جاءت . لقـد بلغ التحدي بين القصر والضباط الأحرار اقصى مداه . وكان لا بد من ارتطام . ووصلت الأمور الى الدرجة التي لا يمكن الصبر عليها .

وكانت مصر تنتظر جمال . وكانت العروبة تنتظره أيضاً .

وكان جمال يدخر نفسه واخوانه لمصر وللعرب ويترقب الفرصة . وجاءت هذه الفرصة في صوت انتخابات نادي الضباط ، وما تلاها من تحدٍ بـين الملك وبين الضباط الاحرار . وكان لا بد من عمل .

... لقد كان القصر في تلك الأيام لا يزال شاكا في قدرتنا على القيام بحركة كاملة . ولكنه كان يريد ان يبطش بنا استعادة لمكانته التي رأى انها اهـتزت اهتزازاً شديداً .

وقطع الطريق علينا ، لأنه كان يعتقد اننا وان كنا اضعف من ان نقـوم بحركة كاملة ، فنحن على كل حال نستطيع ان نكون التمهيد للحركة الكامـلة . لذلك كان يريد ان يفتك بنا ، وكان يدبر لهذا الفتك في نفس الوقت الذي كنا نحن قد فرغنا تماماً من وضع الخطة الحاسمة للفتك به وبعرشه وحكم اسرته للبلاد. »

وفي الليلتين الحاسمتين ، بعد ان تحدد الموعد ، بدأ جو الثورة يأخذ طابعـاً

رهيباً . وهذا قائد الثورة يرسم هذه اللوحة الخالدة :

« كنا نجتمع في بيوت مختلفة ليقول كل لأخيه حقيقة ما يشعر به وما يحسه. وقد اخترنا ان نضع رؤوسنا فوق اكفنا لتستقر عليها ، وهي تقدم على هذا الخطر الجسيم والمغامرة التاريخية .

وكان لكل منا زوجة واولاد ومسئوليات . كان لا بد لنا من ان نفكر فيها ، ونحن مقدمون على هذه المغامرة . وكان السؤال الخافت الذي يتسرب الى قلوبنا هو : ماذا لو فشلنا وانتصر علينا المجرمون ؟

ولكن الروح التي اقبلنا بها على المعركة ، والدم الذي كان يغلي في عروقنا ، والقوة التي اظهرتها لنا الوحدة ، والكفاح الذي عززته التضحية ، قد جعل هذا السؤال الهامس يخفت ويخفت حتى يتلاشى . واقبلنا على المعركة وليست لنا فكرة تراودنا سوى مصر وشعب مصر وجيش مصر : إما الحياة وإما الموت .. واما الأولاد والامهات والاشقاء ، فلم يتسع لهم في حركتنا مكان . واصبح مكانهم الداخلي بين صفوف ملايين الشعب التي نقدم على التضحية من اجل سعادتها وحياتها ..

كنا مؤمنين بحقيقة ثابتة هي أن الشعب معنا ، وان كتل الجماهير ستقف حائلاً بين جواسيس المجرمين وبين خططنا . واننا لو فقدنا الفرصة اليوم فإننا سنكسبها غداً ، وكان هذا هو ما يشجعنا .. »

وجاءت ليلة ٢٢–٢٣ يوليو –تموز– سنة ١٩٥٢ : الليلة الخالدة في حياة الامة العربية كلها . وقد سجل جمال المواقف الحرجة التي صادفته في تلك الليلة فقال :

مرت بي مواقف حرجة كثيرة ، ولكن أحرجها كان ليلة الثورة . كان موعد تحريك القوات، الساعة الواحدة بعد منتصف ليلة ٢٢–٢٣ يوليو – تموز– . وكان ذلك موعد مهاجمة رئاسة الجيش لاحتلالها . وفي الساعة الحادية عشرة علمت ان رئاسة الجيش احيطت خبراً بخطتنا . لأن أحد الضباط المشتركين في الحركة ، عندما مر الضباط لاخذه معهم فطن اخوه الى ان هناك حركة ما ،

فحـاول منع اخيه الذي رفض ان يستمع اليه . وقد ذهب هذا الاخ الممانـع في اشتراك أخيه الى سراي القبة ، وأخبر الضـابط النوبتجي بالامر ، الذي قـام بابلاغ سراي المنتزه حيث كان يقيم الملك السابق ، فصـدرت الاوامر للفريق حسين فريد ، رئيس هيئة اركان حرب الجيش لاتخاذ الاجراءات المضادة لمناهضة حركتنا والقضاء عليها .

وذهب الفريق حسين فريد الى رئاسة الجيش بكوبري القبـة . واستدعى اليه جميع قادة الجيش لوضع الخطة وتنفيذها فوراً .. وقد وصلتني هذه الانباء الساعة ١١ وانا بداري ، بعد ان عدت ، وقد أعدّ كل شيء للتنفيذ ، وكان كل الضباط في اماكنهم استعداداً للبدء ، ولم اجد امامي إزاء ما اتخـذ لإحباط حركتنا سوى اعتقال رئيس اركان حرب الجيش وجميع ضباط الجيش المجتمعين معه قبل انفضاض مؤتمرهم وتنفيذ خططهم .

لقد توجهت الى منزل اخي عبد الحكيم عامر ، حيث كنا على موعد لنتقابل في الساعة الثانية عشرة ولنتوجه معاً لأخذ قوة لتنفيذ فكرة الاعتقال . وغادرنا المنزل الى قشلاق العباسية . ولكننا وجدنا عـدداً كبيراً من البوليس الحربي رابضاً على باب القشلاق ، وهذا لم يكن ضمن خطتنا ففهمنا فوراً ان الطرف الآخر قـد بدأ العمل . فتحركنا الى سلاح الفرسان ، ولكننا وجدنا البوابة مغلقة وعليها قوات لم نستطع ان نتعرف مـع أي طرف تعمل هذه القوات ، معنا او مع الطرف الآخر . فقررنا التوجه الى الماظه لإحضار قوة من هناك . وفي طريقنا الى الماظه ـ عند ميدان الكربه ـ رأينـا على مدى البصر أضواء عربات كثيرة في طريقها الى القاهرة .

وكانت الساعة حوالي منتصف الواحدة ولم يكن هذا ايضاً ضمن خطة قواتنا ، ولقد كان المقرر ان تتحرك قواتنا في الساعة الواحدة . واخذنـا نفكر ونقدر الموقف جيداً ، ونتساءل هل هذه العربات من قواتنا ام انها تابعة لخطـة رئيس هيئة اركان حرب الجيش التي بدأت في التنفيذ ، ولكننا تأكدنا انه من المستحيل ان يكون رئيس هيئة اركان حرب الجيش قد بدأ تنفيذ خطته . ورجحنا انه لا

بد وان يكون احد زملائنا الضباط المشتركين معنا قد أخذته الحماسة فخرج قبل موعده ، وانتظرنا على جانب الطريق ، حتى تصل الينا هذه القوات . وفوجئنا عند وصول أول عربة بأن الفرقة الثانية قد تحركت لتنفيذ خطة رئيس اركان حرب الجيش ، وفي اسرع من لمح البصر كنت وعبدالحكيم محاطين بخمسة ضباط ملازمين مسلحين بالتومي جن وطلبوا الينا ان نرفع ايدينا وان نثبت في مكاننا . وكانت احرج لحظة في حياتي كلها . لقد اعتقدت ان الخطة التي وضعناها ورتبناها قد باءت بالفشل الذريع .

وبعد لحظة وجدت احد اخواننا يناديني من العربة الثالثة ويقول في فرح زائد : « لقد أسرنا قائد الفرقة ، وقائد ثاني الفرقة ، وانا مع قوتي ؛ لقد أحضرت معي جميع العربات التي قابلتها في الطريق ».

ونزل من العربة وحضر الي قائلاً : ان القوة التي معه هي ٨٠ جندياً فقط ، لأن باقي الفرقة في فلسطين . وعرفت في هذه اللحظة فقط انه تحرك في الساعة ١٢ بدلاً من الواحدة .. ولم يكن امامنا غير حل واحد فقط ، هو احتلال رئاسة الجيش بهذه القوة التي معنا . وتحركنا الى الرئاسة بكوبري القبة . وبدأنا عملياتنا بمحاصرتها في الساعة الواحدة إلا عشر دقائق أي قبل الموعد المحدد بأربعين دقيقة .

وبديء في توزيع القوة . وقام عبد الحكيم عامر وضباط الكتيبة الشجعان وثلاثون جندياً فقط بمهاجمة رياسة الجيش ، ولكن الباب الحديدي كان مغلقاً . وكانت عساكر رئاسة الجيش محتلة مواقعها . وبدأت تطلق علينا النار . واستمرت المعركة ٤٠ دقيقة . في هذه الاثناء كانت قوات الفرسان قد بدأت فعلاً في التحرك من أماكنها . وفي الساعة الواحدة والنصف سقط في ايدينا مبنى رئاسة الجيش واعتقلنا كل من فيه . وكان هذا العمل أول بادرة النجاح » .

ثم أصبح ٢٣ يوليو – تموز – فأذيع أول بيان للثورة . وتنفس الشعب . وأحس بان الضياء قد بدا . وان الفجر قد طلع حقاً وصدقاً .

وقال جمال : « ان روح الشعب في ذلك اليوم امدتنا بالقوة والعزم ، فلم نكن

نتوقع هذا النجاح الغريب السريع . فمضينا أقوياء أمناء ، نعرف مواضعنا من الشعب الكريم ، ومن قلوب أبنائه المظلومين .

لقد كان اول عرض في العاصمة احد الدوافع التي دفعت حركتنا دفعاً الى الأمام ، ولقد وجدنا أن ملايين المصريين جميعاً معنا . فتطورت وسائلنا لتحقيق اهدافنا، واندفعت خطواتنا سريعةمتلاحقة حتى انتهت بعزل الملك الفاسد..»

وبهذا نجح جمال عبد الناصر واستطاع ان يغير التاريخ .

ونجحت الثورة ..

روى القائمقام « احمد انور » انه في صبيحة يوم ٢٨ يوليو ١٩٥٢ وفد الى مبنى قيادة الثورة الملحق العسكري البريطاني البريجادير جولبرن والمندوب فوق العادة من قبل جلالة ملكة بريطانيا .

قال : جئت اقدم تهنئة الملكة للرجيم الجديد ، .. واحسست براحة نفسية بالغة لهذا النبا . وشاركني فيها زملائي الذين ابلغهم الخبر وانا في طريقي الى جمال فمعنى هذا ان الانجليز لن يتدخلوا في امرنا ، الشيء الذي كنا نخشاه ونحسب له الف حساب .

واسرعت احمل النبا السار الى البكباشي «جمال عبد الناصر» وانا على يقين من انه سيسر ايضا . وشد ما كانت دهشتي عندما وجدته يستمع الي في هدوء عميق حتى اذا انتهيت قامت بيننا فترة صمت ، قال بعدها :

ــ ارجو ان تساله ما نوع التهنئة ونصها بالضبط ؟

وعدت الى الملحق العسكري وسالته ان يذكر لي نص التبليغ .

قال : تهنيء جلالة الملكة قيادة الجيش بالنجاح وترجو ان يحافظ الرجيم الجديد ــ اي النظام ــ على حياة الاجانب .

ونقلت نص التهنئة الى جمال . فقال لي بعد ان وعاها تماما :

ــ دع الرجل مكانه ولا ترد عليه ..

وامتثلت لرغبة القائد وتركته ينتظر ساعة بعد ساعة حتى اذا يئس من تحقيق رغبته ركب سيارته وانصرف يحمل معه لقب افشل مندوب فوق العادة في تاريخ بريطانيا ..

* * *

وهكذا تخلصت الثورة من الحرج الدبلوماسي . لقد اخرجت فاروق ، وبدأت تتجه الى الشعب والى الزعماء . لم يكن جمال يطمع في الحكم والسلطان. كان يريد أن يضرب للشعب مثلاً رائعاً في انكار الذات وهو تسليم البلاد للمدنيين في

اللحظة التي يفرغ فيها من عمله الكبير . ويكتفي هو واخوانه بوسام خالد : هو انهم حرروا مصر من حكم اسرة محمد علي .

لقد كان القرار الذي اتخذه جمال واخوانه أول الامر هو أن الجيش لا يحكم . وانما يقوم بالثورة ثم يسلم البلاد للمدنيين . وكانوا في ذلك مثلاً اعلى في الاخلاص والتفاؤل .

يقول انور السادات : « .. كان قرارنا فيما يتعلق بالثورة ان ينفرد الجيش بكل شيء . فقد قام جمال باتصالات كافية مع جميع الهيئات التي كان يمكن ان تكون عاملاً مساعداً في الثورة . واذا بالنتيجة الوحيدة التي نخرج بها هي أن الجيش يجب ان يتحمل وحده جميع أعباء التنفيذ . لأن جميع الهيئات التي اتصل بها قد اثبتت انها غير جديرة بالثورة ولا مستعدة لعمل شيء ..

وبقي علينا ان نفكر فيما بعد الثورة . فيما يخلف التنفيذ ، فماذا نصنع ؟ هل نحكم . هل نسلم الأمر للشعب يصرفه كيف يشاء . ومن الذي يتحمل مسئولية الحكم عندما نترك الأمر للشعب ، ربما يختار الشعب ممثليه ، وأي السياسيين جدير بقيادة البلاد بعد الثورة ؟

وكانت دراسة طويلة خرجنامنهابنتيجة واحدة ، هي ان الجيش لا يحكم ، وإنما يقوم بالثورة ؛ ثم يسلم البلاد للمدنيين في اللحظة التي يفرغ فيها من عمله الكبير ؛ هذا هو القرار الذي استرحنا له ، وشعرنا حياله بالعزة الكاملة ، وروعة المثل الأعلى . اليست ثورة على الأوضاع كلها ، فماذا كان الطابع المميز للاوضاع القديمة ؟.. كان شيئاً واحداً ظاهراً : الجهاد في سبيل الحكم ، لا الجهاد في سبيل المثل الأعلى ..

ولذلك رأينا ان نضرب للشعب مثلاً جديداً .

لم يكن أحد يترك الحكم مختاراً ، فأردنا ان نتركه مختارين . أن نتركه والشعب يدمي أيديه تصفيقاً لنا ، وقد حققنا الأمنية الأولى لكل مصري عاش خلال القرن الاخير : امنية الخلاص من حكم اسرة محمد علي ومن ملوك اسرة محمد علي .

وكم كنا طيبين بسطاء . وكم كنا متفائلين . لقــد قدرنا كل شيء من اعمالنا العسكرية فأحسنا التقدير . ولم نخطىء مرة واحدة . ولكننا قدرنا في هـــذه المرة ، فأخفقنا واخطأنا وغلب علينا التفاؤل على ادراك حقيقة الواقع .

كنا نريد ان نغلب الواقع الكريه على أمره . كنا نريد ان ننتصر على كل شيء . حتى على خبث النفوس . ولكن اخيراً وضح لنــا أن المستحيل له وجود . وان نابليون لم يكن على حق ابداً .. »

لقد كانت مهمة جمال شاقة بعد الثورة . أشق من الثورة نفسها . كان رجال الاحزاب يحسبون ان مصر استبدلت ملكاً بملوك . وان العجـــلة ستجري على ذلك النحو الذي كانت تجري عليه . وبات من العسير أن يفهم هؤلاء ان الثورة شيء جديد يغير كل شيء ..

ولكن جمال كان يقظاً ، لم تخدعه فرحة النجاح . ولم يتصور له ان الآمــال قد تحققت ، وان الربيع قد جــاء . بل لعل العكس هو الصحيح ، كانت كل دقيقة تحمل انتصاراً للثورة تحمل اليه في نفس الوقت عبئاً ضخماً ثقيلاً تلقيه بلا مبالاة فوق كتفيه .

يقول : « لقد كنت أتصور قبل ٢٣ يوليو – تموز – ان الامة كلها متحفزة متأهبة ، وانها لا تنتظر إلا طليعة تقتحم أمامها السور ، فتندفع وراءها صفوفاً متراصة منتظمة تزحف زحفاً مقدساً الى الهدف الاكــبر . وكنت اتصور دورنا على أنه دور طليعة الفدائيين ، وكنت أظن ان دورنا لن يستغرق اكثر من بضع ساعات ويأتي بعدنا الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة الى الهدف الكبير . »

ولكن مع الأسف عندما جــاءت الجموع ، كانت أشياعاً متفرقة ؛ وأحس جمال ساعتها بأن مهمة الطليعة لم تنته ، بل انها بدأت . وعندما اجتمع جمــال برجال السياسة تكشفت له المساوىء القديمة على حقيقتهــــا ؛ فسمع مسارات . ومحاورات . ومداورات .. كانت كلها ترمي الى العودة الى الحــكم . كل حزب يلعن الآخر . وكل جماعة تتهم الجماعة الأخرى .

ولم يوافق البعض على تحديد الملكية والإصلاح الزراعي . وقال : ان هــذا

المشروع سيخرب البلد ، ولن يقدر احد على الفلاحين بعد ذلك . وانه اذا تيقظ الفلاح وتبصر فلا يمكن استغلاله ، ولا يمكن ان تبقى للحكم سلطـــة . ولو فهم الفلاح انه فرد يتساوى مع جميع المواطنين ، وله من الحقوق مـــا للجميع فلا سادة ولا عبيد ، لو فهم هذا لما تمكن السادة من الإبقاء على مصالحهم وسيادتهم. وقالوا لجمال في صراحة : انهم لا يوافقون على تحـــديد الملكية ، لأن اصحاب الارض وأصحاب الأملاك هم « الوفد » .

يقول جمال : «عندئذٍ ايقنا ان اعادة الحياة الديمقراطية على هـــذا الاسلوب معناه بقاء الشر القديم . وتحققنا أنه لا بد من بذل جهود ضخمة والقيام بخطوات منظمة لتحقيق الحياة الديمقراطية المبرأة من مساوىء الماضي التي كانت تجعـــل المصالح الشخصية في المقام الاول : بل هي كل شيء . عندئذ بدأنا في العمل بلا تردد ، فحددنا الملكية ، وكان تحديدها خطوة لتحرير عبيد الأرض الذين يمثلون الأغلبية الساحقة في الامـــة ، ليصبحوا احراراً قادرين على أداء واجبهم نحو هذا الوطن » .

ومضت الثورة دون ان تحفل بالرجعية ، تشق طريقهـــا في قوة ، والشعب كله من حولها ، إلا فريق من المنتفعين والرجعيين . وكانت تتسم في كل خطواتها بالرزانة والأعصاب المضبوطة . فعاشت ثورة بيضاء لم تلوث بالدم .

وكان وراء هذا الثبات والثقة : جمال عبدالناصر ، الذي استطاع ان يملك ناصية إنكار الذات ، فعاش خلف المسرح يوجه ويرقب الأمور في يقظة وأناة .

وبدت خطوات الثورة تحمل طابع التطور الطبيعي: لا طفرة ، ولا مصادمة لنواميس الكون ولا تعقيد ، وانتقالٌ من مرحـلة الى اخرى على قدر استعداد الشعب ، على صورة كانت تبعث الثقة بأن معاني الثورة وأدوارها واضحة ناصعة في نفس قائدها . فيها عزيمته وفيها ثقته .

انه لم يكن يضرب ضربته الجديدة الا بعد ان يحس بأن النفوس قد تهيأت لاستقبال مرحلة جديدة . فمضت الثورة عاقلة شرعية كيسة . وبدا عليها صورة الاتجاه الطبيعي . تفاهمت الثورة مع رجال الأحزاب واعطتهم الفرصة ، وافسحت

لهم من الوقت ما يكفي لو أرادوا ان يكونوا حكماء ؛ وافسحت المجال لدراسة تحديـــد الملكية حتى ليخيل للمراقب البعيد انهـــا تتراخى . ثم تأخذ هذا الأمر وذاك في حزم وقوة وتصميم ، وحتى لمثل هذه الثورة العاقلة الرزينـــة المتئدة الا تتخبط والا تخطىء . ولكن هـــل تركها الرجعيون تمضي في طريقها ؟ لقـــد حاولوا ان يحطموا الثورة بوسائلهم القديمـــة واساليبهم الرجعية في محاولات يائسة ، كأنما ظنوا ان الثورة حزب من الأحزاب قـد ولي الحكم فارادوا اسقاطه ليلي الحكم حزب آخر . وكانوا في ذلك كلهمن المخدوعين.

وصمد جمال . وقال : ان هذه الثورة قد رفعت رأسها ولن تحنيه من جديد. وإن الشعب ، الذي تيقظ من نومه الطويل ، عرف حقوقه وعرف طبيعـــة الأرض التي يقف عليها ، وعرف مَن الذين استغلوه باسم الحرية والديمقراطيـــة ، ومَن الذين يتاجرون باسم الحق الذي يراد به باطل. واذا كان الشعب قبلالثورة يعمل حساباً للجيش ، ويعلم انه ضده ، فقد تغـــير الآن كل شيء . وعرف الشعب ان الجيش معه . وهو لذلك لن يسمح بعودة الوجوه القديمة الكالحة،تمثل المأساة على المسرح .

وقال : لو تشكك الشعب ، فله العذر ، لأنه عاش طول عمره يرى الحاكمين يخادعونه ويظفرون بثقته ثم يعملون ضدها .

ودفع جمال غيره الى المسرح . وبقي هو وراء الحواجز يرقبهـــا . ولم يكن يطمع في ان يظهر او يحكم . كان يكفيه ان يحقق آماله . وان يرى الثورة تندفع الى الامام .

وانكر ذاته في سبيل مصر .

وبدأ علي ماهر يحكم . ولكن الأيام القليلة التي امضاها في الحكم كادت تنسي الشعب ان هناك ثورة.. وكان من المستحيل ان يصلح رجل سياسي من المدرسة القديمة ليقود عجلة ثورة ،ولم يكن من اليسير أن يجري بنفس القوة والحيويةالتي تتطلبها العجلة الضخمة المندفعة الى الامام..

وبين السياسة البطيئة وبين الثورة الصريحة الواضحة : برزخ كبير .

وكان لا بد ان تأخذ الثورة مداها .

وقال جمال : لقد تيقظ المارد الجبار ، وعرف انه يحكم لأول مرة في تاريخه بابنائه ، وعرف وتأكد ان المستقبل لن يتاح لأعوان الملكيـة والاستعمار ، وأن رجال اليوم -اخوانكم وأبناءكم- لن يفرطوا في حق من حقوقكم ، وأن الثورة قامت دفاعاً عن حريتكم وكرامتكم المسلوبة .

وقال : لقد خلصناكم من الملوك الصغار حينا حددنا الملكية .

وقال : ان الملكية والرجعية والاستعمار هم الاعداء الثلاثة الذين تحـالفوا ضد الشعب .

وقال الناس بعد شهور : ماذا عملت الثورة اكثر من انهـا خلعت الملك وحددت الملكية؟..ورد عليهم جمال فقال : « لقد قضينا على آثار الشقاء الذي اورثه لنا ذلك الماضي القريب والبعيد ؛ لا : ان مفـاسد السنين الطويـلة لا يمكن اجتثاثهـا في شهور معدودة . وإن المهمة على اكتافنا وفي اعناقكم شاقـة تستوجب منا جميعاً ان نعمل » .

واعطت الثورة الفرصة لرجال العهد البائد بعد ان حلت الأحزاب . وقال جمال : «ان الماضي لن يعود ثانية . هذا الماضي الذي كان استبداداً سياسياً وظلماً اجتماعياً ومتاجرة في الوطنية سعياً وراء الجاه والسلطان ، فلن نفسح المجال بعد اليوم الا للمبادىء وحدها وخدمة الشعب ومصالحه ».

ولم يرتدع رجال العهد البائد . وظنوا ان الثورة عاجزة عـن ردهم فمضوا يحيكون مؤامرة كبرى.وهنا وقف جمال وقفة الأسد يزأر ويقول : « ان عجلة الثورة ستستمر في تقـدمها محطمة في طريقها كل خائن وكل خـائر . ولن تعرف الثورة بعد اليوم الا الصرامة والقسوة لكل من تحدثه نفسه بالوقوف في طريقها او تزييف الحقائق على هذا الشعب البريء الذي يجب ان يفرق بين الحق لذاته والحق الذي يراد به الباطل .

يجب ان تحافظ الثورة على قوتها حتى تتحقق اهدافها . ان هذه الثورة لن تتخلى عن مكانها حتى يتحقق هدفها الأكبر ، وهو القضاء على الاستعمار وأعوانه

من الخونة المصريين ، ومهما طال الأمد فهي معركة واحدة بدأناها . ولن نعرف فيها زماناً ولا مكاناً حتى تتطهر البلاد من المستعمرين والخونة المارقين » .

وكانت الثورة رغم محكمة الثورة رفيقة رحيمة ؛ فيها عقلها الواعي واناتها .. انها لم تقدم من قدمت من السياسيين القدامى الى محكمة الثورة الا بعد ان اعطتهم الفرصة تلو الفرصة لتمكنهم من السير مع العجلة الدائرة . ولكن ذلك لم يكن يسيراً بالنسبة لهم ، فإن العقلية القديمة التي طبعت على الرجعية والجمود ، والعبودية للملكية الظالمة ، والخوف المتأصل في نفوسهم من السادة الانجليز ، وقف عقبة دون تطورهم مع الزمن .

ولم تطلق الثورة يدها في حكم مطلق كما فعل الثوار في كل مكان .

قال لإخوانه الضباط الأحرار في اول اجتماع بعد اخراج فاروق : « ان هذه الثورة قد قامت لتخليص الشعب مما عاناه من استبداد ومظالم . لا لتبدأ عهداً جديداً من الاستبداد والمظالم. فطبيعة شعبنا سمحة طيبة تنفر من القوة والتسلط عليها . مهما كان هدف هذه القوة او ذلك التسلط . ان مغزى قيام هذه الثورة يكون قد انتفى تماماً اذا نحن فرضنا على هذا الشعب ديكتاتورية ، لأن النظام الذي كان يطبق قبل الثورة لم يكن ديمقراطية ، انما كان ديكتاتورية حزبية ، اطلقت على نفسها اسم الديمقراطية » .

ثم لم يلبث ان اتم كلامه قائلاً بالحرف الواحد « حتى لو اقتنعت بالدكتاتورية فأنا احس انني لن استطيع ابداً ان أكون ديكتاتوراً او حتى فرداً في نظام ديكتاتوري » .[1]

ولم تضرب الثورة خصومها ضربات جماعية قاتلة . وقد اسرعت فأعلنت انها تهيىء الشعب للحرية ، وتعده لحياة نيابية نظيفة في المستقبل القريب .

ومضى البناء قوياً . كان كل يوم بعام . ورفعت مصر عن كاهلها ذلك الذي كانوا يسمونه « الروتين » . وأكد جمال في كل خطبة وفي كل مناسبة ،أن كل وضع استثنائي سيزول . وانه يعد البلاد لحكم ديمقراطي سليم .

١-ص ٨٩ - ٩٠ من كتاب « يا ولدي ، هذا عمك جمال » مذكرات انور السادات .

« انها مرحلة تنتهي معها الاجراءات الاستثنائية التي كان لا بد أن تصاحب الدور الأول للثورة . الدور الذي كان عليها فيه ان تؤمن نفسها . وحين اقول : تؤمن نفسها، فإني اعني الأهداف ولا أعني الأشخاص. الأهداف التي كنت اريد تأمينها ، هي الأهداف التي قامت من أجلها الثورة ، والتي قامت من أجلها كل ثورة في التاريخ الإنساني ، وهي ان يحكم الوطن بواسطة ابنائه من اجل ابنائه . بعقل وعدل. وانا لا يعنيني ان اؤمن الاشخاص ، فأنا أرى ان لا قيمة للأشخاص إلا بالمبادىء التي يحملونها في قلوبهم .

ولو كانت المسألة ان أؤمن شخصي او شخص زميل من زملائي بواسطة اجراء استثنائي لكان الأمر سهلاً . ولكان أبسط مـا فيه ان نؤثر العافية ، وان نبقى في مناصبنا التي كنافيها قبل ٢٣ يوليو — تموز — ولانتهجنا بعد ٢٣ يوليو سياسة اخرى فيها تقسيم الغنائم مع الذين يقتسمونها ، أو نسير على الطريق الذي كانوا يسيرون فيه. وما كان أسهل ان نخدع او نضلل . ونأخذ مع ذلك تصفيق الناس ورضاءهم ..» .

وهذه نقطة حساسة هامة في تاريخ جمـال . فلو كان يريد ان يكون ملكاً لاستطاع ولأرضي تلك الطغمة من تجار السياسة . ولكنه اراد الطريق الأشق. طريق المبادىء والمثل العليا والقيم الانسانية ، وحمـل نفسه على الجادة المضنية ورضي لنفسه بذات الشوكة . ولم يقبـل الثراء اليسير والطريق القريب ورفض المجد الفردي .

لقد باع جمال واخوانه نفوسهم في سبيل مصر ليلة ٢٣ يوليو ، فلما انتصروا أصروا على ان يبيعوها دائماً وكل ليلة ...

وحطم الملكية ..

« ان النظام الملكي قد تآكل وانتهى ، بعد ان اتى سوس الفساد والخيانة على عرشه . ولن تقوم لهذا النظام قائمة ثانية بعد ان عانت البلاد من مساوئه الكثير . فهو السبب الاول للاحتلال الانجليزي للبلاد وتوطيد اقدامه سبعين عاما »

كان هذا رأي « جمال » منذ اليوم الأول للثورة ، ولكنه كان رائعاً في توقيت الأحداث ، وموفقاً في تحديد ساعة الصفر لأعمال « الثورة » الضخمة .

ففي يوم ٢٦ يوليو ـ تموز ـ ١٩٥٢ وجهت الثورة الى فاروق انذاراً صور حقيقة موقف « الملكية » من اهداف الشعب جاء فيه « انه نظراً لما لاقته البلاد في العهد الأخير من فوضى شاملة عمت جميع المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعبثكم بالدستور وامتهانكم لارادة الشعب حتى أصبح كل فرد من افراده لا يطمئن على حياته او ماله او كرامته .

ولقد ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم في هذا المسلك حتى أصبح الخونة والمرتشون يجدون في ظلكم الحماية والأمن والثراء الفاحش والاسراف الماجن على حساب الشعب الجائع الفقير . ولقد تجلت آية ذلك في حرب فلسطين وما تبعها من فضائح الاسلحة الفاسدة وما ترتب عليها من محاكمات تعرضت لتدخلكم السافر مما أفسد الحقائق وزعزع الثقة في العدالة

وساعد الخونة على ترسم هذه الخطى فأثرى من أثرى ، وفجر من فجر، وكيف لا ، والناس على دين ملوكهم ... »

هذه هي صورة « الملكية » في آخر ايامها كما صورها انـــذار الثورة للملك السابق . هذه الملكية التي كانت تتهاوى فعلاً ، وتؤذن دولتها بالمغيب في هذه السنوات الاخيرة بعد الفضائح العديدة التي منيت بها . والطريق الاعرج الذي سلكته يوم رأى فاروق ان حكام مصر من ذوي الاحلام قد اصبحوا خاضعين له ، اذلة بين يديه ، فاستعبدهم وجعلهم اشبه بقطـــع الشطرنج يحركهم كيف يشاء ، ويقدم من يريد ويبعـــد من يشاء ، فقد عاش فاروق لنفسه لا لمصر . ومضى يضرب ضرباته هنا وهناك في سبيل المتعة الخاصة والثراء الفاحش دون ان يضع في حسابه هذا الشعب الذي كان قد أولاه اول الأمر شيئاً كثيراً من الحب والتقدير .

ولقد أحاط فاروق نفسه ببطانـــة زينت له ان يسحق الدستور وان يهزأ بالقيم الانسانية التي تملأ قلوب حكام الأمم وقادتها . وقد رأى أمامه طائفة من الحكام ليس فيهم مؤمن بوطنه او مؤمن بنفسه . وانما هم امّعات عليهم طابـــع الذلة ، طامعون في الحكم ، يريدونه بأي ثمن ولو على حساب الوطن . وقد عرف كيف يستغل هؤلاء القادة والزعماء الذين كانوا رمزاً على الوطنيـــة ، وكانت الصحف تشيد باقدارهم وجهادهم وكفاحهم الوطني الرائع .

وعاش فاروق حياةً كلها مساوىء وآثام ومفاسد،ولا عجب فهو ابن الاسرة التي عاشت على هذه المعاني حياتها كلها . كذلك كان جده اسماعيل وكذلك كان ابوه فؤاد . ولقد ظل فاروق صنيعة للانجليز خادمـــاً لهم ، من هؤلاء الذين يؤمنون ان بريطانيا « العظمى » هي التي تسند كراسي عرشهم من الانهيار .

وفاروق هو ابن فؤاد الذي جاء به الانجليز وولوه الحكم فحرص منذ اليوم الاول على ارضائهم . ونقل الملك الى اولاده من بعده كما فعل اسماعيل . ولم تبد منه خلال حكمه (١٩١٧ –١٩٣٦) اي معارضة للانجليز في هذه البرهة الطويلة الحافلة بالاحداث . بل انه وقف من ثورة ١٩١٩ موقفاً سلبياً عجيبـــاً . وكان

راضياً عن الارهاب البريطاني عندما اطلقت هذه القوات رصاصها الى صدور شباب مصر وهم يهتفون بالحرية .

وقد تولى فؤاد الملك بالاتفاق مع الدولة المغتصبة ، كما جاء في البلاغ الذي اذيع عقب توليه السلطنة . وكان هذا من العوامل الهامة في حياته ، فقد رضي عن الاغتصاب والعنف الذي اصاب المصريين ابان الحرب العالمية الاولى والذي صبته عليهم السلطة العسكرية البريطانية . وكان هو الموعز لمجلس الوزراء بالهبة التي قدمتها مصر الى بريطانيا وهي ثلاثة ملايين ونصف مليون من الجنيهات في ٩ مارس – آذار – ١٩١٨ «اعترافاً بجميل بريطانيا العظمى التي حمت البـلاد من خطر الغارات » !

وقد زعم البعض ان فؤاد كان من وراء ثورة ١٩١٩ وما تلاها من احداث . وليس هناك اي سند من التاريخ يؤيد هذا القول . بل انه قبل استقالة حسين رشدي في اشد الاوقات حرجا، وكانت الوزارة التي تؤيد الموقف الوطني، وكان ذلك الاتجاه جرياً مع السياسة البريطانية في تحطيمها للحركة الوطنية في مهدها .

وظل فؤاد محتجباً في قصره خلال ثورة ١٩١٩ تاركـاً الأمر كله للسلطة البريطانية الغاشمة .

●

فلما بدأت بريطانيا تفرج عن سعد زغلول وصحبه أصدر بياناً الى الأمـة ، أبدى فيه تضامنه مع الشعب في الشعور الوطني . ولكنه عـاد الى موقفه مرة اخرى عندما تجددت الحوادث الدموية . ثم ألف وزارات محمد سعيد ، ويوسف وهبه، وتوفيق نسيم لمقاومة الحركة الوطنية ومسايرة السياسة الانجليزية وتأييدها ؛ ووقف من الدستور موقف الخصومة ومضى يضع العقبات في طريق انشائه .

وفي هذا يقول الاستاذ عبد الرحمن الرافعي : « انه لم يكن راضياً في خاصة نفسه عن الدستور ، بل تنكر له وظل برما به متجهماً له طول حياته . وظهرت اعراض هذه النزعة في سعيه لاسقاط وزارة ثروت حين رآه جـاداً في اخراج الدستور ، بعد ان تم وضعه على يد لجنة الثلاثـين ، فما زال به حتى اضطره الى

الاستقالة .

واصطنع من بعده وزارة توفيق نسيم ذات الميول الرجعية التي اخذت تسوف وتماطل في اصدار الدستور، وتمسخ وتشوه في مبادئه ونصوصه. وترتب على هذا المسعى وقوع كارثة وطنية اذ انتهزت الحكومة الانجليزية فرصة التلكؤ في اصداره والمساعي التي بذلت لمسخه وتشويهه فتدخلت وطلبت ان تحذف منه نصوص السودان . واستجاب فؤاد الى طلبها »

.. وظل فؤاد طوال عهده ، وهكذا كان فاروق ، لا يبغي لمصر استقراراً. وكانت المناورات السياسية متصلة . وكانا يستهدفان ان تكون السراي هي مصدر كل السلطات . وقد نسي فؤاد انه لولا جهاد الشعب لظل سلطاناً تحت الحماية البريطانية . فلم تكن حملته على الدستور بحجة انه انتقص حقوقه صادقة، اذ انه في الواقع لم تكن له قبل هذا حقوق ما .

وقد اوقع فؤاد البلاد في ثلاثة انقلابات غير دستورية هي حل مجلس النواب عام ١٩٢٥ . ووزارة محمد محمود ذات اليد الحديدية . ووزارة صدقي التي غيرت الدستور. وقد كان ذلك عن رغبة منه في الغاء دستور عام ١٩٢٣ وانشاء دستور جديد يحقق له بعض السلطات غير الشرعية .

وفي عهد فؤاد بدأت بدعة خطرة امتدت الى ايام فاروق وهي تسمية المنشآت باسم الملك ونسبتها اليه . وبدأت موجة تحريض المؤلفين والمؤرخين والشعراء بإنشاء المؤلفات والكتب في تمجيد العائلة المالكة وتعداد حسناتها .

واستقدم فؤاد كبار المؤرخين الاوربيين واغدق عليهم في سبيل تحريف التاريخ ، وتصوير اسماعيل في صورة المفترى عليه وتعداد عظمة الاسرة وفضائلها ووصف رجالها بالوطنية ، والعمل لمصر !

وقد سجل استاذنا الرافعي هذا المعنى في كتابه «اعقاب الثورة» الذي صدر في عهد فاروق فقال : «اما الاصلاحات التي تمت في عهد الملك فؤاد فالشأن في معظمها كشأن الاصلاحات التي تمت في عهد الخديو توفيق والخديو عباس و السلطان حسين كامل فهي تطور طبيعي لنهضة البلاد وتطلعها الى التقدم والرقي في جميع

النواحي . وكان الدافع الاكبر اليهـا صادراً من الامـة بمطالبها المنبعثة مـن مختلف طبقاتها » .

اما عهد فاروق فقد بدأ بداية طيبة ظن الناس معها انهم يستقبلون عهـــداً جديداً من عهود الملك سرعان ما تكشف عن صور مزرية من الخلاعة والمجون فاقت كل صورة في حياة من سبقوه .

ولم يكن ذلك غريباً من ابن فؤاد وحفيد اسماعيل .

ولكن فاروق اراد ان يرسم صورة رائعة لهذه الاسرة ، وان يكون علـماً على الاثم والطغيان ليتناسب ذلك مع خاتمة قصة آل محمد علي . والواقع ان ملكا من الملوك لم يصل في طغيانه وفجوره الى ما وصل اليه فاروق حين سلب ونهب وملأ الدنيا بدعارته واشاع الرشوة والفساد ، وداس بقدمه كل مقدسات البـلاد .

لقد نشأ فاروق في بيئة ملوثة ، كان فيها صورة لأبيه بآثامه وحياته ومباذله. وصورة لأمه ايضاً ، فلا غرو ان تتحول نفسيته الى الجريمة والفساد .

ولا شك انه كان للبطانة التي احاطت به أبعد الاثر في انحرافه وذهابـه الى آخر الشوط . هذه البطانة التي جندت له بعد حادث ٤ فبراير « الصحافـة » التي قامت بدور خطير في اغداق الصفات والنعوت العبقرية عليه .

ونسي فاروق واجبه كملك ، ومضى يسخر مقومات الدولة ومواردها لملذاته ومباذله ليغرق في حياة عابثة داعرة .

وخنع الزعماء وذلوا . وانحنوا يقبلون يده . ويسلمون له بما يطلب . واطلقوا يده في شئون الدولة . وعاونوه على تجاوز سلطاته التي حددها الدستور . فكان طبيعياً ان يصل الى هذا الحد من الطغيـان الذي عصف بالاستقرار الداخلي ، واشاع الفوضى والفساد في ادارات الحكومة ، وتجاوزها الى الشركات والافراد. وامتدت يده الى اراضي الاوقاف فنقلها الى الخاصة (الملكية) ، واستقطع من اراضي مصلحة الاملاك فنقل آلاف الافدنة الى التفاتيش الملكية .

وكان فؤاد قـــد ترك ثروة تقدر بحوالي ٤٩ الف فدان خص فاروق منهـا

١٥ الف فدان . وقد ارتفع هذا الرقم عام ١٩٥٢ الى ٩٣ الف فوان .

ولم يكن هذا التوسع الا على حساب الشعب والفلاح والفقير . فقد كان يجـــاور التفاتيش بعض الاراضي البور التي يفرض على الحكومة استصلاحها وتسليمها الى الخاصة الملكية. وفي مناطق اخرى كانت اطيان الافراد نهباً للملك. فقد يتوالى التهديد والضغط حتى يضطروا الى بيعها باسعار زهيدة للملك بلا معارضة . ومن الاوقاف الخيرية التي اغتصبها فاروق : وقف اسماعيل وتبلغ قيمته ٥ ملايين جنيه . كما ضم وقف قوله البالغ ٢٣ الف فدان . ووقف زينب محمد علي البالغ ١٢ الف فدان . ووقف الوادي ومساحته ٤١ الف فدان .

وقد حاول فاروق ان يتدخل في اعمال القضاء . وموقفه من قضية الاسلحة الفاسدة ما زال قريباً الى الاذهان ، فقد اراد ان يحول اتجاه التحقيق لمصلحته . وفي قصة ادمون جهلان وكيف جندت قوات الدولة ووزير الداخليـــة نفسه للحيلولة بين النيابة وبين القبض عليهما يدل على مدى ما بلغته الفوضى في عهده.

ثم كانت معركة فلسطين ثمناً لاموال فاروق التي كانت محجوزة في ايطاليا ، والتي لم يكن هناك سبيل لاستردادها الا بشراء الاسلحة الفاسدة ليحارب بهـا الجيش المصري في فلسطين . وباع الملك الالقاب والنياشين ، واتخذ موائد القمار والخمر وسيلة الى السطو على اموال الاثرياء والتجار واصحاب الشركات . وكان خاتمة المآسي في حياة الملك قصة النسب النبوي الذي ادعاه لنفسه .

●

ولم تكن تصرفات فؤاد او فاروق الا امتداداً لقصة طويلة مريرة بدأت منذ عهد محمد علي الذي ولاه الشعب فسحق قوة الشعب واستبد . واسماعيـل الذي سجلت مذكرات احمد شفيق عن مباذله ما تعد مباذل ومخازي فاروق طرفاً منها وامتداداً لها .

وقد حطمت هذه الاسرة المقاومة الشعبية مرتين . حطمها محمد علي حـــين خشي خطرها وهي التي قهرت نابليون وهدت قواه . وحطمها فؤاد والانجليز بعد ثورة ١٩١٩ عندما ألفا معاً مسرحية البرلمان والاحزاب .

وقد وصف المسيو (جبرائيل شارم)اسراف اسماعيل بقوله « : كان يغـترف المال من الخزانة بكلتـا يديه لا ليرضي اهواءه الشخصية فحسب . بل ليسد نهم الطامعين الملتفين حوله .فكم من الفرنسيين والانجليز كانوا تعساء في بلادهم ثم نالوا ، بعد ان هبطوا مصر ، الرخاء والنعيم .

ومعنى هذا ان اموال الشعب حرّمت على الشعب الفقير ،وجرد منها، وسيق بالكرباج ،واعتصرت اقواته لتعطى للاسرة الشاذة وللاجانب الذين كانوا يحيطون بالخديو الخليع .

وقد ظل افراد هذه الاسرة يحتقرون الشعب ويزدرونه . ولم يشاركوه في افراحه واحزانه ورفضوا دفع الضرائب . وقال بعضهم مفاخراً : انـــه ليس مصرياً وانما يحمل جواز سفر مصري .

وقد كان لا بد ان يقف جمال عبد الناصر من هذه القصة المثيرة موقفاً حاسماً. لم يكن من المعقول ان يعزل فاروق ويبقى النظام الملكي .

لذلك اصدر في ١٨ يونيه –حزيران–١٩٥٣ قراراً ثورياً بإلغاء حكم اسرة محمد علي وإلغاء الملكية واعلان الحكم الجمهوري في مصر ، وكان قد بدأ حكم هـذه الاسرة في ١٣ مايو – أيار – ١٨٠٥ .

وكانت هذه الاعوام الطويلة حافلة بالدسائس والمؤامرات لمصر وابنائها .

فقد كان محمد علي وابناؤه واحفاده يحتقرون المصريين وينكرون عليهم ان يكونوا انداداً لهم او احراراً . وكانوا في الاغلب لا يعرفون اللغـة العربية ولا يتحدثونها . ولم تكن الاجيال الاربعـة التي امضوها في مصر لتربطهم بالبلاد ، ولو انهم ارادوا الامتزاج بها لاستطاعوا . ولكن هذه النفسية الحاقدة الرعناء التي عرفت في محمد علي وابنائه جعلتهم دائماً يقيمون الحواجز بينهم وبين الشعب.

وقد تمثل هذا بصورة واضحة في كل تصرفات هؤلاء ، سواء في مراكز الولاة او الخديويين ، ولعل كلمة توفيق الى عرابي يوم عابدين تصور هـــذا الشعور الباطن الخفي .

– لقد ورثتُ ملك هذه البلاد عن آبائي ، وما انتم الا عبيد احساناتنا.

وقد تمثلت كراهية هذه الاسرة للاحرار والدعاة الى الحق في الموقف المزري الذي وقفه محمد علي من عمر مكرم حين الب عليه المشايخ ونفاه الى دمياط . كما تمثلت في الموقف الذي وقفه توفيق من جمال الدين الافغاني عندما أصــدر اول فرمان له بعد ولايته الملك بنفيه من البلاد .

وقد عمل محمد علي على سحق الروح الشعبية القوميــة التي اخرجت المماليك وعزلت خورشيد الحاكم التركي والتي كان لها فضل اختياره والياً .

ومضى محمد علي مطمئناً بعد ذلك يفرض الضرائب والاتاوات على الاطيان والمتاجر ، مما أدى الى تدهور الحالة الاقتصادية . وما كاد يطمئن الى انه سيــد الموقف وانه حطم كل معارضة حتى نفذ نظام الالزام،والغى جميع عقود الاملاك التي كانت في ايدي الفلاحين ، وبدأ يوزعها على أنصاره ، وبـذلك خلق النظام الاقطاعي الذي حطمته الثورة بعد اجيال . وقد صور عبد الرحمن الرافعي هذا المعنى في قوله .

« لقد فدحت جيل محمد علي السخرة ، ولم يتذوق طعم الحرية الشخصية ولا حق الملكية بعد ان تملك محمد علي كل اراضي مصر ، ووضع نظام احتكار الحاصلات المصرية وبيعها، كما احتكر الصناعة والتجارة. وقد اساء هذا النظام الى الشعب اساءة كبرى لانه ضرب عليه حجابا من الفقر والجمود» .

وقد دعت فداحة الضرائب واعباء السخرة التي فرضها محمد علي الكثير من المصريين الى الهجرة ، وقد بلغ عدد المهاجرين ستة الاف من الفلاحين .

وكانت هذه الخطة الاقتصادية هي اساس الحياة السياسية الجديدة في مصر ، وهي حصر السلطة في يد محمد علي واسرته .

وفي ايام «سعيد» تضخم عمل السخرة وجردت مجموعات ضخمة من ابنـــاء الوطن لهذا الظلم الصارخ. وكانت اكبر جرائمه في حق مصر منحه « دلسبس » امتياز قناة السويس.

●

اما اسماعيل فقد امتص دماء الشعب الفقير ،واشاع حكم السخرة والارهاب،

وفي عهده دفعت مصر ١٧ مليون جنيه من نفقات حفر القنــاة التي بلغت في مجموعها ١٨ مليون جنيه .

وقد باع اسماعيل اسهم مصر في القناة وعددها ١٧٦٦٠٢ وهو مـا يساوي نصف اسهم الشركة التي تبلغ ٤٠٠ الف سهم ، فاشترتها بريطانيا بأربعــة ملايين من الجنيهات، وقد بلغت قيمتها ٧٢ مليوناً من الجنيهات عام ١٩٢٩، وربحت منها الخزانة البريطانية في نفس العام ٣٨ مليوناً من الجنيهات.

وتنازل عن حصة مصر وقدرها ١٥ في المائة من ارباح القنـاة ، التي كانت تؤول اليها بمقتضى عقد الامتياز ، وذلك بسبب قروضه مقابل ٢٢ مليون فرنك اي ٨٨٠ الف جنيه ، وتبلغ قيمة هذا النصيب الان نحو ٢٠ مليون جنيـه وهو يغل ايراداً لا يقل عن ٨٦٩ الف جنيه في السنة .

وفي ظل اسماعيل فرضت السخرة والــكرباج . وسخر ٨٠٠ الف نسمـة ومات في حفر ترعة المحمودية ١٢ الفاً وفي قناة السويس ٢٧ الف عامل.

وقد بلغت قروض اسماعيل ١٢٦ مليوناً من الجنيهات .

اما توفيق فقد صورنا موقفه من حركة عرابي وخيانته لها في صفحات اخرى من هذا الكتاب .

وقد انتهى حكم هذه الاسرة ، وانقذ جمال عبد الناصر البلاد من ظلم هــذه الاسرة التي اخرت البلاد طويلا في ميدان الوحدة والقوة والحرية والتجمــع العربي الكبير .

وكانت عوناً للمستعمر محتمية به وحامية له .

وكانت هذه الخطوة من جمال جزءاً هاماً من قضيته الكبرى : قضية توحيد الامة العربية وجمعها، والقضاء على عوامل الفرقة بينها . ولا شك ان اسرة محمد علي كانت حجراً كبيراً في سبيل تحقيق هذه الغاية .

وسحق الاقطاع ..

« ان تحديد الملكية الذي تخلصنا به من الاقطاع والاقطاعيين الذين ظلوا سنين طويلة في هذا البلد يعبر عن معنيين رئيسيين : المعنى الاول هو الحرية السياسية والتخلص من الاستبداد السياسي. وهذه الارض هي العامل الاول دائما في التوجيه السياسي في هذا البلد ، والفلاح الذي كان يشتغل فيها ينظر الى صاحب الارض على انه الرجل الثري الذي يتحكم فيه وفي رزقه، وكان لا يستطيع ابدا بأي وسيلة ان يتخلص من التوجيه السياسي الذي يشير به عليه ، وكان هذا التوجيه ينحصر في نتيجة واحدة: هي تحكم الاقطاع في الحكم ، وتحكم الاقطاع في سياسة الدولة .

هذه الارض ليس معناها تمليك الارض ، ولكن معناها التحرر والحرية، التحرر من الظلم السياسي والحرية من التحكم في الرزق والحرية في التحكم من لقمة العيش » .

***

هكذا يفهم جمال عبد الناصر مهمته في سحق الاقطاع وتحديد ملكية الاراضي ، ففي ٩ سبتمبر - ايلول - ١٩٥٢ اصدر جمال عبد الناصر قانوناً الغى به الاقطاع في مصر ؛ كان هذا القانون ولا شك دعامة قوية من دعامات الثورة اذ حقق هدفاً رئيسياً من اهدافها ، ووضع فلسفة واضحة لها ، ترمي الى الحد من طغيان الاقطاع ورفع مستوى الطبقات الفقيرة . لا سيما اذا عرف ان هذه الملكيه لم تكن في الواقع وفي اغلب الامر من الملك الخاص ، وانما كانت مظالم انتزعها محمد علي وابناؤه واحفاده من اصحابها .

وقد تبين من ارقام الاحصاء ان الفي شخص كانوا يملكون ٦٠٠ الف فدان بمعدل ٣٠٠ فدان للفرد ،وقد تجمعت لهم ثروة توازي عشر دخل المصريين جميعاً من الزراعة .

وكان فاروق يملك ٢٤ الف فدان غير الاوقاف التي يتنظر عليهـا . وكان لشقيقاته ٢٤ الف فدان . كما كان جملة ما تملكه الاسرة المالكة السابقـة ٢٠٠ الف فدان . ومعظم هذه الاراضي ورثها اعضـاء الاسرة من حصصهم في الشفالك التي اقطعها اياهم جدهم محمد علي بعد ان انتزع ملكيـة الاراضي من جميع المصريين ، ويبلغ مجموعهم ١٢١ شخصاً .

وللاقطاع قصة مريرة بدأت في عهد محمد علي عندما طلب من الملتزمين الذين كانوا يتولون جباية الضرائب عقود التزاماتهم ثم احرقها . وحتى لا يثور هؤلاء الملتزمون ويؤلبون الفلاحين عليه ، قدم لهم مساحات من الاراضي في انحـاء البلاد اطلق عليها « ارض الوسية » يستغلونها مدة حياتهم ، ولا يدفعون عنهـا ضرائب . وبذلك تحول اصحاب الارض الى رقيق يزرع الارض .

وفي الفترة بين عام (١٨١٢ — ١٨١٨) اي في خمس سنوات قسم محمد علي اراضي مصر مساحات ثابتة ، وعين الحدود الفاصلة لكل قرية وما يجاورها من القرى . وقسم اراضي القرى الى احواض . وعين لكل حوض عـدداً من الفلاحين الذين يقومون بزراعته . وفي كل موسم زراعي كان يعين لكل مزرعة محصولهـا .

وبدأت مرحلة جديدة من استعباد الفلاحين لا مثيل لها ، امتدت وتضاعفت في خلال حكم هذه الاسرة الظالمة .

ويصف الجبرتي هذه المظالم التي رفعها جمال عبد الناصر حـين رد هذه الاراضي الى اصحابها «وان لم يجد المعينون للطلب شيئاً من الدراهم عند الفلاحين اخذوا مواشيهم وابقارهم لتأتي اربابها ، ويدفعوا ما تقرر عليهم ويأخذوهـا . او يتركوها بالجوع والعطش . فعند ذلك يبيعونها للجزارين ويرمونها عليهم قهراً باقصى القيمة ويلزمونهم باحضار الثمن ، فان تراخوا وعجزوا شددوا عليهم

بالحبس والضرب » .

وسخر الفلاحين لحفر ترعة الاشرفية « وكان اذا قرب وقت الحصاد رد الفلاحين الى الارض لجمع المحصول ، فاذا جاء شهر (ابيب) ونودي بوفاء النيل أمر محمد علي حكام الجهات بجمع الفلاحين للعمل ، فكانوا يربطونهم قطارات بالحبال وينزلون بهم في المراكب . وتعطلوا عن زراعة الدراوي الذي هو قوتهم . وقاسوا شدة بعد رجوعهم من المرة الاولى ومات الكثير منهم من البرد والتعب . وكل من سقط أهالوا عليه تراب الحفر ولو فيه الروح . ولما رجعوا الى بلادهم للحصاد طولبوا بالمال . وزيد عليهم عن كل فدان حمل بعير من التبن وكيلة قمح وكيلة فول ، واخذ ما يبيعونه من الغلة بالثمن الدون والكيل الوافر . فما هم الا والطلب للعودة للشغل في الترعة ، ونزع المياه التي لا ينقطع نبعها من الارض وهي في غاية الملوحة . والمرة الاولى كانت في شدة البرد وهذه المرة في شدة الحر مع قلة المياه العذبة » .

وذكر امين سامي في تقويم النيل « ان محمد علي أصدر امراً بأنه اذا وجد من المأمورين او القائمين او حكام الاخطاط والمشايخ والخول إهمالاً ان يجمعهم في وسط الغيط الحاصل فيه التأخير ، ويأمر بحفر حفرة ويدفنهم احياء على رؤوس الاشهاد .

وقد ادى هذا الى الهجرة الجماعية ، حتى ان كثيراً من الفلاحين فدحتهم اعباء السخرة والضرائب التي فرضها محمد علي فهاجروا جماعات الى الاقطار السورية المتاخمة لمصر ، فراراً من هذه المكاره . وازداد سيل المهاجرين حتى بلغ ستة آلاف من الفلاحين ، وخشي محمد علي من عواقب هذه الهجرة وما تفضي اليه من المضار الاقتصادية فطلب من عبدالله باشا والي صيدا ان يرجع المهاجرين المصريين الى بلادهم . فرفض عبدالله باشا طلبه محتجاً بان المصريين من الرعايا العثمانيين ولهم الحق ان يقيموا انى شاؤوا ، فغضب محمد علي من هذا الجواب وكتب اليه يتوعده وينبئه انه قادم ليعيدهم جميعاً يزيدون واحداً .. وهو عبدالله باشا ذاته .. »

وعندما نشب الصراع بين محمد علي والقائمين على شئون الارض اثار عليهم

ابراهيم ، وأمره ان يفعل كل ما في وسعه لتحطيم روح المقاومة وانتزاع الارض بالقوة . فكان القواصة يهبطون القرى ليلاً بالسلاح ، وينصبون المشانق وادوات التعـذيب في الاجران لأرهاب كل من تحدثه نفسه بالدفاع عن ارضه او التمسك بها . وزاد ابراهيم على ذلك بانه انتزع معظم الاراضي الموقوفة على اعمال البر فنزح الوف من الفلاحين الى العاصمة يشكون الى الوالي الذي احالهم على ابراهيم . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ان محمد علي عمد الى مصادرة ما على الارض من انسان ودابة وادوات للحرث والحصاد . وهنا ضاقت الارض بسكانها فهرب الوف الفلاحين ومعهم نساؤهم واطفالهم وأخذوا يهيمون على وجوههم في العراء .

وكان محمد علي يسوق الفلاحين مصفدين في الاغلال يشقون الترع والمصارف ويزرعون الارض — نفس الارض التي كانوا يملكونها — لحساب الملاك الجدد، كما احتكر محصول الارض ، فلم يكن الفلاح يحصل الا على قيمة سدس المحصول . وكان يحصل عليه صكوكاً على خزانة الدولة — فكانت تبقى ديناً لا يسدد في ذمة الدولة . وكان الموظفون يماطلون الفلاحين في دفع القيمة .

ثم بدأ محمد علي يوزع اقساماً من ارض مصر على اعوانه . واطلق على هبات الارض التي أعفيت من الضرائب اسم الابعاديات لأنها ابعدت عن السجلات . وبلغت هذه المساحة ٢٠٠ الف فدان . وكانت هـذه الارض من نصيب الاعيان ورجال الادارة والحربية . اما افراد اسرته فكان نصيبهم أوفر وارضهم أوسع واجود، واطلق على هذا النوع اسم « الشفالك » .

●

وتولى اسماعيل حكم مصر فسار خطوات واسعة في طريق الاقطاع . وكانت مساحة مزارعه لا تتجاوز ١٥ الف فدان . وبعد سبعة عشر عاماً بلغت هـذه المساحة ٩٥٠ الف فدان هي مساحـة المنزرع من ارض مصر . ولم تكن سياسة اسماعيل في شق الترع وانشاء الطرق الا رغبة في استصلاح ارضه .

واجاز اسماعيل للاجانب تملك الارض ، كما وزع هبات واحسانات الى سيدات

ورجال بلغ مجموعها اكثر من ٨٧٦ الف فدان .

وقد كان لوجود هذه الثروة الضخمة التي كانت في ايدي كبـار الملاك الذين الذين بلغ عددهم الفي مالك اثر بعيد في نظام الاحزاب والانتخابات في مصر بعد عام ١٩٢٣ ، فقد كان هؤلاء المـلاك الكبارهم قوام الاحزاب ، وهم الذين كانوا يملكون مقاليد الانتخابات والحكم الدستوري في مصر .

وادى احتكار الكبار من ملاك الاراضي الزراعيـــة الى احتكار كراسي البرلمان . وكان ذلك عاملاً بعيداً في الوصول الى اكبر عدد من اصوات الفلاحين عبيد الارض ، الذين يعملون في أرضهـــم والذين لا مفر من ان ينتخبوا سادتهم رغم انفهم .

وكانت الانتخابات هي مقياس معاملة الفلاحين . فقد كان عدد الناخبين هو بالفعل عدد الفلاحين الأجراء في اراضي كبار الملاك . ولم يكن في استطاعة هذا الفلاح ان يكون له رأي ، فقد كان واقعـاً تحت سلطان المالك الذي يملك كل سلطان في الريف .

وكان كل مالك لخمسمائة فدان يستطيع ان يتحكم في دائرة انتخابية ، فما بالك بمن يسيطر على الوف الافدنة كآل البدراوي ، وسراج الدين ، وغيرهم ...

●

وقد اجاب جمال عبد الناصر على السؤال الذي تردد كثيراً : لمـاذا اصدرت الثورة قانون الاصلاح الزراعي « ظلت مصر في العهد الماضي تعـــاني قصوراً في تطورها الاقتصادي، وكان على الثورة ان تواجه هذه المشكلات بما تستأهله من حزم ، وان تلتمس الحلول الرشيدة لها بطريقة فعلية وفعالة في الوقت نفسه . ولم تمض اسابيع على نشوب ذلك الحادث الذي جاء وليد الارادة العامة حتى صدر قانون الاصلاح الزراعي في سبتمبر - أيلول - من عام ١٩٥٢ لمنح الارض - اذا ما زادت على حد معين - الى الصغار والمعدمين من اهل الريف، فيعظم ارتباطهم بها بها وينمو شعورهم بالمسئولية ، وتكون الملكيات الصغيرة سبيـلاً الى خلق نظام تعاوني يعمل على تنمية الانتاج الزراعي » .

وفي مناسبة اخرى اشار جمال عبد الناصر الى زاوية اخرى من هذا الموضوع فقال : « لقد طلبنا من الاحزاب السابقة التعاون معنا بعد خلع فاروق مشترطين عليهم تطبيق مبدأ تحديد الملكية والاصلاح الزراعي ليساهم الجميع في رفع الظلم عن الفلاح ، وتوجد له الحرية الفردية فــلا يسيطر على الفلاحين اقطاعيون. ولما رفضت الاحزاب تطبيق هــذه المبادىء السامية ، اضطرت الثورة ان تتحمل اعباء الحكم».

وفي مرتين متتاليتين شهدت الرئيس وهو يوزع الاراضي في اكبر منطقتين اقطاعيتين في مصر : في بردين في شمال الدلتا وفي نجع حمادي في الصعيد .

وقال جمال في نجع حمادي :

« كان علينا لكي نقيم حياة نيابية سليمة ان نتخلص من الاقطاع . ولكن الاحزاب رفضت ، وقالت: اننا لا نقبل توزيع الارض ولا تحديد الملكية . اننا نقبل الضرائب. فقلنا لهم: انه ليس من غرضنا فرض ضرائب ولا نحن طلاب ثروة، بل كل ما نبغي هو تحرير الفرد، وانه لا يمكن تحرير الوطن الكبير قبل ان يتحرر الفرد ، ولا تعني تحديد الملكية اننا سنملك كل فلاح في مصر .

ولكن تحرير الارض يحرر الفرد من كل انواع الذل والاستعباد والاقطاع ، ولكن كيف يتحرر هذا الفلاح الذي يعمل عند الاقطاعي، ويشعر انه تحت رحمته، يستطيع ان يخرجه متى شاء هو واولاده . ومعنى هذا انه لن يطمئن على حريته ولن تتحقق حرية الفلاح اذا كان مهدداً في رزقه وفي حياته » .

هذا والمعروف ان قانون الاصلاح الزراعي صدر بعد أن سقطت من أجله اول وزارة تألفت بعد الثورة . وكانت التعليقات الخارجية تصف هذا العمل بأنــه قفزة في الظلام . ولكنه ما كاد ينفــذ حتى ظهرت نتائجه وتحقق الغرض منه وحافظ على انتاج الارض وزاد فيها، وباءت بالفشل كل الاشاعات والاوهام التي ترددت قبل صدور القانون عن نتائجه .

وهكذا حقق جمال الغاية التي كان يرجوها ، وازال هذه الصخرة الضخمة

من حياة الشعب، ثم كان لا بد من خطوات اخرى تحققت في خلال اندفاع تيار القومية العربية الضخم الباهر. ففي اكتوبر ـ تشرين الاول ـ ١٩٥٨ صدر قانون تحديد الملكية والغاء الاقطاع في الاقليم الشمالي للجمهورية العربية المتحدة : في سورية، فكانت له نفس النتائج الباهرة التي حققها في الاقليم الجنوبي .

وقضى على الحزبية ..

« قالوا سنطهر انفسنا ونبدأ عهدا جديدا ، ولكن الاحزاب التي تمكنت فيها الحزبية العمياء الحزبية الكريهة ، هذه الاحزاب التي مضى عليها خمسون عاما تعمل لصالحها ومصالحها المتبادلة وتقبل الرشوة ، هذه الحزبية التي وجدناها تضع السلطة والسلطان امامها لن تعود . ولن تعود هذه الوجوه مرة اخرى الى الظهور .

ستسير الثورة في طريقها المعروف حتى تصل بنا الى اهدافها متحررين من الخوف والفزع والظلم والطغيان والحزبية والاحزاب ومن الرجال القدماء الذين تحكمت في نفوسهم الاحقاد وفي عقولهم البغضاء .. »

وهكذا، وبعد أن عجزت الأحزاب عن أن تطهر نفسها وتنقي صفوفها، وقد أعطاها جمال الفرصة الواسعة، صدر في ١٧ يناير-كانون الثاني-١٩٥٣ قانون بحل جميع الأحزاب السياسية في مصر، ومصادرة أموالها لصالح الشعب، بعد أن تبين له انه لا مفر من اتخاذ هذه الخطوة الحاسمة .

فقد أفسحت الثورة صدرها للاحزاب، وأعطتها الفرصة التي تمكنها من ان تؤدي حق الوطن اذا أرادت. ولكنها لم تكن جادة في أن تتجاوب مع الثورة؛ فكان من الضروري حلها بعد هذه التجربة الطويلة المهينة التي قاستها مصر خلال أكثر من أربعين عاماً، والتي سجلت تلك الصفحات السوداء الحالكة السواد .

لقد بدأت الحزبيـة في مصر تأخذ صورة الصراع بعـد أن دب الخلاف بين سعد وعدلي ،وانتهى الى انشاءحزب الأحرار الدستوريين عام١٩٢٢ حيث أخذ يتقاسم الزعامة مـع الوفد الذي تكوّن عقب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ ومن الوفد تفرع الحزب السعدي عام ١٩٣٨ ، والكتلة عام ١٩٤٣ .

وفي خلال ذلك نشأ حزب الملك فؤاد الذي أطلق عليه حزب الاتحـاد عام ١٩٢٥ وحزب الشعب عام ١٩٣٠ .

لقد كان الصراع بين سعد زغلول وعدلي يكن هو مقدمة هذه المأساة التي انتهت بعد أكثر من ثلاثين عاماً الى تمزيق وحدة الأمة . وعجز الأحزاب جميعاً عن تحقيق أي خطوة في سبيل تحرير مصر أو اجلاء القوات الأجنبية .

وإن كانت هذه الأحزاب قـد نجحت في شيء فهو تحطيم القوة الشعبية التي بدأت قوية في ثورة ١٩١٩ ،وتحويل تيارها من المعنى الوطني الى المطامع الخاصة.

لقد كانت ثورة ١٩١٩ حركة ضخمة، هزت العالم وهزت بريطانيا .وأثبتت أن في مصر روحاً قوية متمردة على الاستعمار لا تغلب . وكان في الاستطاعـــة الاحتفــاظ بروح الثورة لتحقيق اكبر ما يمكن تحقيقـــه من آمال في الحرية والاستقلال والجلاء .

ولكن الزعمــاء الذين قادوا الشعب بعد الثورة لم يكونوا من قوة الايمان بالوطن الى الحد الذي يجعلهم يضحون في سبيـله ويتمسكون بحقـه . وسرعان ما استطاع الانجليز اغراءهم بمـا اطلقوا عليه اسم الاستقلال، مع التحفظات التي كانت في ذاتها قواعد للاستعمار البغيض ، ثم فتحوا باب الدستور والانتخـابات والبرلمان والحكم فاندفع الزعماء في قوة وعنف،وأغرتهم المناصب البراقة والمظاهر اللامعة فتقاتلوا عليها وحطموا حتى مصر في هذا الصراع .

ولا شك أن في عنق زعماء ما بعد ثورة ١٩١٩ جرم هذا العمل الآثم البعيد المدى ،الذي نقل آلامه من جهـــاد الوطنية وكفاح الحرية الى دسائس السياسة ومؤامرات الحزبيـــة ، ومساومات المفاوضة ، واقصاء الشعب عن المشاركة في بحث مطالبه وتعرف حقوقه والدفاع عنها .

ومعنى هذا اننا انتقلنا من الاحتلال السافر الى احتلال مقنع وراء زعماء يصفق لهم الشعب لأنهم قادرون على خداع الشعب بالتصريحات المزيفة ، في حين انهم خاضعون تماماً للمستعمر ، يقاومون الشعور الوطني ويقتلون روح المقاومة.

ولما كانت الاحزاب في صراعها تؤمن بانها لن تحكم طويلا ،وأن خصومها من الاحزاب الاخرى خارج الحكم يحضرون لها قبرها ، فقد عمدوا الى الانتفاع باكبر قدر ممكن من المنافع الخاصة ، وبذلك اثرى زعماء الاحزاب على حساب الشعب .

وعاش رجال الاحزاب اداة طيعة من ادوات الطغيان في يد فؤاد وفاروق. وبلغت الاحزاب في صراعها انها احتضنت جرائم الرشوة والسرقة واستغلال النفوذ فتسترت على اللصوص والمرتشين ومستغلي النفوذ .

وكان الاقطاعيون الذين يقبضون على زمام الارض الطيبة ويستعبدون الفلاح المصري هم اعمدة هذه الاحزاب ، فقام نوع من الرق الاجتماعي كان هو طابع العصر كله .

وعاشت مصر في خلال هذه الفترة (١٩٢٢ - ١٩٥٢) في اتون من الصراع الشخصي العنيف ، الذي كانت اساليبه غاية في البشاعة والسوء . فقد عملت الاحزاب لحساب الملك مرة ولحساب الانجليز مرات . وكانت العدو الاول للشعب الذي حاول في هذه الفترة ان يعلن رأيه ويقف بالمرصاد لهذه الجرائم التي ترتكب في حق الوطن ، فكان يقمع بقوة الحديد والنار .

وطبيعي ان هذا الصراع بين الاحزاب لم يكن شريفاً ولا خالصاً لوجه مصر ، وانما كان قائماً على الشهوات والمطامع . وكانت الصحف مع الاسف اداة هذا الصراع بكل ما فيه من اثم وفساد وجدل وهجاء .

●

فاذا ما اردنا ان نستعرض تاريخ المقاومة الشعبية في الفترة ما بين سنة ١٩٢٣ و ١٩٥٢ لم نجد تلك الصورة الرائعة القوية التي كانت من قبل. فقد تحول كل شيء . واستطاع الزعماء عن طريق الاحزاب والبرلمان والانتخابات ان ينقلوا الشعب

الى صفوف الصراع الداخلي في سبيل المغانم والرغبات الخاصة، وان يخمدوا هذه الحماسة المؤمنة .

وكان عصب المقاومة الشعبية في ثورة ١٩١٩ طلبة المدارس العليا ، هؤلاء الذين تحولوا فيما بعد الى الزعامات الحزبية .

وفي خلال هذه الفترة لا نرى المقاومة الشعبية تبدو قوية صاعقة الا في حادثين: تصريح هور سنة ١٩٣٥ ومعاهدة بيفن سنة ١٩٤٦؛ وقد استغل عمل المقاومة الشعبية مع الأسف لمطامع الاستعمار والاحزاب . فقد جاهد الشباب في سبيل اعادة دستور ١٩٢٣، ولكن ذلك كان على حساب مصر، فقد تجمع الزعماء في وحدة لا ليحرروا مصر ولكن ليوقعوا وثيقة مرذولة حملت البلاد متاعب ضخمة . وكانت وصمة عار في تاريخ هؤلاء الزعماء .

وفي المرة الثانية كانت الدعوة الى الجلاء والارتفاع فوق الحزبية قد بدأت تملأ النفوس ، وعادت الى الحياة ، ولكن النتيجة لم تكن الا اتجاه مصر الى مجلس الأمن للمطالبة بحقها . وهنا لعبت الحزبية فأفسدت كل شيء . سافر رئيس حزب وحده دون ان يشرك معه بقية الاحزاب فاذا هو وصل الى هناك أبرق زعيم حزب آخر ليحطم جهوده ويقول انه لا يمثل البلاد .

غير انه في خلال السنوات التالية فيما بعد سنة ١٩٤٦ بدأت روح الثورة تتجدد في قلب مصر بصورة جديدة فسجل الشعب سخطه في يناير ١٩٥٢ ، ابان معركة القنال حينما ذهب ينادي بسقوط فاروق ورجال فاروق وحاشيته .

«وكان الجيش في هذه الفترة – كما يقول جمال عبد الناصر – يتفاعل مع الشعب خطوة فخطوة . وكلما غلى المرجل في نفوس الشعب غلى بدوره بين ضباط الجيش وجنوده ، لان الجيش من الشعب وللشعب. بيد ان الجيش كان يؤثر الانتظار حتى يستنفد الشعب خطوات كفاحه. وقد تصل الامور الى غايتها من الفساد فيسهل بعد ذلك القضاء على الفساد » .

والحق انه حينما تحالفت الملكية والرجعية والاستعمار في سبيل سحق

المقاومة الشعبية كانت هناك قوى اخرى تتجمع في صميم الشعب لتوجه ضربة قاضية لهؤلاء الاعداء .

ولقد بلغ الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي غايته . وكان الدستور والبرلمان والوطنية كلمات براقة يراد بترديدها دعم العهد الظالم والدولة الغاربة والنظام الذي كاد يتهاوى .

وبدأ القصر يتمرغ في الوحل بعد ان اتصل بالعار والاثم والفاحشة . ومضى الملك الفاسد يقيل الوزارات ويؤلفها . ولم تتقدم وزارة واحدة الى برلمان قائم ، بل كانت كل وزارة تلي الحكم تحل البرلمان وتؤلفه من جديد بانصارها ، وابتدع اسماعيل صدقي الانتخابات المزيفة على صورة جماعية بعد ان كانت فردية !

وقد ولد الدستور ناقصاً وكان فؤاد يراه منحة منه . وبالرغم من انه نص على أن الامة مصدر السلطات فان هذا لم يحل بينه وبين التدخل في شئون الحكم . وزاد ذلك شدة في ايام فاروق ، بعد ان تجمعت حوله هذه البطانة التي زينت له الطغيان وصورته بمظهر القداسة . وأنشأت له لوناً جديداً من الوان التمجيد الصحفي الشاذ وسارت مواكب النفاق من الصحافة الى الاذاعة .

ولقد كان القصر دائماً حليف الاقطاع وحرباً عواناً على الحركة الوطنية ، وبلغ فاروق في ذلك الغاية . فانه ما كادت مراسم توليته تتم حتى هرع في نفس اليوم الى دار السفارة البريطانية فقدم مظاهر خضوعه وولائه . ثم أنعم عليه المستعمر بلقب « جنرال » في الجيش البريطاني .

وكانت له مخصصات ضخمة من الاموال تستهلك قسطاً كبيراً من ميزانيـة الدولة . وهو اول من حطم روح المقاومة الشعبية الى حد جعله يحرق القـاهرة حين اشتدت هجمات الفدائيين في معركة القنال . وكان العميــل الاول للقوات المعادية يورد لها المؤن من انتاج تفاتيشه الزراعية .

وجاءت قضية الاسلحة الفاسدة فكشفت للامة الحقائق الخافية ، ووضعت فاروقاً ورجاله في الميزان . ثم فرضت على القضاء الواناً من التوجيه لحماية الحاشية .

ولكن الصحافة الشعبية ممثلة في فتحي رضوان واحمد حسين وخالد محمد خالد

واحسان عبد القدوس وحلمي سلام وعزيز فهمي لم تلبث ان لعبت دوراً ضخماً هز القصر ورجاله . اذ اصطنعت اسلوباً في التنديد قوامه الكاريكاتور والعبارات المبهمة حتى تنجو من المحاكمة .

ووقف مجلس الدولة موقفاً مشرفاً في حماية روح المقاومة الشعبية . وتجلت المعارضة عندما اخذ الوفد بالاشتراك مع القصر في اعداد تشريعات جديدة لخنق الصحافة .

وكان الغاء المعاهدة في اكتوبر – تشرين الأول – ١٩٥١ مسرحية وفدية كبرى اريد بها احداث دوي يغطي على ما كان يتردد على الألسنة من اتهامات وفضائح للقصر واهله ، والوزارة وزعمائها وبيوتها . وقد كان هذا الحادث المسرحي مقدمة للمرحلة الأخيرة من حياة النظام كله ، وعنواناً على النهاية . فقد تحصّن الملك وراء مجموعة من الخونة لينفذ خطة جديدة من خطط الخيانة والغدر ، لم تكن إلا حرق القاهرة ، بعد ان وقفت مصر في القنال وقفة باهرة أزعجت بريطانيا والملك . فلم يكن هناك بد من ايقاف ذلك كله بالتخريب والتدمير .. وفي لحظات اصبح الشهداء والأبطال مجرمين تطاردهم العدالة .

وجاء جمال عبد الناصر فوضع الخاتمة لهذه المهزلة الضخمة التي عاشت فيها مصر سنوات طويلة ، وليتم الحلقات المتصلة للكفاح الشعبي الضخم الذي بدأه عمر مكرم ، ومضى فيه عرابي ، ثم جدده مصطفى وفريد وشباب سنة ١٩١٩ وشباب سنة ١٩٣٦ وشباب سنة ١٩٤٦ ، فكان هو ختام هذا الكفاح الشاق ، وثمرة هذه المقاومة الشعبية المجاهدة .

وقد كان من الضروري اتخاذ هذه الخطوة . كان ذلك ضرورياً لتحرير مصر ولتحطيم القيود التي كانت تحول دون اقامة الوحدة العربية الكاملة . فقد كان لا بد لهذه الوحدة من ان تجمع الشعب في كل وطن ثم تلتقي بالأمة العربية كلها .

«كنا نقاسي كل ألوان الذل والعبودية باسم الحرية التي ابتدعها حكام العهد الماضي . فكان لهم فيه برلمان قالوا عنه انه منبر للحرية ، ومشعل للعدالة الاجتماعية . ودستور ، قالوا انه النور الذي يضيء طريق الحرية .

«نعم ،كانت الحرية في نظرهم هي حرية الطغيان ، وحرية استغلال النفوذ بعرق المواطنين وكفاحهم . فكانت الحرية في نظرهم ان يعيشوا ولو على أنقاض الآخرين .

«لقد كانت الأحزاب تبيع الدوائر الانتخابية في المزاد للمرشحين ، فمن دفع الأجر الأوفى رُشح في الدائرة . ثم يأتي المرشح فيشتري الدائرة من بعض الأفراد ، حتى اذا ما جلس على كرسي النيابة بدأ يسترد ما دفع أضعافاً مضاعفة . وبدأ يستغل ذوي الحاجات والضعفاء ، ويثري ويجمع المال . وتنتهي الحياة النيابية بالغرم على الطبقات الفقيرة المحتاجة الى المعونة .»

«جمال»

بطل الجلاء ..

« ربما كانت شهوات انفسنا هي اكبر الاخطار التي يتعين علينا مواجهتها . لقد مرت علينا قرون عبر الزمان واحلامنا واماتينا ورغباتنا واهدافنا حبيسة وراء الحواجز والسدود التي صنعها الاستعمار .

لقد تهاوت الحواجز والسدود ، لما زال الاستعمار من بلدنا ، وهكذا بدأت الاحلام والاماني والرغبات والاهداف تنطلق من عقالها وتتدافع بسرعة الكبت الطويل فيمثل تدفق الفيضان .

لقد كان هذا هو التفسير الحقيقي لسرعة الحوادث في جيلنا ، وهو امر طبيعي بعد اجيال عديدة مكبوتة . ولكنه ايضا تحذير كما هو تفسير . انه تحذير بان من أول واجباتنا ان نقيم من الحكمة خزانات على امانينا . ثم نفتح عيوننا ليمر التيار . ليمر التيار على شكل الفيضان المنظم ولا يقفز فوق رؤوسنا كالطوفان العالي الشديد »

هكذا يفهم جمال عبد الناصر نفسه . لم تغيره البطولة عندما حقق لبلاده الجلاء: جلاء بريطانيا بعد احتلال دام بضعة وسبعين عاماً . ففي ٢٨ يوليه-تموز- ١٩٥٤ وقع جمال اتفاقية الجلاء ، وفي ١٨ يوليه - تموز -١٩٥٦ تم الجلاء نهائياً. ثم عاد الاحتلال مرة اخرى في حملة باغية على بور سعيد في ٥ نوفمبر - تشرين الثاني - ١٩٥٦ ، اي بعد ثلاثة شهور ، وتم الجلاء الثاني في ٢٢ ديسمبر - كانون الأول - سنة ١٩٥٦ .

وقد بدأت قصة « الاحتلال » بعد هزيمة الانجليز الغادرة لعرابي في ١١ يوليه – تموز – ١٨٨٢ ، فوطأت ارض مصر القوات البريطانية التي ظلت تزحف ، يساندها الخديو والخيانة ، حتى هزمت عرابي في موقعة التل الكبير .

وفي خلال هذه الحقبة الطويلة ، كان الاحتلال البريطاني سيفاً مُصلتاً على رقاب المصريين ، محطماً لكل قوة عاملة ، مخرباً مدمراً للبلاد ، عاملاً على ألا يقوم في هذا الوطن عمل ايجابي حقيقي . لم يقل الانجليز إنهم دخلوا فاتحين أو مستعمرين ، بل زعموا أنهم جاؤوا لحماية العرش من الخارجين عليه . وأصدروا خلال هذه الفترة عشرات التصريحات بالجلاء دون ان ينفذوا واحداً منها . وعمدوا منذ اليوم الأول على قتل الشعور الوطني وحل الجيش وتشريد الأحرار ، واستغلال البلاد وحرمان اهلها من خيراتها ، واستثمار رؤوس الاموال الاجنبية في عقود المقاولات والشركات والري والتأمين والمصارف . وفرضوا قوانين شاذة رجعية ، كمموا بها الصحافة والاجتماعات والهيئات ، وعمدوا إلى تسميم عقلية الشعب .

واستعانت بريطانيا في سبيل تثبيت سلطانها بكل الوسائل : سلطان كرومر ، ومنهاج دنلوب ، والتأثير على الأعيان والكبراء . كما استعمل الاحتلال أشد الوان العسف والنكال والظلم ، وظهرت احكام السخرة والكرباج والضرائب المرهقة .

وشكلت وزارات الاحتلال من صنائع الاستعمار : نوبار ورياض ومصطفى فهمي ، الذي ظل رئيساً للوزارة ثلاثة عشر عاماً (١٨٩٥ – ١٩٠٨) كانت من اسود صفحات الاحتلال ؛ وهو الذي باع البواخر المصرية بأبخس الاثمان ، وصفى ما كانت تملك مصر من أراضٍ ومنشآت .

وكان كرومر خلال ولايته لمنصب المعتمد البريطاني من ١٨٨٢ – ١٩٠٧ ، هو الحاكم الفعلي لمصر ، اذ كانت بيده مقاليد الأمور كلها ، ولم يكن الخديو بالنسبة له شيئاً . وقد قاوم كرومر الحركة الوطنية ، وانكر كفاءة الأمة ، واستهدف تثبيت الاحتلال في مصر . وفي عهده وقع حادث دنشواي ، فأرسلت

بريطانيا المشانق الى دنشواي قبل ان تنعقد المحكمة وتصدر احكامهـــا الجائرة باعدام اربعة من اهالي القرية وجلد ثمانين امام انظار اهـــالي دنشواي . وقد احيطت ساحة المحاكمة ،التي عقدت في قلب القرية ، بحلقة من الجيوش الانجليزية على الخيول شاهرة سيوفها . وكانوا يتركون المشنوق معلقاً حتى يجلدوا اثنين من المحكوم عليهم بالجلد ، وقد ضج العالم لهذه المأساة الدامية .

ولم ينس كرومر ، عندما عزلته حكومته مضطرة بعـد مأساة دنشواي ، أن يقول في حفل توديعه منددا بالمصريين : « ان أولاد العميان يولدون عـادة مبصرين ، وإن الاحتلال سيدوم الى ما شاء الله » .

وعقدت في عهد وزارة مصطفى فهمي اتفاقية عام ١٨٩٩ الباطلة التي مزقت الروابط الطبيعية بين مصر والسودان .

●

ولما اندلعت الحرب العالمية الكبرى عام ١٩١٤ كان على مصر غرم ضخم من مسئولياتها؛فقد وضعت بريطانيا الموانىء المصرية والأراضي المصرية تحت تصرفها. ومنذ ذلك اليوم اصبحت مصر معسكراً للجيوش الهندية التي بـدأت ترد الى مصر ، وأعلنت الرقابة على البرقيات ، واشتدت على الصحف .

ثم اعلنت الحماية على مصر بمنشور جاء فيه : « ان انجلترا ، بالنظر الى حـالة الحرب التي سببها عمل تركيا قدوضعت بلاد مصر تحت حماية جلالته ، وأصبحت من الآن فصاعداً من البلاد المشمولة بالحماية الانجليزية ، وبهذا زالت سيادة تركيا على مصر . وستتخذ حكومـة جلالته كل التدابير اللازمة للدفـــاع عن مصر وحمـــاية اهلها ومصالحها ».

ثم قالت بريطانيافي بلاغها: «اصبح من الضروري الآن وضع شكل للحكومة التي ستحكم البلاد ، بعد تحريرها من حقوق السيادة وجميع الحقوق الاخرى التي كانت تدعيها الحكومة العثمانية. فحكومة جلالة الملك تعتبر وديعة تحت يدها، لسكان القطر المصري ، جميع الحقوق التي آلت اليها بالصيغة المذكورة » .

ومما يذكر ، أن هذه الوديعة التي وضعتها انجلترا تحت يدها لسكان مصر ، لم

تـُردّ اليهم بعد انتهاء الحرب ! وقد عطلت بريطانيا الجمعية التشريعية ، وتدفق الجنود الانجليز على مصر ، وحشدت السلطة العسكرية العمال المصريين حتى بلغ عددهم نيفاً ومليون عامل . وجمـــع الرديف وكان حوالي ١٢ الف مجنـد ، كما جمعت الدواب والمؤن .

وما ان انتهت الحرب العالمية الأولى حتى هبت مصر للمطالبة بحقها، فقاومت بريطانيا هذا الروح الملتهب بعنف ، فاندلعت الثورة التي قمعتها بريطانيا بالحديد والنار، وقابل الشعب هذا العدوان ببسالة وشجاعة، فلم يرهبه رصاص البنادق، وسقط الشهداء مؤمنين بوطنهم وحقهم في الحرية .

وعندما قطع الثوار خطوط السكك الحديدية بدأت بريطانيا بإحراق القرى القريبة من مكان التدمير ، وجردت حملات ضخمة الى المديريات لقمع الثورة . كما أنفذت البواخر النيلية الى الوجه القبلي محملة بالمدافع والقوات والذخائر .

وقد بلغ عدد ضحايا ثورة ١٩١٩ اكثر من الف قتيل و ١٦٠٠ جريـــح من المصريين ، وحكم بالسجن والاعدام على ٣٧٠٠ شخص ، منهم ٤٩ بالأعدام و٣٧ بالاشغال الشاقة المؤبدة . واوقع البريطانيون بالأهالي فظائع لا مثيل لها . ففي العزيزية والبدرشين والشوبك انقض الجنود على البلاد شاهرين أسلحتهم مطالبين الأهالي بتقديم ما لديهم من اسلحة ، ثم اشعلت النار في القريتين . وكانت النيران اذا خبت استعانوا على إشعالها بالبترول. وهجر الناس قراهم .

ولكن رجال السلطة لم يدعوا الناس ينطلقون قبل تفتيشهم وسلب ما معهم من مدخرات، والاعتداء على النساء .ولم ينصرف الجنود البريطانيون الا بعد ان اكلت النار دور القريتين . واستمر عدوان الجنود الانجليز على الاهالي في قرى كثيرة وبلاد متعددة .

وانتهت الثورة بتصريح ٢٨ فبراير – شباط – .

ولكن هل كان معنى هذا أن الاحتلال قد انتهى ؟!

على العكس . فقد حكمت بريطانيا بعد الدستور والبرلمان والأحزاب من وراء الوزراء المصريين الذين كانوا من اعوان الاحتلال .

وفي خلال الفترة الممتدة من عام ١٩٢٤ - ١٩٥٤ ، اي ثلاثين سنة، قاست مصر اهوالاً من الاحتـــلال ، متعاونــاً مع القصر ومع الأحزاب ؛ اذ قبل الحكام المصريون مبدأ المفاوضة مع بريطانيا ،وهو اخطر مبدأ وقع بعـــد ثورة ١٩١٩ ، وكان هزيمة ساحقة لهذه الثورة على يد المدرسة السياسية التي سيطرت على الحكم في هذه الفترة ، والتي امتدت حتى حطمتها ثورة ٢٣ يوليو – تموز – .

وكان اخطر اعمال الاحتـلال في مصر استغلاله للأسطول البريطاني . فما من وزير في مصر يقف موقفاً تشتم منه رائحة المعارضة (لنصائح) المندوب البريطاني حتى يعلن عن تحرك الاسطول البريطـاني صوب المياه المصرية لتهديد الحكام . هنالك يتغير الموقف ، وتترك الوزارة الحكم ، وتسلم الوزارة الجديـدة بمطالب السادة البريطانيين .

ولم يكد يقع مقتل سير لي ستاك، الذي وقع في ١٩ نوفمبر – تشرين الثاني – ١٩٢٤ ، حتى سارعت بريطانيا الى انتهـازه لتحطم القوة المصرية الوطنية . ولم تنتظر حكم القضاء ، ولم تدع للعدالة ان تأخذ مجراها في البحث عن الجناة ، بل توجه اللورد اللنبي الى دار مجلس الوزراء في مظاهرة عسكرية، يتقدمه مائتان وخمسون جندياً بريطانياً من حملة الرماح ، وتبعه مثل هذا العدد ، وقابل رئيس الوزراء في مكتبه مقابلة جافة ، وقدم اليه انذارين محررين باللغة الانجليزية. ثم انصرف عائداً الى دار الوكالة البريطانية.

وضمّن مندوب بريطانيا انذاره كل ما يمكن ان يحشد في انذار : تدفع مصر لبريطانيا غرامة قدرها نصف مليون جنيه. وسحب الجيش المصري من السودان وتحويل الوحدات السودانية التابعة للجيش المصري الى قوة سودانية تكون خاضعة وموالية للحكومة السودانية وحدها . واطلاق يد حكومة السودان في زيادة مساحة اطيان الجزيرة من ٣٠٠ الف فدان، كما كان مقرراً من قبل ، الى مقدار غير محدود .

وأسرعت الحكومة المصرية فاستجابت لمطالب بريطانيـــا دون معارضة . وسارعت القوات البريطانية باحتلال جمرك الاسكندرية. وقدم «سعد» استقالته ،

وجاء « زيوَر » فسلم للانجليز على طول الخط.

وعادت السلطة العسكرية البريطانيـــة الى سياسة الاعتقالات . وصدرت التعليمات من السلطات البريطانية الى وحدات الجيش المصري بالجلاء عن السودان والانسحاب الى مصر . ولما امتنع الجنود عن الجلاء ، اطلق الجنود البريطانيون مدافعهم على ابنيتهم .

●

وجعلت بريطانيا المفاوضة سلاحها المسلول . فما ان تفشل مفاوضة حتى تعود بريطانيا الى احداث انقلاب جديد في مصر ، بتغليب حاكم ديكتاتور متسلط يقمع الشعب ويحطم عزته ويسحق وطنيته .

وقد بدأت هذه المفاوضات في ١٧ يوليه – تموز – ١٩٢٧ بين سعد وملنر ، ثم بين عدلي وكرزن ، وسعد وماكدونالد ، وثروت وتشمـــبرلن ، ومحمد محمود وهندرسن ، والنحاس وهندرسن . ومن المؤسف ان يعارض مصطفى كامل ومحمد فريد في المفاوضة ، فتكون المفاوضة ثمرة ثورة ١٩١٩ . وجاءت معاهدة ١٩٣٦ فأعطت الاحتلال صبغة شرعية . وقد وحدت بريطانيا صفوف الزعماء المصريين ، وتحقق تأليف الجبهة الوطنية . ولم تكن مصر في هذه المفاوضة طرفاً حراً ، لأن القوات البريطانية كانت تحتل اراضيها ، فضلاً عن ان بريطانيا هددت بما يترتب على نتائج رفض تسليم مصر بمطالب بريطانيا ، وذلك في المذكرة الشفوية التي وجهها المندوب السامي البريطاني الى رئيس وزراء مصر والتي جاء فيها :

« ان الاخفاق في عقد اتفاق قد يترتب عليه نتائج جدية ستعطي بريطانيـا الحق في اعادة النظر في سياستهـا نحو مصر ، وان لم يقصد بذلك الى تهديد او ارهاب انما قصد الى تقرير الواقع » .

كما سبقت هذه المعاهدة مظاهرات للشباب في الجامعات ، عقب تصريح صموئيل هور ، وسقط الشهداء صرعى .

وفي عام ١٩٤٦ تجدد الشعور الوطني عقب انتهاء الحرب العالمية الثانيـــة مطالباً بالغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وسقط الشباب صريع المطالبة بالحقوق الوطنية .

وكان الاحتلال في خلال تلك الاعوام السبعين مصدراً للظلم والاستبداد والفساد ، وعاملا من العوامل التي دفعت الحياة السياسية في مصر الى ما وصلت اليه من ذل وجبن وعبودية ، حطمت القوى وشلت الهمم ، وسحقت الشعب وأجاعته وجردته من خيرات وطنه .

وهو الاحتلال الذي صنع الطائفة من الحكام والزعماء الذين تسلطوا بقوته وجبروته لاضطهاد الشعب وسحق مقاومته وخدمة سادتهم الانجليز ، ونقل مصر من الوطنية المجاهدة الى المناورات والمساومات .

واحال الاحتلال الوطنية الى سياسة ، وتدخلَ في اعمال الوزارات وإقامتها واسقاطها ، وفي ٤ نوفمبر – تشرين الثاني – فرض وزارة معينة .

وكان طبيعياً ان يتعاون مع الاستعمار القصر والزعماء ، فقد كانوا جميعاً يحرصون على ابقاء الاقطاع والظلام والاحتلال ، ويخشون الحرية والجلاء .

•

وجاء جمال عبد الناصر وقال كلمته الحاسمة :

« على الاستعمار ان يضع عصاه على كتفه ويرحل ، أو فليقاتل عن بقائه حتى الموت » . واهتز الاستعمار ، وكان هذا طبيعياً . لم تقبل الثورة الاستعمار ، بل سارت في طريق تحرير الوطن غير مترددة .

بدأ جمال عبد الناصر بالقضاء على اعوان الاستعمار في الداخل . كان هؤلاء الاعوان عاملاً فعالا في الحيلولة دون تحقيق الجلاء عن البلاد .

كان المستعمر يثق بأن رجاله ما يزالون في الداخل ، وان هؤلاء الزعماء الذين يتعاونون معه ، لا يملكون اية قوة ترغم الانجليز على الاذعان لرأيهم ، وأنهم لا يمثلون الشعب تمثيلاً صحيحاً ؛ ولذلك فشل كل الزعماء المصريين في تحقيق الجلاء عن مصر خلال ثلاثين عاماً ، انقضت وكلها مناورات ومساومات رخيصة على موائد المفاوضات .

وكان من العجيب ان كثيراً من اعوان الاستعمار هم انفسهم كانوا يمثلون مصر في المفاوضة مع بريطانيا لتحرير مصر .

ولكن الوضع تغير تغيراً كاملاً . لم يكن مكوناً من الساسة القدامى، لم يكن من الذين اغناهم الاستعمار ومنحهم بسخاء من المال والأرض بحيث أصبح اقطاعياً او عاملاً من عماله ، ولم يكن يفهم تلك الاساليب البهلوانية ولا يرضاهـا لنفسه ولا لبلاده . انما وجدوا امامهم رجلاً حازماً واضحاً صريحاً ، عاش حياته منذ فجر شبابه كارهاً للإنجليز بعنف . راغباً في تحرير بلاده .

وقد كافح طويلاً في ميدان المنشية وهو في سن الثانية عشرة ، واشترك في ثورة ١٩٣٦ بعد تصريح هور . وكان إعداده للثورة في خـلال السنوات العشر الاخيرة لا يعني على الاقل الا تحرير مصر من الاستعمار . وكان اداة فعـــالة في حرب فلسطين ١٩٤٨ وحرب القنال سنة ١٩٥٢ .

فهو منذ وعى نفسه كشاب ، اشترك في معركة الكفاح والمقاومة الشعبية ، مؤمناً بحق البلاد الكامل في الحرية، دون تقسيط او التقاء في منتصف الطريق، او مفاوضات او شيء في مقابل شيء : وهي القواعد القديمة البالية التي عرفتها المدرسة السياسية البائدة .

ووجد الاستعمار في عبد الناصر طرازاً جديداً لم يألفه من قبل .

إنه من ذلك الصنف الذي لا يتلهف على المهادنـة ولا يسعى الى الاسترضاء . وهو ليس السياسي المحترف الذي يحرص على الحكم . وهكـذا لم يلق الاستعمار ثغرات مفتوحة يستطيع ان ينفذ من خلالها .

وحدد جمال اهدافه منذ الجلسة الاولى مع الجانب البريطـــاني ... « وقد توالت الجلسات دون ان نتزحزح عن موقفنا الذي لايمكن بأي حال من الاحوال ان نتراجع دونه ، ولم نقبل الدخول في أية تفصيلات » .

وذهب جمال الى مكان الاجتماع ، وقد غمره الشعور بأنه داخل ليملي شروطاً لا ليتلقى اقتراحات . وتكلم جمال فلم يلف ولم يدر .

انحنى الى المائدة وقال كلمته التي لم تسمعها بريطانيا منـــذ ثورة ١٩١٩ الى اليوم : « لا مفر من الجلاء وبدون شروط » .

وانتهى الاجتماع وأعلن جمال الحرب على الاستعمار . وبدأ يجند كتائبه ويعد

قواته ، ويفتح ابواب المعسكرات لتدريب الشباب واعدادهم على مختلف الوان الاسلحة .

وقال جمال : « اننا نحن الذين سنحدد موعد المعركة ومكانها » .

ومضى يحبذ كل شيء في سبيل تحقيق هذا الهدف ، وحدد موعده وتجاهل الانكليز تجاهلاً واضحاً صريحاً . وعلت صيحة الجهاد ودوى نفيره في كل مكان على أرض الوطن ، ومضى الشباب المتطلع الى مجد مصر يضرب النــــار ويقود الدبابة ويحمل المدفع ، وتخرجت افواج عديدة .

ومن الناحية الاخرى بدأ العمل داخل المعسكرات البريطانيـــة نفسها . فبدأت عملية حصار ضخمة وتطويق شاملة . وشنت مصر على الجنود البريطانيين في داخل المعسكرات حرباً سيكولوجية عن طريق الاذاعات والمنشورات .

وامتد هذا النشاط حتى شمل كل مكان داخل الجيش الانكليزي، فروقبت مواصلاته وتليفوناته وقياداته ووحداته ، مما كشف كثـيراً من خطط الانجليز ونواياهم .

كما وقعت انفجارات متعددة في مخازن الذخيرة والمؤن، مما هز الروح المعنوية للجنود البريطانيين .

وقد استمرت هذه الفترة حوالي عام كامل ، أمكن بها خـلاله الاستطلاع والسيطرة على كل معاقل العدو في الداخل لمعرفة نقط الضعف فيها ، ليكون ذلك أساساً للعمليات المقبلة .

ومضت القوة المصرية تعمل على تحطيم الروح المعنوية للعدو، والتفوق عليه في عامل المفاجأة واختبار المكان والزمان لكل نوع من العمليات . كما تم خطف وقتل عدد كبير من افراد الجيش البريطاني خارج المعسكرات ، كذلك تمت عمليات نسف وتسلل ضخمة متعددة .

وبينما كانت المفاوضات دائرة بين بريطانيا ومصر حول مشكلة القنـــال ، وكان الانجليز يحاولون فرض شروطهم على المصريين ، ويستعملون وسائل الضغط المختلفة ، ومن بينها الضغط الاقتصادي للتأثير على جمال ، كان هناك عمل رائع

في صفوف الجيش البريطاني في صورة منشورات سيكولوجية بعيدة الأثر . وكان بعد القاء كل منشور تحدث نوبة من الفزع والذعر داخـــل المعسكرات . وبدأت حركة عصيان ضخمة بين جنود الموريشان (من جزائر موريس) نتيجة لذلك .

كان هذا العمل الضخم بعيد الأثر في تحطيم الروح المعنوية بين الجنود ، ممـــا أدى الى إسراع بريطانيا الى اتخاذ موقف نهائي بالنسبة لحق مصر في الجلاء .

وكان لا بد ان تفعل بريطانيا شيئاً . فقـد فقدت أعوانها في مصر بعد ان سحقتهم الثورة ، وتمرد الجنود في معسكرات جيشها ، وسلح جمـال الجيش ودعمه وقواه .

ورفض جمال ان يدفع شيئاً في مقابل الجلاء . وقال عبارته الخالدة : « إننا لن نوقــع اي اتفاق للدفاع ثمناً لخروج الانجليز . لقد علمتنا التجارب أن التحالف بين القوي والضعيف مثل التحالف بين القط والفأر . ولسنا بعيدين عما حدث عقب محالفة ١٩٣٦ ، فلقد نصت المحالفة على انها بين سيدين متساويين ؛ عوملنا من جانب بريطانيا منذ اليوم الأول لتوقيع المحالفة معاملة المستعمرات البريطانية ، ولا يمكن ان تتكرر المهزلة » .

ولا شك ان جمال عبد الناصر كان يعمل في سبيل هدف عظيم ، هو توحيد الأمة العربية ، ولم يكن ذلك ممكنا قبل ان تتحرر مصر... ولا شك ان جمال قد رد الى المصريين كرامتهم ورجولتهم ورفع رأسهم ورأس بلادهم ، فقد أحسوا بعد سبعين عاماً من الاستعمار البريطاني انهم احرار .

وأعلن أننا جزء من الأمة العربية ..

« اننا عضو في الكيان العربي الكبير . ان هذا الشعب يشعر بوجوده متفاعلا في الكيان العربي الكبير ، ويشعر ايضا ان ما يحيق باي بلـد عربي لا بد ان يؤثر عليه . لقد ارادوا في الماضي ان يفرقونا . وارادوا في الماضي ان يقطعوا اوصالنا . وارادوا في الماضي ان يدسوا بيننا قوميات اخرى ، ولكنا اليوم قد تنبهنا .

لقد انتهت الحرب العالمية الاولى فماذا كانت النتيجة ؟

لقد قسم العرب وقطعت اوصالهم ووزعوا كغنائم واسلاب . ولكن العرب كافحوا وكانوا يتفاعلون في كفاحهم ، وكانت مصر تتفاعل مع العروبة جميعا من اجل تحقيق الحرية بين ربوع العالم العربي جميعا . ولهذا فنحن اليوم حينما نعلن اننا نتفاعل مع الشعوب العربية ونعلن اننـا جزء من الكيـان العربي ، نعلن هذا من اجل مصلحتنا ، ومن اجل مصلحة العالم العربي كله.

لقد حاولوا ان يخدعونا ، وحاولوا ان يضللونا ، وكانوا يقولون لنـا : ما لكم وللعرب . ولكنا اليوم وقد تنبهنا ، لن نخدع ابدا ان الكيان العربي يمتد من المحيط الاطلسي الى الخليج الفارسي : كلنا شعب واحد . شعب عربي واحد . نكافح جميعا متحدين متكاتفين من اجل حقنا في الحرية ، ومن اجل حقنا في الحياة . نكافح جميعا ضد الاستعمار وضد اعوان الاستعمار. لن تقطع اوصالنا مرة اخرى ، كما قطعت بعد الحرب العالمية الاولى .

وبعد الحرب العالمية الثانية ماذا تم وماذا حدث ؟ لقد اغتصبت قطعة من قلب العروبة ، من قلب بلادنا لاننا خدعنا ولاننا تفرقنا . واليوم نحن نعلن عروبتنا الحقيقية ، ونعلن تماسكنا مع العرب جميعا حتى لا يتكرر ما مضى وحتى لا يتكرر ما فات . لقد ضاعت قطعة من ارضنا . لقد محيت قومية العروبة من فلسطين لاننا انخدعنا وتبعنا الاستعمار واعوان الاستعمار .

اننا نعلن اليوم اننا نتكاتف مع العرب جميعا من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي من اجل الحرية ومن اجل الاستقلال ومن اجل الحق في الحياة»

* * *

كان جمال قد أعلن في ٩ ديسمبر – كانون الاول – ١٩٥٢ اسقاط دستور ١٩٢٣ ، بعد ان ثبت له أنه مليء بالثغرات ، وانه لم يعد يتمشى مع النهضة والتطور . والواقع ان هذا الدستور كان موضع النقد من المصلحين طوال الفترة الماضية ؛فقد وضع وفق أسلوب استعماري ،تضافرت عليه قوى الاستبداد الذي كان يمثله فؤاد والاحتلال ، والذي كانت تمثله بريطانيا . ولعله من جميل الذكر ان نسجل ان محمد فريد هو أول من طالب بالدستور بعد الاحتلال ، وقال في إحدى خطبه :

« اسمحوا لي ايها السادة أن أقول لكم إنه المسألة التي نضعها في الصف الاول من اهتمامنا بعد مسألة الجلاء ،والتي بدونها لا يكون ثمة إصلاح حقيقي في البلاد؛ ويكون كل نصرٍ ، تناله الأمة دونها ، من قبيل ذر الرماد في العيون . »

وقد ظل محمد فريد يطالب بالدستور ، واستطاع ان يحصل على ٦٥ الف توقيع على عريضة تطالب بالدستور . وقدمها الى الخديوي في عام ١٩٠٨ مما دعا إلى عقد الجمعية العمومية للنظر في امر الدستور ، فأخذت الحكومة في اتخاذ الاجراءات لمحاكمته ، متهمة اياه بانتقاد الحكومة ، مما أدى إلى هجرته بعد ان كاشفه اصدقاؤه بأن الانجليز والخديو يعملان معاً على التخلص منه .

فلما أعلن استقلال مصر بتحفظات اربع بصدور تصريح ٢٨ فبراير – شباط – ١٩٢٢ ، شكلت في ٣ أبريل – نيسان – ١٩٢٢ ، بمعرفة وزارة ثروت ، لجنة لوضع مشروعه عهدت برئاستها الى حسين رشدي باشا ؛ ولم يشترك فيها الوفد ولا الحزب الوطني . وكان رأيها ان يعهد بوضع الدستور الى جمعية وطنية تأسيسية .

ورفعت اللجنة مشروع الدستور الى عبد الخالق ثروت، رئيس الوزراء ، في ٢١ اكتوبر – تشرين الاول – ١٩٢٢ ، ورفعه ثروت الى السراي . ولكن فؤاداً كان يبغض الدستور ولا يميل الى إصداره ، لانه يغل سلطته ويجعل الحكم في يد الشعب . وقد كان خلال انعقاد جلسات لجنة الدستور متتبعاً أعمالها في غير قليل من القلق ، ناقماً على ماسماه انتقاص سلطة الملك، مطالباً التدخل لتعديلها .

وقد عمد فؤاد الى تنحية ثروت عن الوزارة حتى يعطل الدستور ، وشكل وزارة اخرى برئاسة توفيق نسيم ، فكان اول اعمالها الشروع في مسخ الدستور وادخال تعديلات رجعية على مشروعه . فقد كان نسيم يؤمن بأن الدستور منحة من الملك ، لا حق من حقوق الأمة ، فحذف النص على أن الامـــة مصدر السلطات .وأعطى الملك حقوقاً في إعطاء الرتب والنياشين وتعيين رئيس الشيوخ وإصدار مراسيم لها قوة القانون ،وان الدستور لا يخل بحقوق الملك في الأوقاف .

وقد أدى هـذا التغيير لإرضاء الملك إلى تعديل آخر لإرضاء الانجليز ؛ فقد تقدمت بريطانيا بانذار أبلغه اللورد اللنبي ، المعتمد البريطاني ، إلى الحكومة المصرية ؛ وقد جاء فيه : إنها لا توافق على ذكر السودان في مشروع الدستور ، وادعت وزارة الخارجيــة البريطانية أن المادتين الخاصتين بالسودان في مشروع الدستور تعتبران انكاراً لاتفاقية ١٨٩٩ ، وخروجــاً على تصريح ٢٧ فبراير — شباط — وفصلاً في أمر السودان من جانب مصر وحدها .

وقد سلم المعتمد هذا الرد الى الملك مباشرة وطلب منه الرد ، اما بالرفض او القبول ، في مدى ٢٤ ساعة ، أي عند ظهر ٣ فبراير - شباط - سنة ١٩٢٣ . وقالت الصحف إن الرد تضمن التهديد بالرجوع الى حكم الحماية ، وإعلان إلغاء اتفاقية ١٨٩٩ ،وضم السودان الى انجلترا ؛ كما تلقى الجنود البريطانيون في ذلك اليوم تعليمات معينة . وقد اجتمع الوزراءفي سراي عابدين وقرروا تغيير النص بدلا من حذفه . وتم الاتفاق مبدئياً على انترفع كلمة السودان من لقب الملك .

وكانت المادة ١٤٥ تنص على ان السودان جزء من مصر ، فوُضع بدلا منها (وتطبق قواعد الدستور على مصر بما لا يمس ما لمصر من الحقوق بالسودان) .

وقد كان بالدستور كثير من الثغرات . وفي نصوصه انه منحة من الجالس على العرش . وانه — اي الملك — رئيس الدولة والقائد الاعلى للقوات المسلحة وذاته مصونة لا تمس . وله حق حل مجلس النواب . وله سلطة تعيين الوزراء واقالتهم ، واعلان الحرب واعلان الاحكام العرفية ، ومنح الرتب العسكرية والمدنية والاوسمة .

ولم تجدِ صرخات المطالبين بدستور حقيقي ، وسلمت وزارة نسيم بالمطالب البريطانية ، وأعلن الدستور على هذا الأساس في أبريل - نيسان - ١٩٢٣ .

•

وجاءت الحياة السياسية في مصر برلماناً وحكومة وأحزاباً ، تمثل اضطراب هذا الدستور وتدعي التمسك به ، وترمي خصومها بأنهم خصوم الدستور واعدائه ، وأنهم فرطوا فيه وجنوا عليه . وقد ظل الدستور موضع نقد الأحزاب جميعاً . فقد وصف الوفد لجنة الدستور بأنها لجنة الأشقياء ؛ فلما صدر الدستور وحصل على الأغلبية عام ١٩٢٣ ، قال سعد زغلول : إنه دستور وضع على احدث الأسس العصرية .

ولم يفلح الدستور في رد طغيان فؤاد الذي حل برلمان ١٩٢٥ بعد جلسة واحدة من جلساته ، وعطلت الحياة الدستورية فترة من الوقت الى ان ائتلفت الاحزاب . ولم يمض قليل حتى ولي الحكم محمد محمود في ٢٧ يونيه - حزيران - ١٩٢٨ ، فما ان اختلف مع الوفد حتى عطل الدستور ، وقال إنه سيحكم البلاد بيدٍ من حديد . وكان هذا تحقيقاً لرغبة فؤاد ، الذي كان يكره الدستور اشد الكراهية .

وجاء اسماعيل صدقي سنة ١٩٣٠ ، فألغى الدستور كلية ، واعلن دستوراً جديداً لم يلبث ان فشل في تطبيقه . وعادت المطالبة بالدستور القديم فألغى توفيق نسيم دستور ١٩٣٠ في ٤ نوفمبر - تشرين الثاني - ١٩٣٤ ، دون ان يعيد الدستور الأول ، وعُرف أن الانجليز طلبوا منه ابقاء البلاد بدون دستور .

وتعالت صيحات المطالبة بإعادة دستور ١٩٢٣ ، غير ان الحكومة البريطانية أبلغت مصر ، عن طريق مندوبها ، بأنها لا تعارض في ان تتمتع مصر بالحياة الدستورية في الوقت المناسب ، وهي ترى ان يكون وضعه - اي الدستور - بواسطة لجنة حكومية ، يكون من بين اعضائها ممثلون للأحزاب السياسية المختلفة .

وفي ٩ نوفمبر - تشرين الثاني - ١٩٣٥ ، القى السير صموئيل هور ، وزير

الخارجية البريطانية ، خطبة في قاعة الجلد هول بلندن ، تناول فيها الحديث عن الدستور المصري وصرح بأنه عندمـا استشيرت الحكومة البريطانية في شأنه ، نصحت بألا يعاد دستور عام ١٩٢٣ أو دستور عام ١٩٣٠ ؛ اذ ظهر أن الاول غير صالح للعمل ، والثاني لا ينطبق على رغبات الامة .

وكان مما قال : « إنه لا صحة مطلقاً لما يزعم الزاعمون من اننـا نعارض في عودة النظام الدستوري الى مصر بشكل يوافق حاجتها ، لأننا طبقاً لتقاليدنا ، لا نريد ، ولا نستطيع ، ان نقوم بمثل هذه المعارضة . على اننا عندما استشارونا نصحنا بألا يعاد دستور سنة ٢٣ ولا دستور سنة ٣٠ » .

وقامت مظاهرات دامية على اثر اعلان هذا التصريح ، اشترك فيها جمـال عبد الناصر ، واستشهد من زملائه في المظاهرات محمد عبد المجيد مرسي ، وعبد الحكيم الجراحي ، وطه عفيفي ، وغيرهم ؛ وتكررت المظـاهرات ، وحدث اضراب ضخم يوم ٢٨ نوفمبر – تشرين الثاني – ، واغلقت المتاجر في القـاهرة ، واحتجبت الصحف . وتجددت الفكرة الى توحيد الصفوف لمواجهة هذه الأزمة. ثم أسفرت هذه المساعي المبذولة الى تأليف الجبهة الوطنيـة في ديسمبر – كانون الاول – عام ١٩٣٥ . وكانت بريطانيا ترمي من وراء مناورتها الى عقد معاهدة مع مصر دون ان تعيد اليها الدستور . ولكن هذا الاجتماع كان عاملاً مـن العوامل التي أدت إلى إعادة دستور عام ١٩٢٣ .

واذا كان فؤاد من اشد الناس كراهية للدستور فإن فاروق من أشد النـاس احتقاراً له . فقد جعله ألعوبة ، ولم يكن نص فيه يحول دون مطـامع الملك . وقد اصبح معظم الوزراء وزعماء الاحزاب عبيداً خاضعين له ، يصرفون الأمر طبقاً لما يرى ، ويحورون في تفسير نصوص الدستور على الوجه الذي يرضى بـه «صاحب الجلالة» .

ولم يكن الدستور في يوم من الايام – إلى ان ألغتـه الثورة – إلا نصوصاً جامدة لا حياة فيها ، قد امتهنها القصر والانجليز والاحزاب المختلفة والوزارات المتوالية التي حكمت البلاد . ولو كان منفذا على وجهه الصحيح لما وصلت البلاد

الى ما وصلت إليه من انحدار .

وقد ظلت اسرة محمد علي تكره الدستور والنظم الدستورية ، كما جرى العدوان عليه مرة بعد مرة ارضاء للإنجليز .

●

وإذا كانت مصر قد أقرت النظام الدستوري عام ١٨٧٩ ، فإنها لم تستطع ، لا في المرة الاولى ولا في المرة الثانية عام ١٩٢٣ ، أن تتمتع به وأن تحقق به خيراً . بل كان الدستور في العهد الماضي رمزاً على التلاعب السياسي . وارتبط طويلاً بالمناورات والاضطرابات ، ومسته من قريب وبعيد مظاهر الرجعية والإقطاع ، وطغيان الملك وفساد الحكم ، وتلاعب الأحزاب ، فكان من الطبيعي أن يخلص جمال منه البلاد .

●

وأوفت الثورة بوعدها للشعب ، هذا الوعد الذي قطعه جمال عبد الناصر على نفسه منذ الأول . لقد قال بالنص :

«استطعنا أن نقضي على الاستبداد السياسي ، ونحن نهدف بهذا إلى إقامة حياة سياسية سليمة . لن يكون حكماً حزبياً ولكنه سيكون حكماً قومياً . إن الديمقراطية التي قمنا من أجلها في ٢٣ يوليو - تموز - ديمقراطية سليمة ، نظيفة ، لا تسمح للأجنبي بالتدخل ولا للمستغل بالتحكم . انها ديمقراطية قوية من أجل صالح الأغلبية ، غايتها تحرير الفرد ، وتحرير الرزق .

وفي يناير - كانون الثاني - ١٩٥٦ لن تكون في مصر أحزاب ، بل سيكون هناك برلمان وطني يعمل للوطن وللأغلبية . لا يعمل لرأس المال ولا للاقطاع . أو تحت توجيه أية قوة خارجية : شرقية كانت او غربية . ولكنه يعمل لمصر وحدها . سيكون هناك جيش وطني لحماية هذا الوطن لا لحماية حكم او حكام .»

وصدق جمال ووفى بما وعد وتحقق فى ١٦ يناير - كانون الثاني - ذلك الوعد وأصبح الحكم حقيقة ، وكان يوماً خالداً في تاريخ مصر يضاف إلى أيامها الغر . وكان إعلان الدستور في هذا اليوم تتويج فعلي لكفاح هذا الشعب مدى السنين

والأيام ، كما قال جمال ؛ وإليك عبارته كاملة :

«لقد كافح هذا الشعب سنين طويلة . لم يُسلم ولم يستسلم ، رغم ما قابل من صعاب . لقد كافح هذا الشعب ضد الاستبداد . وضد الاستعباد . وضد السيطرة وضد التحكم . لقد كافح هذا الشعب لينال حقه في الحرية والحياة . فاذا قمنا نحتفل بالدستور ، فإنما نتوج هذا الكفاح . كفاح هذا الجيل وكفاح الأجيال الماضية .

إن الدستور الذي نعلنه اليوم هو نهاية معركة طويلة ضد السيطرة المعتدية الأجنبية ، وضد السيطرة المستغلة الداخلية . وان هذا الشعب كافح طويلاً ضد الاعتداء الخارجي وضد الاستبداد الداخلي . وفي اواخر القرن الثامن عشر ، قام هذا الشعب يطالب بحريته ويطالب بدستوره ويطالب بحقه في الحياة .

قام هذا الشعب وطالب الأمراء المماليك بأن يشترك في حكم الوطن ، وأن يشترك في تصريف أموره ، لكنهم رفضوا . ولكن الشعب أجبر المماليك على أن يطيعوا رغبته واجبرهم على أن يلبوا إرادته . ووقّع الأمراء في أواخر القرن الثامن عشر وثيقة ، بناءً على رغبة الشعب ؛ قالوا في هذه الوثيقة : إن الأمراء تابوا ورجعوا ، والتزموا بما شرطه الناس . وانعقد الصلح على شروط : منها ان يكف اتباعهم عن مد أيديهم الى أموال الناس ، وأن يسيروا في الناس سيرة حسنة .

واطمأن الشعب ، وخدعه الأمراء فعادوا سيرتهم الأولى مرة اخرى ليستبدوا بإرادته وحريته ، فاستبدوا وسيطروا وتحكموا .

ولكن الشعب لم يستسلم ، وكافح كفاحاً مريراً طويلاً ، من أجل الحرية التي نادى بها ، ونادى بها اباؤه وأجداده . واستمر في الكفاح والنضال حتى كانت سنة ١٨٠٥ حينما كافح ضد سيطرة الوالي التركي ، وطالبه بان يشترك في حكم نفسه بنفسه ، وطالبه بان يقيم دستوراً ليدير به شئون البلاد . ولكن الوالي التركي قال : انني الوالي انا ، ولا يمكن أن أعزل الا بأمر من السلطان ، ولا يمكن ان اعزل بأمر الفلاحين .

وكانت الوثيقة تقول : ان للشعوب ، طبقاً لما جرى به العرف ولما تقضي به أحكام الشريعة ، الحق في ان يقيموا الولاة ، ولهم ان يعزلوهم اذا انحرفوا عن سنن العدل ، وساروا بالظلم ، لأن الحكام الظالمين خارجون عن الشريعة .

وعزل الشعب الوالي وأقام محمد علي كحاكم جمهوري ، ولا بأس ولا ملامة على الشعب إن نكث محمد علي بالعهد ، فليس هو أول من خان العهود . لقد ولى الشعب محمد علي على الولاية بإرادته . ولكن محمد علي استبد وطغى ، وصمم على ان يحكم ، سواء أكان حكمه من ارادة الشعب أو ضد ارادته ، فاستمر الشعب في نضاله وكفاحه من اجل حقه في الحياة والحرية .

وقام عرابي سنة ١٨٨١ وطالب الخديو بأن يحقق للشعب حريته ، وبأن يحقق للشعب حقه في الحياة . قام عرابي وهو ينادي بما ينادي به الشعب . طالب بالدستور وحق الشعب في أن يقر الضرائب والقوانين ، ولكن الخديو رفض واستعان بالقوة الأجنبية فكان الاحتلال .

ولكن الشعب لم يستسلم ولم يسلم . ولكنه كافح بعزم وإيمان ، لا ضد السيطرة المستغلة الداخلية فحسب . ولكن ضد العدوان الخارجي وضد السيطرة الداخلية . واستمر الشعب رغم المآسي ورغم العذاب ، ورغم ما قاسى من ضروب الأهوال ومن ضروب المقاومة ، استمر يحارب ويكافح ، ويناضل بعزم وصبر وايمان ، وقامت الثورة الكبرى سنة ١٩١٩ بعد كفاح طويل ضد العدوان الخارجي وضد السيطرة الداخلية . تطالب بالدستور الذي يعلن حق الشعب في الحياة وفي الحرية . وكافح الشعب واستشهد من ابنائه من استشهد ، وسجن من سجن ، وعذب من عذب ، ولكن ارادة الشعب انتصرت في عام ١٩٢٣ بإعلان دستور ١٩٢٣ .

وأعلن دستور ١٩٢٣ فأطمأن الشعب . وآمن بأن هذه الوثيقة التي أعطيت له منحة من الملك سترتب له الحق في الحياة والحرية . ولكن هذه الوثيقة المكتوبة لم تغن الشعب شيئاً . فاستمر يكافح أيضاً مرة اخرى . استمر يكافح مرة اخرى كفاحاً طويلاً . فإن الدستور الذي اعلن سنة ١٩٢٣ كان دستوراً

استخدمت بواسطته كل الوسائل التي تتحكم في هذا الشعب .

دستور ١٩٢٣ اقر الاقطاع والسيطرة والتحكم والرشوة . انهم اعتبروا الدستور وثيقة شرعية يثبتون بها الاقطاع والرشوة والفساد والاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي . واتخذ الاستعمار من هذه الوثيقة وسيلة حتى يمكّن لنفسه في هذا الوطن ، في ارض الوطن .

ان المواطنين الذين اطمأنوا في عام ١٩٢٣ للدستور ، اطمأنوا ولكنهم لم ينخدعوا ولم يسلموا ولم يستسلموا . فكافحوا كفاحا طويلا مريراً من اجل حقهم في الحرية والحياة . حتى قامت ثورة ٢٣ يوليو – تموز – لتحقق للوطن حقه في الحرية وحقه في الحياة .

وأعلنت الثورة في اول يوم من ايامها انها تهدف الى اقامة حياة دستورية سليمة لهذا الوطن . اعلنت هذا من اول يوم قامت به ، وهي لم تعتبر ان الطريق سهلة ، ولكنها قابلت طريقاً شاقة وصعبة ، لأنها قررت الا تخدع او تطمئن . فقابلت الحكام وقابلت الأمراء . واصطدمت الثورة مع الحكام والأمراء ، لأنها كانت تتسلح بالشك . ولم تستكن الى الاطمئنان والثقة . ولكنها اخذت من الماضي عظة وعبرة ، وتسلحت حتى تقضي على جميع الاسباب التي يمكن ان تسير بهذه الثورة الى الانحراف . ولهذا اعلنت فترة انتقال لمدة ثلاث سنوات ، تهدم فيها الفساد والاستغلال والاستعباد . واليوم انتهت هذه الفترة وحقق للوطن ما حقق . لقد انتصر الشعب في هذه السنوات الثلاث على الرجعية والاقطاع والاستعمار والاستعباد والاستغلال ، فكانت فترة هدم وتصفية » .

وقال جمال عبد الناصر : « ان الدستور اليوم هو بداية الكفاح . انه يرسم الطريق الى غرضنا الاكبر ، هو تعبئة كاملة لأبناء هذا الشعب . وهو ليس وثيقة تنسى ولا وثيقة للخداع والتضليل » .

وكان لا بد أن يرد جمال للشعب حقه في الدستور ، فيصدر باسم الشعب بعد ان كان في الماضي (منحة ملكية !) ... وكان لا بد ان يحطم جمال كل قيد جديد في سبيل بناء الامة العربية فيصدر دستور الشعب وفي صدره مادة اولى :

« مصر دولة عربية مستقلة ذات سيادة . وهي جمهورية ديموقراطيـــة . والشعب المصري جزء من الامة العربية » .

وقد شرح جمال معنى هذه المادة فقال :

« اننـــا اذا اخذنا من التاريخ عبرة نشعر ان موقع بلادنا كان دائماً سبباً رئيسياً وعاملا اساسياً من عوامل العدوان الخارجي . اننا نشعر بأهمية موقعنـا واننا نشعر بخطورة موقعنا . اننا نشعر بأهمية المكان الذي خلقنا فيه في ملتقى البحار والقارات . ولهذا فاننا حينما نتجه الى الماضي نجد اننا يجب ان نتقوى ، ويجب ان يكون لنا من قوتنا ما يحمينا ضد العدوان الخارجي . كما يجب ان يكون لنا من عزيمتنا ما يحمينا ضد الاستبداد وضد الاستغلال الداخلي .

ولهذا فاننا نشعر ايضاً اننا عضو في الكيان العربي الكبير . ان هذا الشعب يشعر بوجوده متفاعلا في الكيان العربي الكبير ، ويشعر ايضاً ان ما يحيق بأي بلد عربي لابد ان يؤثر علينا .

لقد ارادوا في الماضي ان يفرقونا . وأرادوا في الماضي ان يقطعوا اوصالنا . وأرادوا في الماضي ان يدسوا بيننا قوميات اخرى . ولكننا اليوم قد تنبهنـا ، ولكننا اليوم سنأخذ من الماضي عظة وعبرة .

ولهذا فنحن اليوم حينما نعلن اننا نتفاعل مع الشعوب العربية ، ونعلن اننا جزء من الكيان العربي ، نعلن هـذا من اجل مصلحتنـا . ومن اجل مصلحة العالم العربي كله .

ان الكيان العربي يمتد من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي . كنـــا شعب واحد . شعب عربي واحد . نكافح جميعاً متحدين متكاتفين من اجل حقنا في الحرية ومن اجل حقنا في الحياة . نكافـــح جميعاً ضد الاستعمار وضد اعوان الاستعمار ، لن نقطع اوصالنا مرة اخرى كما قطعت بعد الحرب العالميـة الاولى .

واليوم نعلن عروبتنا الحقيقية ، ونعلن تماسكنا مـع العرب جميعا حتى لا يتكرر ما فات . لقد ضاعت قطعة من ارضنا . لقد محيت قومية العروبـة في

فلسطين لأننا انخدعنا ولأننا تبعنا الاستعمار ، وتبعنا اعوان الاستعمار . وكانوا يقولون هنا في مصر : ما لكم وللعرب ... وكانوا يقولون للبلاد الاخرى : ما لكم ولمصر ... »

وأمّم القنـــال ..

« قناة السويس التي ضحينا فيها قناة مصرية .. شركة مصريـة ، اغتصبت بريطانيا حقنا فيها،وما زالت بريطانيا من وقت افتتاح القناة تتلقى الفوائد والجميع يأخذون ، ومع ذلك فهي شركة مساهمة مصرية ، ان دخل القناة ٣٥ مليون جنيه اي ١٠٠ مليون دولار ، تاخذ منها مصر التي مات من ابنائها ١٢٠ الف عامل ، مليون جنيه اي ٣ مليون دولار ، الشركة التي قامت حسب العرفان من اجل مصلحة مصر ، والدخل يذهب لها طبعا ، العيب ان تمتص دماء الشعوب لا ان تقترض من اجل البناء . اننا لن نكرر الماضي ابدا ، ولكن نستعفي عليه ، ستعاد حقوقنا في قناة السويس .

هذه القناة ملـك لمصر فهي شركة مساهمة مصريـة حفرت بواسطة المصريين . ١٢٠ الف مصري ماتوا اثناء حفرها ، هذه الشركـة التي مقرها باريس ، مغتصبة مثل دي لسبس ، مثل بلاك عندما جاء . سنبني السـد العالي وسنحصل على حقوقنا . سنبنيه كما نريد وسنصمم على هذا وان ٣٥ مليون جنيه كل عام تاخذها شركة القناة سنأخذها نحن .

مائة مليون دولار تحصلها القناة كل سنة ، سنحصلها نحن لمنفعة مصر ، ولهذا ، ونحن اليوم حينما نشرع في بناء السد العالي ، فاننا سنبني ايضا سد العزة والحرية والكرامـة . ونقضي على سدود الذل والهوان ، وقـد وقعت اليوم ووافقت الحكومة على القانون الاتي :

قرار من رئيس الجمهوريـة بتاميم الشركة العالمية لقنـاة السويس باسم الامة : رئيس الجمهورية مادة (١) تؤمم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية ، الى شركة مساهمة مصرية وينتقل الـى الدولة جميع ما لهـا من اموال وحقوق وما عليها من التزامات . »

*** ***

كان من أهم المواقف الخطيرة التي تعرض لها جمال عبد الناصر، كقائد ثورة، هو تأميم قناة السويس باسم الأمة في ٢٦ يوليو – تموز – ١٩٥٦ .

وقد جاء هذا العمل الحاسم الخطير الذي يمثل جانباً واضحـــاً من شخصية الرئيس ناصر رداً على سحب حكومة الولايات المتحدة لمشروع تمويل السد العالي بصورة مثيرة .

ولكن هل كان هذا نتيجة سريعة لهذا الموقف ، ام أن جمال عبد الناصر قد فكر في هذا المشروع وقدره ؟

يجيب على هذا ما قاله جمال عبد الناصر في ١٧ نوفمبر ـ تشرين الثاني ـ ١٩٥٤ ، وقبل تأميم القناة بعامين تقريباً : « ان من يستعرض الأحـــداث التي عاصرت انشاء برزخ السويس ، وتلك التي صاحبت هذا الانشاء ، لا يفوته ان يدرك ما كان للقناة من اثر خطير في تاريخ بلادنا ، جعلت منه تاريخاً حافلاً بالعبر مليئـاً بأليم الذكريات .

الم تدفع مصر في هذا الطريق العالمي للملاحة ثمناً غالياً . . ألم تهدر حقوقها في تلك الفترة من تاريخها . . ألم تكن القنـاة من الاسباب الرئيسية التي دفعت بالاستعمار الى احتلال بلادنا بعد ان بيعت اسهم مصر فيها بأبخس الاثمان ... ألم يتخذ الاستعمار من القناة ذريعة يسوغ بها بقاء الاحتلال ... ومن الدفاع لربط مصر بعجلته ؟...

ذلك عهد احمد الله اننا سجلنا نهايته وانقضاءه باتفاق الجـــلاء . ووالله ما كان لهذا العهد ان ينقضي لولا المشقة ، ووالله ما انقضى إلا بفضل كفاحٍ مريرٍ استغرق من الأجيال ثلاثة . كفـــاح بدأه اجدادنا وحمل شعلته آباؤنا . واوقد جذوته شبابنا .

واذا كان لهذا الجيل وهو يؤدي التحية للأجيـــال السابقة . ان عبّدت له الطريق ، اذا كان له ان ينظر الى حاضره بعين مستبشرة ، فلن تقر عينـه بالمستقبل الا اذا اشهد الله على ان يقوم في الحاضر بمسؤولياته كاملة قبل الأجيال القادمة .

لقد كانت مصر للقناة ! ذلك هو الماضي ...
ولم تعد مصر للقنـاة ! ذلك هو الحاضر ...

وسوف تكون القناة لمصر ذلك هو المستقبل .»

الى أي حد يمكن ان تعطي هذه الكلمات ما يدور في خلد جمال ، وما يدبره لتحرير هذا المرفق من مرافق الوطن الهامة ؟..

كان لا بد ان يقرأ عبد الناصر القصة من أولها يوم أعطى سعيد امتياز القناة الى صديقه فردناند دليسبس بقفزة حصان، فقد لفت أنظار رجال سعيد بمهارته في ركوب الخيل فأعجبوا به .. وكان هـذا الاعجاب من عوامل نجاحه في الحصول على امتياز حفر القناة .

حصل دليسبس على امتياز بتأسيس شركة عامة لحفر القناة في ٣٠ نوفمبر – تشرين الثاني – سنة ١٨٥٤ واستثمارها لمدة ٩٩ سنة ، ابتداء من فتح القناة للملاحة . وجمع دلسبس من الماليين حصص التأسيس للشركة ، وجعل قيمة الحصة ٢٠٠ جنيه ، وعرض اسهم الشركة للاكتتاب العام في باريس فغطيت عدة مرات ، وجعل رأس مالها ٨ ملايين من الجنيهات موزعة على ٤٠٠ الف سهم .

واكتتبت مصر بـ ١٧٧٬٦٤٢ سهماً ، أي ما يقرب من نصف مجموع الاسهم بمبلغ ٣٬٤٢٦٬٠٠٠ جنيهاً .

وتنازلت مصر للشركة مجاناً عن جميع الأراضي المملوكة لها والمطلوبة لإنشاء القناة الملحة وترعة المياه العذبة وتوابعها. وخولت للشركة حق انتزاع الأراضي المملوكة للأفراد مما ترى لزومها لإجراء الأعمال والانتفاع بالامتياز في مقابل ان تدفع الشركة لأصحابها التعويضات .

وقد كان انشاء القناة حلقة من حلقات السخرة التي عرفتها مصر على نطاق واسع في عهد حكم محمد علي وأولاده ؛ فما أن اعلن عن انشاء القناة حتى اخذ الملتزمون يطوفون بالقرى والبلاد ، يسوقون امامهم شباب مصر سوقاً الى السويس .

وكان هذا الشباب يعمل في حفر القناة اكثر من اثنتي عشرة ساعة في اليوم تحت الشمس المحرقة ، وفي زمهرير الشتاء ، ودون ان يقدم له غذاء كاف .

وقد أشار الرئيس جمال في خطابه التاريخي الى ان ١٢٠ الفاً من العمال

المصريين ماتوا اثناء عملية الحفر . وقد سجل لهم المؤرخون الأجانب صفحة من صفحات المجد والفخار ، حتى ان المؤرخ « ارنولد ولسون » اعترف بفضل هؤلاء الضحايا . وقال : « ينبغي أن يقام لهم تمثال من المرمر الشفاف كتمثال الجندي المجهول . وقد جحدت الانسانية فضلهم كما جحدت العناء الذي لاقوه » .

والمعروف ان العمال المصريين الذين حفروا قناة السويس قد جمعوا قسراً وفق أسلوب السخرة المشئومة وقد بدأ العمل في حفر القناة في ٢٥ ابريل - نيسان - ١٨٥٩ ، اذ ضرب اول معول في الارض التي تجري فيها القنـــاة قريباً من بور سعيد . وكانت هذه المنطقة بالذات بعيدة عن الزاد والماء . وكانوا ينقلون المياه على ظهور الجمـــال . وقد مات الكثيرون من الذين لم يستطيعوا الحصول على جرعة ماء .

وكانت اليد العاملة تجمع من القرى والبـلاد قسراً وتساق بالقوة . وكانت الأسر تبكي ابناءها الذاهبين ، موقنة أنهم لن يعودوا . وكان الاختيار قائماً على اساس تقديم الشباب القوي دون الضعيف . فاذا كان هذا الإجراء قد استمر حوالي عشر سنوات ، وإذا تصورنا أيضاً ان عدد العمال الذين كانوا يُقدَّمون شهرياً قد بلغ ثلاثين ألفاً ،وأن مثل هذا العدد يكون في طريقه الى القناة ،ومثله في طريق العودة ، امكننا ان نقدر ما اصاب الأسر والزراعة المصرية من الضرر والخسارة بسبب تغيب هذا العدد الضخم عن العمل الزراعي في بـــلد لا يكاد تعداده في تلك الفترة يبلغ خمسة ملايين من الانفس .

ومن الجدير بالذكر أن الشركة كانت قد تعهدت في أول الأمر بتشغيل ماكينات ضخمة في حفر القناة . وقالت إنها لن تكون في حاجـة الى أكثر من ٤ آلاف او خمسة آلاف عامل . ولكنها وجدت بعد ذلك - نظراً للتسلط من جانبها ، وضعف الرقابة من جانب مصر - أن في السخرة ما يغنيها عن استعمال الماكينات.

واشار ملحق الفرمان الخاص بتشغيل الفلاحين الى أن الشركة تدفع للفلاحين أجراً عن عملهم يتراوح بين قرش ونصف وثلاثـــة قروش في اليوم الواحد ، وبالرغم من ضآلة هذا الأجر الذي لم يكن يتكافأ مطلقاً مـــع العمل الذي يؤديه

العمال ، فإن العمال لم تصل اليهم هذه الأجور وضاعت بين المتعهدين والشركة . هذا فضلا عن ان العمال كانوا يدفعون من جيوبهم أجر عودتهم الى بيوتهم وكانت تزيد عما تناولوه من اجور .

وقد اضرب العمال عدة مرات مطالبين بأجورهم، ولم يكن لهذا الاضراب من نتائج سوى ان يضربوا مرة اخرى بالسياط ، كما ضربوا في حالة استقدامهم من بلادهم وقراهم بالقوة . وقد سجلت الوثائق ان الشركة طلبت من الحكومة تأديب هؤلاء المطالبين باجورهم .

وقد حدث هذا في نفس الوقت الذي كان العمال الاجانب يحصلون على أجور ضخمة . وكانوا بمثابة رؤساء ومشرفين على العمال المصريين . حتى أن بعض المؤرخين اشار الى ان القناة كانت ينبوعاً لثراء العمال الأجانب . وكان دي ليسبس شديد التحسس للسخرة ، وقد رفض اكثر من مرة وقف اعمالها . كما سجلت الوثائق المحفوظة في مقر شركة القنال السابقة في باريس أن العمال المصريين كانوا يضربون بالسياط . وان من مات منهم اثناء العمل كان يدفن تحت التراب الذي يخرجه معوله ، وانهم لم يحفروا القناة فحسب ، بل حفروا ايضاً ترعة القناة الحلوة ، وأقاموا المباني والمساكن الخاصة بالمهندسين .

وقد اقتضت أعمال شق القناة حفر ونقل ٧٢ مليون متر مكعب من الأتربة والرمال ، كما ان ملء البحيرات المرة قد استغرق خمسة شهور اذ بلغ مسطحها ٥٠٠ مليون متر مكعب .

وشهد المهندسون ، الذين اشرفوا على العمل ، أن الصلصال كان يحتوي على مادة فسفورية محرقة ومميتة .

وكانت الشركة تغري العمال المساكين بالتعرض للموت بمزاولة هذا العمل نظير منحهم شيئاً من البصل والارز والعسل .

وقد انتشرت الكوليرا والحمى التيفودية بين العمال الذين لم يتعودوا مناخ منطقة السويس ، ثم انتقلت منهم إلى بلادهم ففتكت بالاهالي فتكاً ذريعاً . وسجلت أقلام ذوي الضمائر الحرة ، ممن عاصروا حفر القناة ، أرقام

الضحايا ؛ وبعضهم قال : ان الذين ماتوا من الفلاحين المصريين بلغ مائة الف ؛ ومنهم من ذكر ضعف هذا الرقم .

أما أطباء الشركة فقد كانوا ينشرون بيانات مطمئنة عن صحة العمال .

●

وقد استدان سعيد أول قرض ثابت عام ١٨٦٢ ومقداره الاسمي : ٣،٢٤٢،٠٠٠ جنيهاً انجليزياً بفائدة ٧ في المائة ، أي ان قيمته الحقيقية ١١،١٦٠،٠٠٠ جنيهاً . ثم زادت هذه الديون في عهد اسماعيل حتى وصلت ٩٩ مليون جنيه .

وكان هذا اول خطر من أخطار القناة واثرها على حرية مصر ومكانتها .

فقد كان الارتباك المالي الناتج عن الديون سبباً في التدخل الاوروبي ، ومقدمة للاحتلال ؛ فلما جاء اسماعيل ملأ خياله املا كاذباً ، هو ان يقال عنه (فاتح القنال) . وقد رأى ان يفاوض الشركة في تخفيف بعض الشروط . فماذا كانت النتيجة ؟

كانت ضد مصر . فقد قبل تحكيم نابليون الثالث فكان هو الخصم والحكم ؛ فألزم مصر بدفع تعويض للشركة قدره ٣،٣٦٠،٠٠٠ جنيه فظلمت مصر على يد اسماعيل ظلماً لا حد له .

ولكن هل وقف الامر باسماعيل عند هذا الحد ؟..

لقد أضاف اسماعيل إلى صفحاته السود ، صفحة اخرى، بان باع حصة مصر من أسهم القناة ؛ فقد ابى اسراف اسماعيل الا ان يحرم مصر من هذه الثروة الضخمة .

لقد باع هذه الاسهم لبريطانيا بثمن بخس قدره ٤ ملايين من الجنيهات الانجليزية .

واشترت بريطانيا اسهم مصر بأسلوب اقرب الى السرقة مقابل ٩٢ مليوناً من الفرنكات . ثم باع اسماعيل حصة مصر في ارباح القناة وهي ١٥ في المائة مقابل ٨٨٠ الف جنيه وتبلغ قيمتها الآن ٢٠ مليون جنيه .

وكان لقناة السويس دور هام في ثورة عرابي ، فقد ظل الانجليز يناوشون عرابي في كفر الدوار حتى لا يضع في تقديره أنهم سيهاجمون مصر من الناحية الشرقية .

وفي غمرة هذه المعارك اقتحمت السفن الحربية القناة عند بور سعيد في ٢٦ يوليو – تموز – ١٨٨٢ ، والقت مراسيها على بعد ٨٠٠ متر من الاسماعيلية .

ولقد وصل دلسبس الى الاسكندرية عندما خشي ان تقوم مصر بردم القناة ، وأرسل إلى عرابي يقول انه ضامن ومتكفل بمنع الانكليز من اختراقها ما دام فيه عرق . ولكن عرابي لم ينتبه الى خداع دلسبس إلا في اللحظة الاخيرة ؛ وما كاد يرسل امره بردم القناة حتى كان الانكليز قد اقتحموها .

●

ثم عملت بريطانيا بعد الاحتلال على مد امتياز قناه السويس الذي ينتهي عام ١٩٦٨ ، أربعين عاماً اخرى تنتهي عام ٢٠٠٨ .وهي فكرة أرادت بها بريطانيا الإبقاء على نفوذها في مصر إلى أطول وقت ممكن . ففي اواخر عام ١٩٠٩ ، قدم مشروع لمد امتياز القناة لقاء ٤ ملايين من الجنيهات للحكومة وجانب من الارباح .

وقد تمكن «محمد فريد» من الحصول على نسخة من المشروع في اكتوبر – تشرين الأول – ١٩٠٩ فنشرها في اللواء ، فأحدث ذلك ضجة كبرى . وقد اضطرت الحكومة الى تقديم المشروع الى مجلس شورى القوانين في ٩ فبراير – شباط – ١٩١٠ برئاسة حسين كامل ، الذي افتتح الدورة بخطبة دعا فيها الى معاضدة المشروع ، وأمكن الحصول على قرار بأن رأي الجمعية في هذا القرار قطعي . وقدمت الحكومة الى اللجنة التي اختيرت لدراسة المشروع تقريراً مطولاً تبرر فيه قبولها له .

وحددت جلسة ٤ أبريل – نيسان – ١٩١٠ للمناقشة ، فدافع عنه سعد زغلول وزير الحقانية دفاعاً حاراً . وعارضه اغلب الأعضاء وقاطعوه اكثر من مرة . ووقفت طوائف الشعب خارج قاعة الاجتماع تهتف ضد المشروع ومؤيديه.

وفي معاهدة ١٩٣٦ ، حرصت بريطانيا على ان تحتفظ بقوات عسكرية في منطقة القنال ؛ ولهذا تضمنت المادة الثامنة منها ما يفيد هذا المعنى . وقد كان هذا في حقيقته مخالفة صريحة لاتفاقية الآستانة ، التي تجعل من حق مصر ، وحدها الدفاع عن القناة وما يتعارض مع حياد القناة .

ثم تغير الموقف كثيراً بعد الثورة .

بدأ جلاء القوات البريطانية عن القناة ، وأصبحت القناة في حماية القوات المصرية ، وكان على مصر أن تنتظر حتى يوم ١٦ نوفمبر - تشرين الثاني – ١٩٦٨ .

ولكن هل كان هذا ممكناً ؟.. وهل كان من المتوقع ان تسلم القناة لمصر في هذا الموعد ؟..

لقد كشف جمال عبد الناصر أن هناك مؤامرة تدبر لإفساد تحقيق هذا العمل في موعده ، فأخذ في يده – كما هي عادته دائماً – عنصر المبادأة ، وأمّم القناة .

لقد كان جمال يعرف ان تأميم القناة خطوة لا بد منها في سبيل تحقيق الأمل الكبير : توحيد الأمة العربية . وكان يعرف ان هذا العمل الضخم ، لن يمر بدون فرقعة ضخمة وأحداث ... ولكنه كان لها ثابت الجنان ، قوي الإرادة ، مؤمناً بالله ، واثقاً بالنصر ...

وهذه الدنيا ..

« ان الطريقة التي انسحبت بها امريكا من مشروع تمويل السد العالي كانت طريقة تدل على الغيظ . كان في امكانهم ان ينسحبوا بهدوء من غير فرقعة . ولكنهم شاءوا اهانتنا بطريقة لا داعي لهـا . كان في امكانهم ان يقولوا لنا : متأسفون ، لن نساهم في تمويل السد العالي . وكنا نقول لهم : شكرا على اي حال . ولكنهم لم يختاروا ذلك الطريق . اختاروا اسلوبا مليئا بالغيظ كما قلت لك . ولم يكن احد ليتوقع منا ان نخر على اقدامنـا نطلب الرحمة .

انني اعتقد عموما انني كنت متحملا وصبورا ومعتدلا بما فيه الكفاية ، ولكن مسألة قناة السويس كانت ضربة موجهة الى شخصي ، والى مصر ، والى جميع الدول الصغيرة ايضا، واذا لم نرد علىهذه الضربة وجه الينا كثير مثلها ، ولذلك كان ردنا على هذه الضربة دفاعا عن كرامتنا وحكومتنا . واذا وجهوا الينا ضربة اخرى فانني اقول بكل صراحة : اننا سوف نرد عليهم ، والعين بالعين والسن بالسن »

* * *

لقد كان إعلان تأميم قناة السويس، رداً حاسماً على مسرحية مستر « دلاس» التي سحب بها قرض تمويل السد العالي على اثر عودة جمال عبد الناصر ونهرو من اجتماعهم الثلاثي في بريوني برجل الحياد الثالث : « تيتو » .

وقد أعلن « دلاس » سحب قرض تمويل السد العـــالي بأسلوب مسرحي ، أراد به توجيه ضربة إلى حركة التحرر التي يقودها جمال عبد الناصر ، ولكن عبد الناصر كان يعرف كيف يرد الضربة بأقوى منها وأعنف .

ومنذ أذيع هذا الخبر والدوائر السياسية في العالم كله باتت تتوقع حدثاً ضخماً، وتتكهن بالعمل الضخم الذي سيقوم به ناصر. ولكن المراقبين السياسيين كانوا ينتظرون تصريحاً خطيراً وعملاً حاسماً في احتفال (٢٦ يوليو – تموز – ١٩٥٦) الذي سيخطب فيه الرئيس عبد الناصر بميدان المنشية بالاسكندرية .

وسبقت الاشاعات ترسم صورة وأخرى وثالثة ، ولكن لم يكن احد يتوقع أن تكون الضربة الحاسمة هي تأميم قناة السويس .

وقبل اللحظة الحاسمة في مساء ٢٦ يوليو – تموز – بيوم وقف جمال عبد الناصر في حفل افتتاح خط انابيب البترول ، وقال كلاماً فيه رائحة الثأر :

« لا نلتفت الى الخلف ، لا نلتفت الى الوراء ، لا نلتفت الى الحاقدين ولا الى المستعمرين .. لن نلتفت الى غيظهم ، ولا الى طغيانهم . لأننا نؤمن بأنفسنا ونؤمن بعزتنا ، ونؤمن بمصر .. فإذا قامت في وشنطون ضجة تعلن ، وقد تجردت من الحياء ، تعلن كذباً وخداعاً وتضليلاً ان الاقتصاد المصري يدعو الى الشك ، إنني انظر اليهم وأقول : موتوا بغيظكم . فلن تستطيعوا ان تتحكموا في مصر ، ولن تستطيعوا أن تستبدوا بنا ، لاننا نعرف طريقنا . طريق الحرية . طريق الشرف . طريق العزة . طريق الكرامة .

والرد الذي نقوله لهم على هذا الكلام اليوم – وهو غير الرد الذي سأقوله لهم يوم الخميس – إننا ، نحن الاثنين والعشرين مليوناً ، لن نمكن اي مستعمر او اي مستبد من السيطرة علينا سياسياً او اقتصادياً او عسكرياً . لن نمكن القوة ولن نمكن الدولار . اننا اليوم اشد ايماناً وعزماً وصلابة . »

وهكذا كان يوم الخميس حاسماً . بدأ جمال خطابه هادئاً كعادته متسلسلاً على طريقته التعليمية الرائعة . وقطع اكثر من ساعة يتكلم .. دون ان يصل الى الخطوة الحاسمة ، والنفوس في قلق ، وترقّب .. ثم لم يلبث ان اعلن تأميم القناة على ذلك النحو المثير الذي هز الجماهير . وفي نفس الوقت الذي كان جمال عبد الناصر يلقي خطابه كانت الايدي القوية تدفع باب شركة القناة وتضع يدها على كل شيء وتسيطر على المرفق سيطرة كاملة .

وطيرت وكالات الانباء الخبر الى مختلف نواحي العالم ، وكان ذلك ليلاً ؛ وذهب جمال ليأوي وقد أزاح من فوق صدره عبئاً ثقيلاً ، ورد الضربة بأعنف منها ؛ ولكن رؤساء الوزراء وكبار الساسة في اوربا وامريكا ، الذين كانوا قد غرقوا في النوم ، لم يلبثوا أن سمعوا اجراس بيوتهم وتلفوناتهم تدق في عنف وموالاة ، ومجالس وزرائهم تلتئم في هذا الوقت المتاخر من الليل ، لتلبث ساهرة حتى الصباح تدرس امر الصاعقة التي صبت على رؤوسهم ، وتواجه هذا الامر الخطير الذي قام به جمال عبد الناصر .

ولم تطلع شمس يوم الجمعة ، حتى كان اسم ناصر وتأميم القنال هو المانشت الأول لجميع صحف العالم من اقصى الشرق الى اقصى الغرب . ولبث جمال عبد الناصر هو السطر الاول في هذا المانشت في جميع صحف العالم بلا استثناء خلال شهور اغسطس وديسمبر واكتوبر ونوفمبر ـ آب وايلول وتشرين الأول وتشرين الثاني ـ حيث وقع العدوان في نهايته .

كانت هذه الصحف تتحدث عن عمل عبد الناصر الخطير الجريء على حسب وجهة نظرها : فصحف الاستعماريين كانت تهاجم بعنف ، وكانت تلفق التهم وتكيل الاكاذيب والادعاءات ، وتلقي بالتهديدات والتوعدات . اما باقي صحف العالم فكانت تناصر خطوة ناصر الجريئة وتؤيد مصر ، وتقف في صف حق الأوطان في تأميم مؤسساتها الضخمة لمصلحتها الوطنية والاقتصادية .

ونادى جمال بأعلى صوته : «انجلترا لا دخل لها بنا . ولماذا تعمل انجلترا هذه الضجة ؟.. هل تعتقد أننا جزء من التاج البريطاني ، او أننا تابعون للاستعمار البريطاني ؟. »

وبدأت إذاعات العالم تسير في نفس الطريق ، كانت هناك بضع عشرة دولة ، هي التي تحمل لواء الصراخ العنيف ، هي فرنسا وبريطانيا والدول التي تسير في ركابها ؛ وامتلأت الدنيا بالدويّ ، واهتز العالم ..

ووقف جمال عبد الناصر موقف البطولة الحق ، موقف الصمود وضبط الأعصاب ، ومضى يعالج الموقف في حكمة . كان هادئاً لم تثر هذه الصحف وهذه

الإذاعات نفسه ، وكانت الحكمة والعقل والمرونة — التي هي دائماً ابرز مزاياه — تتحكم في الموقف .

لقد بدأت بريطانيا وفرنسا تعويان . لقد انهارت الاسهـم ونزلت أسواق السندات ، وأخذت الدولتان الجريحتان تستعدان لحرب مسلحة ، وتعلنان عن ذلك . وبدأت قطع من الاسطول البريطاني العتيد ذي السمعة الخطـيرة ، التي كانت مجرد تحرك واحدة منها الى قبرص يهز العروش ويسقط الوزارات تتحرك ، تتحرك الى قبرص وتنشر الصحف صورها ، وقد رفعت رأسها الى اعلى في تحد ، وظنوا أن ذلك كله سيثير عبد الناصر ، أو يفت في عضده ، ولكن عبد الناصر كان اثبت من الطود . ولم يكن من اليسير إثارته .

ومضى عبد الناصر الى العمل المنظم ، أعلن انه على استعداد للتعاون مـع الذين يستعملون مرفق القناة على نحو يطمئنهم وييسر لهم كل شيء . اعلـن انه سيدفع تعويضاً كافياً عن اسهم قناة السويس على أساس سعر إقفال بورصة باريس يوم ٢٥ يوليو — تموز - ١٩٥٦ وهو اليوم السابق للتأميم . وفي نفس الوقت كان مرفق القناة يدار في كفاءة . البواخر تجري من الشمال ومن الجنوب دون ان تتعـثر أو تتوقف . .

وجاء اليوم الذي انسحب فيه المرشدون كجزء من خطة فرنسا وبريطانيـا لمواجهة عبد الناصر ، ولكن اليقظة التي تسلح بها عبد الناصر ورجله في القناة محمود يونس ، كانت قد فوتت غرض أصحاب المؤامرة . ذلك أن كل شيء كان قد اعد فعلا على اساس وقوع مثل هذه المؤامرة . وفي صبيحة يوم ١٥ ديسمبر - ك١ - ١٩٥٦ الذي انسحب في مسائه ١٧٩ مرشداً بريطانياً وفرنسياً ، وكانت البواخر قد زيدت زيادة مضاعفة ، مضى العمل غاية في النظام والدقة . ولم تتوقف أية سفينة ولم يتعطل مرفق القناة لحظة واحدة . .

كان قلب العالم كله يدق بقوة . كانوا يتوقعون أن تتوقف القنـاة . ولكنهم لم يكونوا يعلمون ان هناك خطة موضوعة نفذت في براعة . . وتركت كل الشامتين يفغرون أفواههم في بلاهة .

ومرت سفن بريطانيا وفرنسا دون أن تدفع الرسوم أحياناً ، ولكن خطة عبد الناصر كانت اكبر من الحصول على أجور مرور السفن بالقناة ، انما كانت اثبات كفاية اصحاب القناة الفعليين في إدارتها على نحو يملأ العالم بالثقـة ، وكان ذلك ما حدث فعلا ، فان ضبط عبد الناصر لأعصابه وإدارة القناة بكفاية كان عمـلا باهراً حقاً ، إزاء ذلك الصراخ الرهيب الذي كان ينبعث من الموتورين ، مما رجح كفة مصر ، وأكد عدالة حقها في مرفقها المائي ، ونقل عدداً كبيراً من الدول غير ذات الهوى الى صفها .

وهكذا تحطمت كل خطة أريد بها الاصطـدام . مرت السفن دون أن تدفع الرسوم ، مرت السفن بعد سحب المرشدين ، أعلنت مصر انها على استعداد لأن تبحث مع الدول صاحبة الشأن في مؤتمر عام كل ما يتعلق بحرية الملاحة وحسن سيرها وكفاءة العمل في المرفق .

ولكن بريطانيا وفرنسا لم تتمكنا من فهم الحقائق . كانت هنـــاك غشاوة سميكة من التوتر تحجب عنهم الطريق . كان الحلم الذي يدور في خلدهمـا هو : ازاحة عبد الناصر من طريق قناة السويس . وقد ظنت بريطانيا التي كانت قد انسحبت من السويس منذ اربعة شهور ، أن الأمر سهل ويسير . كان يخيل اليهم انهم عندما يهاجمون مصر ستقوم المظاهرات ضد عبد الناصر . وكانوا مخدوعـين في هذ الظن . .

وبات الغرب كله في ترقب . كانت الأعصاب المتوترة في الغرب تصنع كل شيء على النحو الخطأ . وتعددت الاجتماعات والمؤتمرات التي اصـدرت مشروعاً ؛ وحمل المشروع الى عبد الناصر ، ورفض عبد الناصر المشروع ، واتجهت الضجة الى هيئة الامم ومجلس الامن ، ودارت مناقشات . وكان كل هذا انما هو تمويه وتغطية للمؤامرة الضخمة المسلحة التي كانت تعدها فرنسا وبريطانيا بين قبرص وكاليه وجبل طارق .

اما في العالم العربي ، فقد كان الموقف جديراً بالتقدير حقاً ، لقد هبت القومية العربية في ايمان صادق وتأييد أكيـــد ، وأعلن الشعب العربي ، من المحيط الى

الخليج ، تأييده لعبد الناصر ، ووقوفه وراءه ؛ بل ان هذا الشعب قد اتخذ خطوة اكبر ، فأعد نفسه للعمل وللحرب ، وجندت الصفوف وأرسلت اسماء المتطوعين، وهبت في العالم العربي كله روح قوية من النضال. وفي العراق، الذي كان مكبلا إذ ذاك بقيود من حديد تحت حكم نوري السعيد ، اندفعت المظاهرات الثائرة في شوارع بغداد ، تؤيد مصر وتتلقى الرصاص في صدورها دون ان تبالي .

وكان هذا الموقف أبعد أثراً في نفوس الأمم في الشرق والغرب ، فقد كان تجربة حقيقية لفكرة القومية العربية ، ومحكاً صادقاً لإيمانها برائد العرب ، وقائد القومية العربية : جمال عبد الناصر .

وتأخرت الحملة العدوانية ، وكان ذلك كسباً حقيقياً لعبد الناصر ، اكسبه التأييد الدولي ، وأعطى الفرصة لكي يعرف العالم إدارة مصر للقناة في كفاءة ونجاح . وكان هناك فرصة ليعلم الناس في انحاء العالم كذب الادعاء الذي كان يقول : « ان عبد الناصر سرق قناة السويس » . وعرفت الدنيا ان مصر هي صاحبة القناة ، وانها هي كانت تحميها في الحرب والسلم ، وفي ابان ادارة الشركة المنحلة لها .

وظهر للعالم كله ان مصر قد تغيرت ، وأن كل الأوهام التي كانت تجول في اذهان المستعمرين قد تغيرت ، وان هذا العمل الضخم قد تم دون ان يحمل وراءه أي تهديد او أزمة على الاطلاق. لقد كان الرعايا البريطانيون والفرنسيون في حالة من الطمأنينة الكاملة. وكانت الحياة في مصر تسير على النحو الذي كانت تسير عليه ، فلا عدوان ولا اضطراب . .

وكان هذا العمل العظيم قد حقق لجمال عبد الناصر مزيداً من الشعبية والثقة والحب ، ليس في مصر وحدها ، ولكن في العالم العربي كله ، الذي وقف وراء الرجل ؛ وكانت الصفوف الأخرى من دول باندونغ ، والدول المحبة الصديقة .

وكذبت هذه المعركة الأوهام التي اخذت صور الحقائق في عقول بعض الذين كانوا يظنون ان بريطانيا شيء مخوف مهول . كذبت معركة تأميم القناة قدرة

بريطانيا على العمل الداخلي المدمر، وكذبت الأسطورة التي تقول بأن البريطانيين اذا ارادوا ان يتخلصوا من زعيم عربي او شرقي استطاعوا ذلك في يسر . ولم تفلح الاساليب الاستعمارية القديمة في تحطيم هـذه القوة العربية الضخمة ... لم تفلح المؤامرات ، ولم تفلح محطات الاذاعة السرية ..

ثم لم يفلح بعد ذلك الحصار الاقتصادي الذي فرض على مصر بتجميد أرصدتها في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة، واستطاعت مصر أن تشق طريقها بقوة، وان تتخلص من المحنة دون ان تنحني .

وفي المؤتمر الصحفي الذي حضره الصحفيون من انحـاء العالم كان جمال عبد الناصر يتحدث الى اربعمائة صحفي باللغة الانجليزية بطلاقة ، ويرد على كل الاسئلة بصراحة ، وكان ابرز ما قال : انه سيقاتل الى اخر قطرة من دمه . وان القناة شركة مصرية ينتهي أجل عقدها بعـد اثنتي عشرة سنة ، وان من حق مصر أن تقدم هذا الموعد ، وان التأميم إجراء طبيعي تتخذه الآن كل الدول. وان مصر على استعداد لأن تتفاهم مع جميع الأطراف المعنية في سبيل تجديـــد الشروط الواردة في معاهدة القسطنطينية بشأن حياد القنـال وبشأن تأكيد التعاون بين مصر وبين عملاء القناة .

ولكن بريطانيا وفرنسا بيتتا الغـدر، وطوتا نفسيهما على الحفيظـة ، بالرغم مما اظهرتاه في محادثات الأمم المتحدة مع وزير خارجية مصر من تقارب والتقاء في مشروع اقرته الامم المتحدة ..

وكان موعد الالتقاء في جنيف هو نفس يوم العدوان ...

وانتصر جمال ..

« في الساعة السابعة مساء يـوم ٣١ اكتوبر كنت في بيتـي اقابل السفير الاندونيسي وسمعت صوت صفارات الانذار . ثم سمعت مباشرة ازيز الطائرات المغيرة ، وادركت على الفور انها غارة بريطانية.كانت الطائرات المغيرة نفاثة ، والطائرات النفاثة الوحيدة في شرق البحر الابيض لا يمكن ان تكون الا واحدة من نوعـين : الاليوشن ٢٨ الذي تملكه مصر . او الكانبير البريطانية ، وتيقنت على الفور ان بريطانيا تدخلت عسكريا في المعركة .

واردت ان اتأكد على اي حال.فتركت السفير الاندونيسي وصعدت الى سطح المنزل اراقب الغـارة واسمع صوت الطائرات لاتأكـد انها طائـرات بريطانيا . ثم تلقيت بعدها الاعلان البريطاني الفرنسي عن بدء عمليـات حربية ضد مصر . وعلى وهج المصابيح المشتعلة التي كانت الطائرات المغيرة تلقيها على مطار القاهرة،وكانت الغارة البريطانية الاولى عليه ، رأيت المؤامرة كلهـا .

لم يكن الوهج يكشف منطقة المطار وحدها . وانما كـان هذا الوهج يكشف في افكاري منطقة الشرق الاوسط باسرها .

اذن فان الهجوم الاسرائيلي لـم يكن هدفه الا دعوة قواتنا الرئيسيـة الى سيناء،ثم افغالها وقطع الطريق عليها باحتلال منطقة القناة.وبهذا يحقق العدو هدفين : تحطيم قواتنا العسكرية شرق القناة تحطيما تاما بعد حرمانها من المساعدات الجويـة ، والهدف الثانـي دخول مصر واحتلالهـا بـدون مقاومة منظمة ، اذ ان مصر ستكون بغير جيش يدافع عنها . وكان واضحاان علينا في هذه اللحظة ان نراجع جميع خططنا .

وخرجت من بيتي الى مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة .

واستقر رأينا على ضرورة الانسحاب السريع من سيناء وتوحيد نشاطنا العسكري كله غرب القناة »

« بدأت المؤامرة بالهجوم الاسرائيلي الفجائي في يوم الاثنين ٢٩ اكتوبر بدون اي سبب الا التآمر وحقد بريطانيا . وقامت قواتنا المسلحة في تأدية واجبها ببسالة كريمة ، وقام سلاحنا الجوي بتأدية واجبه ببسالة خالدة .

وفي يوم ٣٠ اكتوبر قـدم لنا انذار بريطانـي فرنسي يطلـب ايقاف القتال ، والقوات الاسرائيلية المعتدية لا تزال في داخل الاراضي المصرية ، وتطلب من مصر واسرائيل الانسحاب عشرة اميال من القناة ، ويطلب من مصر واسرائيل ايضا قبول احتلال بورسعيد والاسماعيلية والسويس بواسطة القوات المسلحة البريطانية والفرنسية من اجل حماية الملاحة في القناة . وحدث ذلك في وقت كانت الملاحة فيه مستمرة ولم تهدد اطلاقـا . وفي وقت كانت القوات المصرية تحتشد لمقاتلة القوات الاسرائيلية المعتديـة ، قالت بريطانيافي انذارها « اذا لم يصل الرد في ١٢ ساعة فانها ستعمل على تنفيذ ذلك » .

واعلنت مصر رفض الانذار .

واصدرت بريطانيا بلاغا بانها ستضرب المطارات المصرية نتيجة لرفض مصر للانذار الموجه اليها والىاسرائيل لسحب قواتهما على بعد عشرة اميال من القناة .

اغارت بريطانيا ، وكانت غاراتها مركزة على مطاراتنا ، وكان غرضهم ان يدمروا سلاح الطيران المصري الذي اظهر تفوقا ساحقا وسيطر على المعركة . وبهذا اتضحت خطة العدو . العدو المتحالف الانكليزي الفرنسي الاسرائيلي .

وكان الهدف هو سحب قوات مصر الى سينا وعزلها وتدميرها ثم احتلال مصر بدون مقاومة . وكان لا بد من اتخاذ قرار خطير ، هذا القرار هو ضم اكبر جزء منها الى الشعب والعمل على احباط محاولات بريطانيا وفرنسـا واسرائيل من عزل وتدمير قواتنا الرئيسية في صحراء سينا .

هل نقاتل او نسلم ، ان تاريخ الشعوب في الكفاح هو الذي يكتب لها المستقبل . ان الايام العصيبة تحتاج الى مزيد من الصبر والثقة والايمـان والثبات حتى يتحقق النصر . لقد اعلنت مصر دائما انها ستقاتل دفاعا عن سيادتها وكرامتها . ستقاتل في حرب شاملة ، جنودها الشعب . الشعب جنبا الى جنب مع قواته المسلحة . سنقاتل في معركة مريرة من قرية الـى قرية . ليكن شعارنا اننا سنقاتل ولن نسلم . انني اعاهدكم ايها الاخوة اني ساقاتل معكم من اجل حريتكم كما عاهدتكم من قبل لآخر قطرة من دمي » .

* * *

هذه صيحة جمال عندما وقع ما كان لا بد ان يقع ، العدوان على مصر ، من دول ثلاث هي : بريطانيا وفرنسا واسرائيل .. في نفس اليوم الذي كان محدداً للالتقاء في جنيف. (٢٩ اكتوبر - تشرين الاول - ١٩٥٦) . تقدمت إسرائيل في الارض المصرية حتى وصلت الى الكونتلا في جنوبي صحراء سينا . ولم يلبثوا ان اجتازوا سبعين ميلاً من صحراء سينا .

واندفعت القوات المصرية الى صحراء سينا، جيشاً وطائرات وقوات ضاربة، لتعلم إسرائيل درساً ولتأخذ بثأر سنة ١٩٤٨، وتنهي قصة هـذه الجريمة التي صنعت في غفلة من العرب، وبتآمر الخونة من الملوك والحكام.

وبدأت القوات المصرية الباسلة تضرب ضربات قاتلة ومميتة، عندما فوجئت مصر بالانـذار البريطاني الفرنسي الآثم الذي فرض نفسه للتدخل بين مصر واسرائيل، مطالبـاً مصر وإسرائيل اتخـاذ خطوة إلى الوراء فيما وراء قنـاة السويس بعشرة كيلومترات.. ورفضت مصر الانذار، وكان هذا امراً طبيعياً.

وكان قد تبين لجمال عبد الناصر أن اسرائيل ليست وحدها، وأن الطائرات التي تطير في سماء مصر هي طائرات فرنسية، هنالك اتخذ جمال اخطر قرار في تاريخ الثورة المصرية: ذلك هو الانسحاب من صحراء سينا.. وفعلاً تمّ تنفيذ هذا الاجراء في خلال ٤٨ ساعة، عندما عادت قواتها من صحراء سينا وعبرت القنال ولم تترك هناك الا قوات انتحارية لتغطية انسحاب القوات ومقاتـلة القوات الاسرائيلية.

وكان هذا عملاً رائعاً ضخماً في تاريخ الحروب، سيظل يذكر لجمال عبدالناصر على انه ابرع اعمـال التكتيك الحربي. ذلك ان المؤامرة كانت تهدف الى عزل الجيش عن مصر وذلك بإغراء اسرائيـل بالهجوم على غزة، وخروج الجيش المصري لقتالها، ثم استيلاء بريطانيا على قناة السويس، وسحق هـذه القوات المصرية كلها في الصحراء بعد عزلها بين كماشتين من القوات الاسرائيلية والبريطانية.

وقد كان لتحطيم هذه المؤامرة اثر بالغ في نفوس المتآمرين الذين رسموا هـذه الخطة، فقد فوت عليهم جمال غرضهم..

وعندما جاء الأسطول الى بور سعيد كانت قوات مصر كلها تقاتـل مع الشعب، ولم يكن في الصحراء منها شيء إلا القوات الانتحارية الفدائية.

وسقطت قوات الاحتلال الفرنسي البريطاني في بور سعيد، البلدة الساحلية المحاطة بالماء من جميع النواحي، والتي لا يقدم على مهاجمتهـا الا قائد فاشل،

واستطاعت القوات المحاربة مع الشعب ان تواجه اضخم معركة في بور سعيد ، وان تسجل بطولة خارقة ، وان توقف الزحف عند حدود هذه المدينـــة فلا يعــدوه .

وفي خلال عشرة أيام كاملة ، كانت الطائرات البريطانيـــة تدق مطارات القاهرة والاسكندرية والمــــدن الكبرى في عنف ، ولكن الشعب كان قوياً وعملاقاً ومؤمناً بقائده ووطنه . وصاح الشعب عندما التقى مـــع جمال عبد الناصر في اول غارة جوية : سنقاتل !... واطمأن قلب جمال الذي كان يخشى ان يزعج الشعب صراخ الطائرات ، وآمن بالنصر ..

ووقف جمال فوق منبر الأزهر الشريف يشرح للشعب قصة سحب القوات المصرية من صحراء سينا .. ثم عاد يوم الجمعة التالي فوقف فوق المنـــبر يروي تفاصيل العدوان ..

واستطاع جمال عبد الناصر أن يحقق النصر وأن ترحل قوات العدوان عن بور سعيد في ٢٣ ديسمبر – كانون الأول – ثم ترحل قوات العدوان الإسرائيلي عن صحراء سينا في يناير – كانون الثاني – ١٩٥٧ ، وبذلـــك حلت الهزيمة الكاملة على دول العدوان الثلاث .

وقد صور جمال عبد الناصر هذه اللحظات التاريخية فقال : « في يوم بيان الجنرال كيتلي قائـــد القوات ، خرجتُ من البيت ، ونزلت الى رئاسة مجلس الوزراء . وكان الشعب في ميدان المحطة . وكان هناك إنذار بغـارة . وكانت العربات واقفة . والأنوار مطفأة . وكانت اول تجربـــة . وأحببت ان ارى موقف الناس بعد ان أعلن أن بريطانيا وفرنسا واسرائيـــل ستهجم علينا . ورأيت الشعب في ميدان المحطة عندما شاهد عربتي وهو يهتف : سنقاتل ! ...

وعند الإسعاف عندما رآني الشعب هتف : سنحارب !..

وكان هذا أول كلام سمعته واول صدى من الشعب . لقـــد خرجت وانا أخشى ان أرى الناس في خوف . ولكني عند ما رأيت هذا المنظر ، آمنت بيني وبين نفسي اننا لا بد ان ننتصر . وآمنت ان الشعب لم يخـــف ولم يفقد

أعصابه ولم ينخلع قلبه ، بالرغم من الطائرات التي كانت تحلق في السماء وتضرب ، وهو واقف في الميادين يهتف ويقول : سنقاتل ، سنحارب !.. وآمنت بأننا لا بد ان ننتصر ، لأن هذا الشعب انما يشعر بأن روحه من روح الله .

.. وفي بور سعيد ، من كلام الفرنسيين والمراسلين الغربيين الذين حضروا الحرب ، كان الأولاد في سن الحادية عشرة يقاومون ويقفون عقبة ضد جنود المظلات ، وعطلوا الزحف . كان الشعب مع الجيش يحارب . كل واحد كان يحارب في مكانه حتى الموت . كل واحد حمل السلاح ليدافع عن بلده ، ووزعت ٤٠٠ الف قطعة سلاح ، ولم يحدث اي حادث .

وفي يوم واحد وقعت على بور سعيد ٧٠٠ غارة جوية من قوات الأسطول... وقد قابلنا الجوع وحرب الجوع ونحن أقوى إيماناً . وكما صمدنا للحرب المسلحة صمدنا لحرب الجوع وحرب الدعاية . ولأول مرة وجدنا بعد تجميد أموالنا انه لا هجوم هناك على المخازن .

ان الحصار الاقتصادي لم يؤثر علينا . ولكن قفل قنال السويس أثّر على بريطانيا واثر على الدول الكبرى ، وجعلها تتراجع وتُحس أن الاسترليني نزل ، وأن احتياطيها من الذهب ضاع في شهر واحد من قفل القناة .

إن حرب الدعاية لم تؤثر علينا ، وحرب السموم والحرب النفسية لن يمكن بأي حال من الأحوال ان تحقق لهم أي شيء .

واستطعنا ان نهدم أسطورة الدول العظمى التي تغزو الدول الصغرى » .

واعلن الجمهورية العربية المتحدة ..

« لقد كنا ننادي : تحيا الوحدة العربية ! في المظاهرات ونحن اطفال . وكانت الوحدة العربية في معناها الذي نشعر به هي وحدة التضامن لاننا كنا نؤمن ، رغم المحاولات التي كان الاستعمار يحاولها لبث التفرقة بين ابناء الامة العربية ، كان كل واحد فينا يؤمن عن حق ، وعن عقيدة ، ان الوحدة العربية وحدة التضامن العربي انما هي ضرورة لازمة لتامين كل جزء من اجزاء الوطن العربي .

هذه الوحدة التي كنا ننادي بها لم تكن تعني باي حال من الاحوال اي معان دستورية ، ولكنها كانت تعني التضامن العربي . وكنا في هذا انما نعبر عن واقع الامة العربية الذي هو كيان واحد ، وتاريخ واحد ، كانت هنـاك فواصل مادية ، ولم تكن هناك فواصل روحية .

ووضعت الوحدة الحقيقية موضع التنفيـذ حينما تعرضت سوريـا للتهديد وتحركت القوات المصريـة من مصر ووصلت الى سوريـا لتشترك جنبا الى جنب مع القوات المسلحة في سوريا وكان هذا يعني ان اي عدوان على سورية انما هو عدوان على مصر ، وان الشعب هنا في مصر قرر ان يدخل المعركة مع شعب سوريا اذا وقع عليه عدوان .

وعندما وقع العدوان الفرنسي البريطاني على بلادنا تحرك الجيش السوري وصمم علـى ان يدخل المعركـة معنا من اول يوم ، وكنـا اتصلنا بالقيادة الموحدة وطلبنا عدم اشتراك الجيش السوري في المعركة .

وفي نفس اليوم نسفت انابيب البترول التي كانت تمثل لسوريا دخلا قوميا وحصيلة ياخذونهـا نتيجة عبور البترول في بلادهـم وتعطل عمال الانابيب عن العمل ووقفت اجورهم بعض الوقت .

وارسلت نقابات العمل هنا في مصر مائة الف جنيه مساهمة منهالاجل دفع اجور العمال الذين وقفت مرتباتهم . ورفض اخواننا العمال في سوريا هذا المبلغ ، وقالوا:انهم حينما نسفوا انابيب البترول كانوا يعلمون انهم بهذا العمل يصبحون عمالا عاطلين ، ولا يمكن ان يقبلوا اجرا او مساعدة او معونة باي حال من الاحوال .

كل بلد من البلدين يعتبر بلده وشعبه واحدا ، كـان كل واحد يعتبر ان معركة الاخر معركته . كنا هنا في مصر نعتبر ان كل معركة في اي مكان من العالم العربي او في ارجاء الامة العربية معركتنا ، وكانوا في سوريـا يعتبرون ان كل معركة في اي مكان من العالم العربي معركتهم . كان هناك التقاء وامتزاج في الاهداف والمثل العليا والسياسة المستقلة . ثم رفعت رايه الوحدة .

وقامت الجمهورية العربية المتحدة .

وكانت الجمهورية العربية المتحدة انما تمثل حصن الكفاح العربي كله في كل مكان في جميع انحاء الامة العربية رغم اختلاف انواع التهديد .

اننا جيل كتب عليه ان يكون على موعد مع القدر . كل عمل مما تحقق في السبع سنوات لو اعطي لجيل من الاجيال لكان يكفيه شرفا وفخرا .

ليس عندنا قنابل ذرية ولكن عندنا ربنا وعندنا ايمان هذا الشعب وقوته ... »

***

ان عبد الناصر عندما حمل لواء الدعوة للقومية العربية كان يؤمن بدعوته عن دراسة عميقة واستقراء للتجارب والتاريخ . ولذلك حقق انتصارات ضخمة.

إنه في الأيام الاولى للثورة يقول : « ان مصر ستعمـل على إنشاء عالم عربي موحد ، متى سويت مشكلة منطقة قناة السويس . ونحن نرى بعـد ان تسوى مشكلة قناة السويس انه لاتزال لدينا مشاكل سياسية اخرى ستكون في الدرجة الأولى من الأهمية بالنسبة لنا .

وفي نيتنا ان نقوم بدورنا في المساعدة لتسوية جميع المشاكل المتصـلة بالدول العربية وشعوبها . لأننا نعد كل مشكلة من مشاكل العالم العربي مشكلة خاصـة بنا . نشعر أن هدفنا يجب ان يقوم على اساس انشاء العالم العربي وتوحيـد اسرته ؛ بحيث تحتل المكان الجدير بهـا بين دول العالم . واني مقتنع بأن العالم العربي الموحد سيكون من اعظم عوامل السلام في العالم . واعتقد ان هـذا الدور يجب ان تقوم به مصر بعد ان تسوى مشكلة قناة السويس ، اذ عليها ان تنشىء هذا العالم العربي ليقوم بنصيبه في سبيل التقدم والمدنية »

ولم تكن ثورة ٢٣ يوليو (تموز) التي قامت في مصر ثورة مصرية فحسب ،

بل ثورة عربية ، فقد سبقتها مقدمات واضحة الدلالة لعل أبرزهـا الثأر الذي كان يكمن في صدر قائدها وعدد من زملائه .

« عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو – تموز – في مصر ، شعر الجميع ان هـذه الثورة إنما هي ثورة مصرية ، ولكننا كنا نشعر انها ثورة عربية ، وليست ثورة مصرية ؛ لأنهـا نبتت في ارض العرب ، ومن دم العرب ، ومن قلب العرب ، لا تتحالف مع الاستعمار ليبسر لها النجاح ، ولا تتحالف مع الاجنبي ليدفعها الى الامام ... ولكنها تعتمد عليكم انتم .

ولقد اعلنت في كتاب فلسفة الثورة ، ان هذه الثورة التي نبتت في مصر إنما لها مجال حيوي ، وهذا المجال يشمل المنطقة العربية بأسرها . كنا نشعر بكم في هذه المنطقة من العالم وقد عزلونا عنكم [1] ، وارادوا ان يقيموا في مصر بـــلداً يتنكر لعروبته وينتمي الى الفرعونية . وعندما كنتم تحاولون ان تكافحوا في سبيل استقلالكم كانت مصر كلها تهتز لهتافكم وتهتز لمشاعركم » .

« انها الثورة العربية الحقيقية التي أبت ان تتحالف مع الاجنبي أو المستعمر ليبسر لها الحرية ، لأن الحرية هي ضـــد الاستعمار ، ولأن الاستعمار لا يعني إلا العبودية . الثورة التي تستطيع ان تفخر وتقول انها نبتت من ارضنا ، وخرجت من دمائنا ، ومثلت المشاعر والاهداف العربية الخالصة . انها لم تتلوث مطلقاً لأنها آمنت بالله ، وآمنت بالشعب العربي في كل مكان ، وكانت تعتبر ان هذه هي القوة التي تستطيع ان تهزم الاساطيل والدول العظمى . وقـــد رأيتم عندما هاجمتنا الدول الكبرى في بورسعيد – وقمتم في كل بلد عربي – كيف استطاعت وحدة القلوب ان تهزم الأساطيل وتقضي على الدول العظمى وتحولهـا الى دول من الدرجة الثانية » .

وصور جمال حقيقة القومية العربية تصوير الرجل الذي يقيم قواعد تفكيره على أصول من الإيجابية والواقعية والاتجاه البنّاء ...

« كانت القومية العربية ضرورة دفاعية وتضامناً عربيـــاً ، وضرورة

---

١ – الخطاب موجه الى أهل سوريا

استراتيجية ومصلحة مشتركة . كانت القومية العربية دفاعاً عن كل عربي في كل وطن عربي ، وللدفاع عن كل وطن عربي في كل البلاد . وكانت القومية العربية تمثل اتساع رقعة القتال إذا اراد الاستعمار ان يعتدي علينا ، كما اعتدى علينا في الماضي » .

ولا شك ان للدعوة سابقة من التاريخ تنبىء عن النتيجة الحتمية للتجمع والتوحد .

«كانت هناك ظاهرة واضحة : ان المنطقة العربية تلاقي الهزيمة حينما تنقسم على نفسها ، وحينما تتفرق وتسيطر عليها الحزازات والاطماع . وفي ذلك الوقت كان كل مستعمر او غازٍ يستطيع ان يلتهم الأمة العربية دويلة دويلة . وتسقط الدول العربية جميعاً تحت سيطرة اجنبية وتحت الغزو، وتخضع للفتوح الأجنبية. وكانت الفرقة هي سبب الهزيمة ، والكراهية هي سبب الاحقاد .»

وكان لهذا العمل الضخم الذي بدأه جمال عبد الناصر بعد تحقيق الجلاء عن مصر اثره السريع . كان واحداً من حادثين عظيمين وقعا في العالم كله بعد الحرب العالمية الثانية :

«لقد قرأت بحثاً عن اهم الأحداث التي ظهرت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية . وكانت نتيجة هذا البحث ان هناك حدثين عالميين : الاول هو نجاح الثورة الصينية عام ١٩٤٩ ، والثاني هو تحقيق القومية العربية عام ١٩٥٦ .

ان القومية العربية حدث له اهمية تاريخية كبرى. ان العرب الذين استُضعفوا سنين طويلة ، نتيجة لتنابذهم وخلافاتهم ، استطاعوا اليوم في جميع البلاد العربية ان يؤمنوا بحقيقة هامة ، وهي ان قوتهم تتحقق في بعث قوميتهم .وان قوميتهم هذه تمتد من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي » .

وصور عبد الناصر الفهم الحقيقي للأحلاف التي رفضها رفضاً كاملاً ، ورأى انها تتعارض مع دعوته تعارضاً كاملاً فقال :

«وفي عام ١٩٥٢ ، بعد نجاح الثورة، بدأت انجلترا تتصل بنا. وبدأت امريكا تتصل بنا. وبدأوا يطالبوننا بالتحالف معهم على ان نتفق معهم ونعقد محالفات

واتفاقات . وكان كلامنا لهم : إننـا لا نستطيع ان نتحالف . ليس ممكناً ان ندخل في حلف الا الحلف الذي يضم الدول العربية وحدها . اننا اذا دخلنا في حلفٍ مع بريطانيا ، فهل نستطيع ان نملي إرادتنـا على بريطانيا ?... بل هل تستطيع مصر أن يكون لها رأي بجانب بريطانيا ?.. وإذا جلسنا على مائـدة واحدة، وكان فيها « مستر ايدن » يمثل بريطانيا، ونحن نمثل مصر فكيف يكون موقفنا منه وموقفه منا ?.. كيف تتحالف دولة كبرى مع دولة صغرى مثلنا .. إنه لن يكون حلفاً ، بـل سيكون تبعية . ونحن لا نقبل ان نكون تابعين . كنت اقول لهم : نستطيع ان نتعاون معكم معاونة الند للند . نستطيع ان نكون اصدقاء ، ولكنا لا نقبل أبداً ان نكون اذيالاً أو نكون تابعين » .

وكان من الطبيعي ان تقاوم القومية العربية سياسة الأحلاف :

«قوتنا في قوميتنا، إذ يجب ان نتماسك هذه القومية ، وتترابط في الدفـاع عن مصالحها ضد المؤامرات الاستعمارية التي تتربص بنا . لقد عارضنا حلف بغداد وحاربناه ، لان المستعمرين أرادوا أن يجعلوه قاعدة يثبون منها على الاردن ولبنان وسوريا ومصر والسودان . سياستنا اذن تقضي ألا نفصل مصر عـن المنطقة العربية . ولا أن نفصل ما حدث في اسرائيل عنا . فإن مؤامرة الاستعمار على العرب اعطت فلسطين للصهيونيين ليمحوا جزءاً من القومية العربية . وكلما التهموا جزءاً من الكيان العربي التهموا جزءاً آخر . ونحن من صميم هذا الكيان فالأمة العربية كلها منطقة واحدة ، لا يمكن عزل ارض منها عن الأخرى ، ولا يمكن حماية مكان الا بحماية جميـع الاماكن» .

ونبه جمـال عبد الناصر الى مؤامرة الاستعمار لمقاومة القومية العربية بالدس والوقيعة :

«ان الدول الاستعمارية ستحاول، بكل الوسائل ومعتمدة على اعوانها، ان تضرب القوى العربية ، معتمـدة في ذلك على الدس والفتنة والرشوة والوعود والارهاب . ولكنها مهما حققت من نجـاح ، فلن تستطيع مواجهة القومية العربية وجهاً لوجه . ان هـذه الاساليب تزيد القومية العربية اشتعالاً ، ونارها

تأججاً وليست الأحـداث التي يباشرها الاستعمار سوى الدليل الساطع على ان القومية العربية هي السلاح الفعال ضد السيطرة الغربية .

وعندما قامت الدعوة الى القومية العربية على الحياد الايجابي وعدم الانحياز كان مفهومها واضحاً في هذا الاتجاه . انه التحرر من سيطرة الدول الكبرى ، والخروج من فلك العبودية التي يفرضها الاستعمار .

«إن الحياد الإيجابي ، وسياسة عدم الانحياز تعني عدم الوقوع تحت سيطرة أيٍّ من الدول الكبرى ، واتباع سياسة مستقلة . إن سياسة الانحياز لأيٍّ من الدول الكبرى ليس لها من نتيجة سوى التبعية،الامر الذي تذوب فيه شخصية الدولة التابعة في شخصية الدولة الكبرى ، فلا يكون امامها من سبيل الا تلقي الأوامر وتنفيذها » .

وقد حققت القومية العربية اول نصر لها في معركة بور سعيد. . .«ان الاستعمار حينما جند جنوده ليواجه مصر كان يعتقد أنه سيواجه شعباً منعزلاً ، ولكنـه فوجىء بالقومية العربية تتحفز وتنطلق ، وتهدد وتعمل ، لتقضي عليه ،وتقضي على مصالحه» .

ولم يلبث جمال ان وضّح حقيقة ثابتة حاول الاستعمار ان يزيفها ويغري بها. . . «ليس معنى حديثي عن القومية العربية أني أعطي لنفسي الحق في أن اتـدخل لدى أي دولة عربية اخرى فأشير عليها بما تفعله وبما لا تفعله ،ليس ذلك حقي. ثم هو ليس سياستي . فإن القومية العربية شيء ، والتدخل في الشؤون الداخلية للدول العربية شيء آخر .»

ومضت القومية العربية تخوض بحراً من المؤامرات .. ثم لم تلبث ان حققت انتصارات ضخمة ، اذهلت المراقبين السيـاسيين . ولكن جمـال صحح التطور التاريخي للقومية العربية فقال :

«ان القومية العربية تسير بخطوات أسرع مما كان متوقعاً لها .ولقد يبدو في بعض الاحيان أن سرعـة الحوادث تبعث على القلق . ولكن التفسير الحقيقي لهذه السرعة ، هو ان القومية العربية كانت تناضل منذ اجيال طويلة لكي تحقق

أمانيها . كانت هناك عقبات صناعية ، اولها وجود الاستعمار وما يتفرع عن هذا الوجود ، تحول دون تحقيق هذه الاماني ، فلما خاض الشعب معاركه التحررية الكبرى وفي طليعتها معركة السويس ، وانتصر في هذه المعارك ، وانهار وجود الاستعمار في المنطقة العربية ، تدافعت الأماني المحبوسة والآمال المكبوتة تشق طريقها بسرعة هائلة الى عالم الحقائق » .

« وكانت سورية هي الجزء المتحرر القوي من العالم العربي الذي تجاوب مع مصر منذ اكثر من ثمانمائة عام ، عندما هاجمت العالم العربي الحملات الصليبية ، واستطاعت في غفلة من العرب ان تقيم المملكة اللاتينية في القطاع الساحلي لفلسطين وسورية ؛ ولكن صلاح الدين الايوبي لم يكد يواجه هذا الخطر في مصر حتى هبت سورية لترتبط مع مصر في وحدة شاملة ، كانت هي القوة الوحيدة الجبارة التي قدّر لها أن تهز المملكة اللاتينية وتحطمها وتزيحها عن مكانها الذي اخذته بالغدر .. كذلك قامت سورية مرة اخرى بدورها التاريخي ، ونادت بالوحده مع مصر لتواجه اسرائيل ، وليكونا معاً كطرفي الكماشة ، حينما تطبق على الفريسة ».

وهكذا التقت مصر وسورية في الجمهورية العربية المتحدة ..

وكانت ضربات جمال للاستعمار وصيحاته من اجل الانتفاضة العربية ، قد لقيت صدى لا حد له في سورية ، فتحقق حصوله على ٩٩ في المائة من الأصوات عند انتخابه رئيساً للجمهورية العربية المتحدة .

ولم يلبث جمال ان وصل الى دمشق .. فكيف استقبل في عاصمة الامويين الخالدة ..

لقد استقبل استقبالاً رائعاً يجل عن الوصف . كان صورة غريبة مذهلة لكل الذين شاهدوه او سمعوه . وكان اقتحام نصف مليون من أبناء لبنان الحدود والأسوار الى دمشق ، لرؤية جمال ، عملا عجيباً يضاف الى هذه الصورة المضخمة .

ولقد ذهب الكثيرون من المعلقين الى تصوير المعنى الحقيقي لهذا الاستقبال

لرجل انتخبته سورية بالإجماع رئيساً للجمهورية العربية المتحدة بنسبة ٩٩،٩ في المائة قبل ان تراه رأي العين ، وإن كانت قد سمعته ورأت صوره ، وصاحبت كفاحه يوماً بيوم .

لقد اجمع المراقبون على أنه شيء لم يحدث من قبل ، وأن معناه أن الأمــة العربية كانت تبحث عن قائدٍ ورائدٍ وبطل ، فلما وجدته اندفعت نحوه تعلن إيمانها به وثقتها بدعوته .

كانت مئات الألوف تقف في ساحة الجلاء منذ الصباح الباكر الى ما بعـد منتصف الليل تنتظره ، وكان يخرج إليها بين الحين والحين ليقول كلمة تحية ، ثم يعود فإذا بها تدعوه مرة ومرة .

كانوا يصافحونه ، وعيونهم مندّاة بالدمع ، والفرحة تمتلك قلوبهم وأعصابهم . لقد تجمعت في جمال آمال الأمة وعزها ومجدها ، وكان رمزاً عليها جميعاً ؛ ثم تجمعت عنده مشاعرها في المحن والآلام خلال الاعوام الطويـلة . وتجددت به صور شهدائها ودمائها المبذولة من أجل الحرية والكرامة .

لقد ارتبطت في عواطف الناس صورة جمال بصورة صـــلاح الدين . إنه الامتداد الطبيعي له . ان ذاك بـدأ النصر ، وهذا يكمّله . إن المعركة تتكرر بنفس الأسلوب: ترفع منها أسماء وتوضع أسماء، وإذا بها كلها كاملة ، حتى مسرح الأحداث !

الصهيونيون بعد الصليبيين . ثم جمال عبد الناصر بعد صلاح الدين ...

وساند ثورة العراق..

...« حينما قامت ثورة العراق في الرابع عشر من شهر يوليو - تموز - ١٩٥٨، قامت الجمهورية العربية المتحدة من اليوم الأول، وكنا بهذا تدفعنا القوة والقومية العربية ، قمنا جميعاً واعلنا اننا نساند ثورة العراق ، وان اي عدوان على العراق هو عدوان على جمهوريتنا . واننا سنشترك مع العراق في الكفاح وفي القتال . كنت متأكداً كل التأكيد اننا الدولة الوحيـــدة التي تقف الى جانب العراق . والدولة الوحيدة التي ستحارب بجانب العراق اذا اعتدى عليه معتدٍ اومستعمر.

وحينما عدت الى دمشق ، كنت قـــد اعطيت التعليمات للقاهرة حتى تعطي ثورة العراق كل ما تريد وكل ما تطلب . وارسلنا اليهم كل ما طلبوا من الأسلحة الصغيرة لتسليح المقاومة الشعبية ، وارسلنـا اليهم كل ما طلبوا من الذخيرة ، فالأسلحة التي سلحهم بها حلف بغداد بلا ذخيرة . وحينما طلبوا منـــا طائرات ورادارا ارسلنا لهم الطائرات والرادار ، وارسلنا هذا كله بلا ثمن وبلا مقابل . وعقدنا معهم اتفاقية عسكرية على اننا نضع كل قواتنا وكل ثرواتنا في جانبهم اذا وقع عليهم عدوان .

وكنا في هذا الوقت انما نقامر بمصيرنا ونقامر باستقلالنـا ، حين نضع كل مقدراتنا بجانب إخوتنا في العراق ؛ ولم نكن بأي حال من الأحوال نحجم عن ان نتخذ هذه الخطوة ؛ لأننا كنا نعتقد أن استقلال العراق هو تدعيم لاستقلالنا ، وان حرية شعب العراق هي تدعيم لحرية شعبنا .

وسارت الأمور على هـــذا المنوال ، وتغيرت الأحوال ، وخفت الأزمات ووسائل الضغط على العراق، وبدأ الشيوعيون يظهرون عن انيابهم ويكشرون عنها، ويسفرون عن وجوههم ، واعتقـدوا انهم باستغلالهم الصراع بين قاسم العراق وبين عبد السلام عارف انما قد يتمكنون من النفوذ إلى السلطة في العراق . ثم بدأت الحملات والدس من شيوعيي العراق العملاء .

بدأ الشيوعيون يدسون ويعملون على بث الفتنــة بين شعب العراق الشقيق وبين شعب الجمهورية العربية الذي صمم على أن يفدي هذا الشقيق .

ثم بدأت الفتنة للتفرقة بين شعب العراق وبين الشعب العربي في الجمهورية العربية المتحدة . واعلنا اننـــا لا يمكننا ، بأي حال من الأحوال ، ان نفرض الوحدة او الاتحاد ، ولكن هذه الوحدة او هذا الاتحاد ، يجب ان يكون بمشيئة الشعب العربي ، من كل بلد عربي . واعلنا ان الشعب العربي في مصر وسورية فرض علينا الوحدة فرضاً ، وان اي وحـدة لا تجمع الشعب كله ، انما تكون ضارة لأنها تقودنا الى حرب اهلية .

وبدأت النداءات بالوحدة والاتحاد . ولم تكن هذه بأي حـال من الاحوال لها غايات شريفة أو غايات مجيدة ، أو غايات قومية عربية . ولكن الشيوعيين العملاء حملوا لواء الدعوة الى الاتحاد وحملوا لواء الهجوم على الوحدة ، انمـا كانوا يستهدفون سورية ، لأنهم كانوا بهذا يعتقدون انهم يتمكنون من التأثير على الشعب السوري حتى تنفصم الوحدة، وبهذا يظهرون محاسن الاتحاد ثم يهاجمون الوحدة .

وكانوا في نفس الوقت لا يبغون وحدة ولا اتحاداً ، ولكنهم يبغون الشيوعية والتبعية . وقامت في العراق معركة الوحدة والاتحاد . ولم تكن معركة بريئة . ولكنها كانت معركة خبيثة تستهدف دس الفتنة بين القومية العربية .

قلنا لهم : إننا لا يمكن بأي حال من الأحوال ان نناقش العنـــاوين ، أو نناقش الشعارات، ولكنا على استعداد ان نتكلم مع شعب العراق ومع حكومة العراق على تنظيم العلاقات بين جمهوريتينا. وقد يكون اتحاد وقد يكون وحدة. وقد يكون اتفاق اقتصادي ، وقد يكون تضامن عربي . وهذا هو ما نبغيه .

واذا ما استقلت الدول العربية ، فانها لا تحتاج الى دساتير لتوحيدها ، لأنها لا تختلف الا اذا سيطر عليهـــا الاجنبي ، وسيطر عليها الطـــامع . ولم تكن الخلافات بين الأمة العربية إلا نتيجة للسيطرة الاجنبية ونتيجـــة الأطماع الاجنبية .

وبدا العدوان على الاقليم السوري ، وحشدنا قواتنـا ، وبدأت المعـــارك تحتدم على الحدود السورية الاسرائيلية . أرسلنا الى قاسم العراق رسالة وقلنـا له : إن الامور بيننا وبين اسرائيل تنذر باصطدام ، ونحن ننوي ، اذا بـدأت اسرائيل بالعدوان ، ألا تنتهي المعركة بل تستمر الى النهاية . ونطلب من العراق الشقيق ، وفقاً لاتفاقياتنا العسكرية ، أن نضع هذه الاتفاقية موضع التنفيـذ .

وكان من الواضح ان معنى هذا أننا اذا اشتبكنا مع اسرائيل فلن نستدعي العراق . واثبتت محاكمة عبد السلام عارف ان اتهام الجمهورية العربيـة المتحدة كذب وبهتان ؛ وبدأت الحملات ضدنا ، وضد الجمهورية العربية المتحدة .

وكانت أكاذيب لا تستهدف إلا خلق الفتنة بين الشعب،واختلاق الأكاذيب للتفرقة بين العرب ، والدس على القومية العربية .

وأردنا أن ننهي هذه المرحلة ، واتصلنا بقاسم ، وكان يعمـل بسياسة ذات اوجه متعددة ، لا وجه واحد ، فكان يقول : انه سينتهي غداً ، وسنسير سير الاخوة الأحباب ، ولكنه كان يدفع عملاءه ، هؤلاء العملاء الاذنـــاب الذين تتكون منهم محكمة السب في العراق .

ان عبد الكريم قاسم يقوم اليوم في العراق بالدور الذي قام به نوري السعيد، وكل اعداء القومية العربية ، انه لا يهاجم إلا الجمهورية العربيـة من دون العـالم جميعاً . قلنا الف مرة : إننا لا نفرض إرادتنا على اي شعب ، لأن فرض الارادة معناه الضعف ..

وكل يوم ينكشف عبد الكريم قاسم ويظهر ...

انه يتكلم عن دوره سنة ١٩٤٨ في حرب فلسطين في كفر قاسم ؛ هل نسي « ماكو اوامر »؟.. لقد كان هذا سبب ثورة الجيش العراقي على الحكم البائـــد

هناك . قال انه قعد في كفر قاسم ، ولم يجرؤ اليهود ان يتصدوا له أبـداً . ومن الطبيعي ان الذين ذهبوا الى فلسطين كانوا قد ذهبوا هناك ليهاجموا وليحتـلوا الأرض العربية . اما هو فيقول انه خرج بمفرده الى الخطوط الامامية وتحـدى العدو .

انا لا اناقش أبداً ما عمل في الخطوط الأماميـة ، وقصص ابو زيد الهلالي كلها ، نوافق عليها ... عبد الكريم قاسم لا يستقيم له هذا التفاخر ، وهذا المجد إلا بالهـدم . كلنا نعرف ما حدث في الفالوجه . كنت في منطقـة عراق المنشية ، وهاجمنا اليهود مرتـين ، في الوقت الذي كان عبد الكريم قاسم يتمشى امام اليهود عنـد كفر قاسم . ان قاسم لا تستقيم الامور له وهو يفـاخر ، الا بمحاولة هدم أي صحيفة نظيفة ، واي صحيفة نستطيع ان نفخر بها .

إن قاسم يقف على بعد ألف ميل من حـدود اسرائيل ويقول : ان الجمهورية المتحدة ، وتعدادها ثلاثون مليوناً ، كيف لا يتبعون المباغتـة التي يتبعها هو ، ويخلصوا اسرائيل في ٢٤ ساعـة .؟ – أين هي المباغتة التي رأيناها من عبد الكريم قاسم ؟...

نحن نعرف أنه باغت الشعب العراقي ، وقتل منه عشرة الاف . سحلوهم في الشوارع ودفنوهم احياء . وباغت الذين قاموا بالثورة وشنقهم كلهم . باغت كل شيء ضد مصلحته . باغتنا نحن بعد أن ساندناه في ١٤ يوليو – تموز – ووقفنا معه. وانقلب علينا . وبقي الحرب العوان ضد القومية العربية . وباغتنا بعد ذلك ، عندما حشد اليهود قواتهم على حدود الاقليم السوري . باغتنـا بأنه لم يرد علينا حتى الآن . وباغت الشعب العراقي بأن لم يبق احـد هناك آمناً على يومه ولا على اولاده .

هذه الأساليب التي كشفناها تـدل على أمراض نفسية عصبية ، ومركبات نقص . قال قاسم : أنا الذي عملت الثورة . ولا يقول إنه ساعـة الثورة كان خارج بغداد وعاد الساعة الحادية عشرة ، وقد تمت الثورة في بغداد ؛ كان ينتظر النجاح ليدخل ويباغت الذين قاموا بالثورة ويشنقهم جميعاً ، وبعد ذلـك يقول

انه هو الذي حارب حلف بغـداد ، وانه قاوم الاستعمار ، وانـه واجه الحصار الاقتصادي . وانه هو الذي حطم قواعد الاستعمار ، وانه واجه العزل . وانه واجه احتكار السلاح ولم يبق امامه الا ان يقول انه امم قناة السويس ...

أما دعوته الى الهلال الخصيب فهي قديمـة . قال إنه يريد أن يحرر الشعب السوري والشعب المصري والشعوب العربية كلها . نحن نتمنى ان يوفق الله عبد الكريم قاسم ، ويحرر شعب العراق من البلاوي التي وضعـه فيها بعد ١٤ يوليو – تموز – ، يحرر شعب العراق من الظلام الذي وقع فيه . إنه يقول إنه يستطيع ان يبعث الجيش العراقي ليحتل سوريا . ونحن نقول له : أهلاً وسهلاً ، لقد طلبنا منه منذ تسعة شهور ان يرسل الجيش العراقي ليقف معنـا ضد اسرائيل ، ونحن لا نعتقد ان الجيش السوري والجيش المصري يقفان ضد الجيش العراقي ، لأنهـم جميعاً عرب . وكل واحد منهم يؤمن بالقومية العربية . **ولن يرتفع سلاح عربي ضد سلاح عربي .**

وقال بن جوريون إن أي تهديد لعبد الكريم قاسم سيجعله يتدخل ، لأن عبد الكريم قاسم يحقق اهدافـه بطريقه ، او غير مباشرة ، بتفريق الصف العربي وبخلق ثغرة داخل التضامن العربي ..

وعندما قامت ثورة الموصل في العراق بقيـادة الشواف ، وجهت الاتهامات الى الجمهورية العربية المتحدة . وجهوا السباب اليكم والى قادتكم . وكانوا بهـذا يعبرون عن الحقد الأسود الشيوعي . ويبثون الحقـد في النفوس ، حتى تسود الشيوعية في العراق ، وحتى يسود الإرهاب ، وحتى تسيل الدماء ، وحتى يقوم هلال خصيب شيوعي أحمر ، يخضع للتبعية ، ويخضع للاستعمار الجديد .

وقلت لعبد الكريم قاسم : كل ما أرجوه ان توحد بلدك قبل ان تتكلم عن وحدة او اتحاد ، وحتى لا تؤدي الى حرب اهلية . واعلنا اننا لا يمكن ان نفرض الوحدة ، بل اننـا لا يمكن ان نقبل الوحدة مع اي بلد عربي إذا لم يجمع البلد العربي كله على هذه الوحدة .

ولست انا الذي اقرر لأي شعب من الشعوب العربيــة الطريق الذي يتعين عليه ان يسلكه ، ولا تلك مسؤوليــة الجمهورية العربية المتحدة ، وإنمـــا ذلك أمر متروك لرغبة كل شعب وكل جماعة . إن الوحـــدة لا تفرض ، وإذا فرضت الوحـــدة فلن يكون ذلك مبعث قوة ، وإنما سيكون مبعث ضعف وتفكك . إن مستقبل الوحـــدة تقرره القوة ، وتقرره الإرادة المستقلة لكل شعب عربي . اما نحن فقد اعلنا موقفنا : إننـــا على استعداد لأن نقبل كل ارادة حرة ، لكل شعب عربي ، إذا أراد أن يتحد معنا فاننا نوافقه ، واذا اراد ان يقوم بيننا اتحاد فيدرالي فإننـــا على استعداد ،وإذا أراد ان يكون بيننا التضامن العربي فذلك اقصى ما نريده . .»

●

هذه صورة ثورة العراق وموقف جمال منها ، من جماع كلمات متعددة تحدث بها الرئيس في عديد من المناسبات ، ترسم الصورة التي لا تحتاج بعـــد ذلك الى كلام آخر .

لقد قامت ثورة العراق على نفس الأسس والمبادىء التي تقوم عليهـــا القومية العربية ، ولكن عبد الكريم قاسم انحرف بالثورة ، وقـــام بالاستمرار في دور نوري السعيد .

وكان هدف جمال عبد الناصر من مساندة ثورة العراق ، « قيام سدٍ عالٍ ضد مناطق نفوذ الاستعمار وضد الصهيونية ».«... نحن في سياستنا العربية مع العراق ، نسعى الى إقامة تضامن عربي غير مبني على أي علاقة دستورية .. حتى نستطيع أن نقف ضد أعدائنا يداً واحدة » .

وفي اكثر من مناسبة ، صور جمال دور الجمهورية العربية المتحدة في مساندة كل ثورة في المنطقة العربية ، لوجه القومية العربية خالصاً :

« كان قيام الجمهورية العربية المتحدة يعني أن العرب أصبحوا قادرين على أن يحققوا مصيرهم بأنفسهم ، وكان معناه أن العرب اصبحوا في وضع يمكنهم من ان يتجاهلوا كل ارادة غير ارادتهم . وكان معنى هذا ان تيار التاريخ يسير فعلاً في

مجراه ، يسير الى الأمام ، وأن الدول الكبرى التي حاولت أن توقف هذا التيار لم تستطع أن تتغلب على التيار الطبيعي للتاريخ بالنسبة لشعب آمن بحقه في أن يطور نفسه ، ويقف كسد منيع يحفظ آمال العرب .

ان الوقوف ضد التاريـــخ مستحيل . الوقوف ضد اماني الشعب العربي مستحيل . الانتصار في معارك ضد الأمة العربية مستحيل .

إن الشعب العربي الذي كافح وقاتل ،واستشهد منه في كل ارجاءالعالم العربي المئات والألوف ، يخرج اليوم من الظلام .

ان هذا الذي نراه ، هو الضباب الذي يسبق الفجر .. »

وبنى المجتمع الاشتراكي التعاوني

« الهدف الكبير هو بناء مجتمع اشتراكي ديمقراطي متحرر من الاستغلال : السياسي والاقتصادي والاجتماعي ...

نريد أن ننهي عبودية الأرض ، والتخلص من جميع العوامل التي كونت المجتمع الإقطاعي في السنوات الماضية ، حينما سيطر علينا الأجنبي ، ومكن منا فئة قليلة من ابناء بلدنا ليكون لها كل شيء ، واستخدم باقي ابناء الوطن ليكونوا لهم عبيداً في الأرض يعملون ويعرقون ويكدون ويكدحون، ثم تكون النتيجة هؤلاء الاسياد الذين يعملون للاستعمار ، أعوان الاستعمار ، ليمكنوه من رقابنا ويمكنوه من بلادنا .

أرحب بالفلاح وقد أصبح سيد نفسه . أرى الإقطاع وقد انهار ، لأنه لم يكن بأي حال من الأحوال أمراً طبيعياً ، ولكنه كان محاولات للسيطرة بالقوة على النفوس البشرية ، وعلى أساس محاولات لاستعباد البشر للبشر .

يسعدني اليوم ان ارى الاقطاع قد انهار ..

● هذه هي الخطوات الأولى في بناء المجتمع الذي نريده ونتمناه . كنا نعمل ، منذ قامت الثورة ، على هدم آثار الماضي وهدم الاقطاع . واليوم نرى توزيع الأراضي التي أخذناها من الإقطاع لن تكفينا بأي حال . ولن نحوّل جميع الأجراء والعمال الى ملاك ، وكنا نعرف ذلك ، ولكنا حينما قضينا على الإقطاع، إنما كنا نصحح الأخطاء التي قامت في مجتمعنا في الماضي ، ونعيد الأرض الى

اصحابها . في نفس الوقت يجب علينا أن نعمل حتى نخلق الأرض الجديدة الصالحة للزراعــة ، حتى نستطيع ان نعطي جميع الفلاحين الأرض التي تمكنهم من ان يكونوا ملاكاً . إن علينا ان نخلق أكثر من الستة ملايين فدان .

● .. إن المجتمع الذي نتمنـاه هو مجتمع مبني على العدالة والحرية والمساواة ، والقضاء على الاستغلال وعلى سيطرة الإقطاع أو سيطرة رأس المال. وأن يكون ابناء هذا الوطن يشعرون انهم احرار .

لكي نقيم المجتمع الذي يزيد الدخل لكل فلاح ولكل مواطن ، سرنا في بناء « السد العالي » بكل وسيلة من الوسائل . بل حاربنا في سبيل بناء السد العالي وتوفير المياه التي تضيف مليونين من الأفدنة الى الرقعـة الزراعية ، وبهذا نزيد دخلنا بالثلث . ونستخدم مياه النيل التي تذهب الى البحر . سيحقق السد في أربع سنين تخزين ٨ مليارات متر مكعب من المياه . وبهذا يتحول عدد كبير من الأجراء إلى ملاك .

كان الإقطاع يسيطر على الحكم ويمثل الاستغلال والاستبداد والسيطرة .

● في السنوات الخمس القادمة ، لا بد ان يزيد الدخل من ٤٠ الى ٤٥ في المائة ، وفي السنوات الخمس التالية نزيد الدخل القومي ٦٠ او ٥٠ في المائة .

● في نظامنا الاشتراكي التعاوني ، نعتبر ان الدولة لهـا الولاية على كل شيء ، على الملكية الخاصة والملكية العامـــة ، والدولة مسئولة عن حماية الفرد من أي مستغل . الدولة مسؤولة أنها تحمي .

● اننا اعطينا الحرية لرأس المال الخاص ، ثم يدخل رأس المال العام الذي هو قطاع الدولة لموازنة رأس المال الخاص ، ولمنعه من السيطرة على الحكم في نفس الوقت ، والدولة لها ولاية ومسؤولية .

ستدخل الدولة في خطة التنمية ومشروعات الانتاج بحوالي ٧٠ في المائة .

● ان الحكومة على أتم استعداد لأن تتعاون مع رأس المال الخاص ، وتوفر له السبل بكل وسيلة . رأس المال الخاص ورأس مال الدولة يتكاتفان في سبيل الخير العام للجميع ، ما دام رأس المال يسير في طريقه بدون محاولة الاحتكار،

أو بدون استغلال نفوذ او بدون محاولة للسيطرة على الحكم .

● على الحكومة ان تحمي الصناعة من المنافسة الأجنبية ، وذلـــك بأن تمنع استيراد الاصناف المماثلة التي تنتجها هذه الصناعة، على الا يكون هناك استغلال لزيادة الأسعار .

● ان بناء البشر هو الصعب العسير لأننا لن نتمكن من أن نطور بلدنا كما نريد وكما نحلم به ، الا اذا كان هنـــاك في كل مكان ، وفي كل قرية ، وفي كل كفر ، القادة الذين يطورون هذا المجتمع ؛ ولا يمكن لقائد واحد او لفئة قليــلة من الناس ان تطور المجتمع وترسي الأساس ، الا اذا كان هناك قـــادة على جميع المستويات .

ان قيام الاتحاد القومي هو حماية او ضمان لبنـــاء المجتمع الاشتراكي المتحرر من الاستغلال . »

●

هذه مـــــلامح من صورة المجتمع الاشتراكي التعاوني الذي حلم به جمال عبد الناصر وعمل على بنائه لبنة فوق لبنة ..

وعندما وقف جمال عبد النــاصر في أسوان وهو يطلق الشرارة الأولى في كهربة الخزان قال :

«إننا كنا نعمل في الماضي ، وكانت الكلاب تعوي من حولنا ، اننـــا نعمل الآن ايضاً والكلاب تعوي من حولنا ، ولكن القافلة تسير ، تسير اقوى عزماً وأقوى تصميماً ،وسنعمل ايضاً في المستقبل ، ايها الإخوة المواطنون،والكلاب تنبح من حولنا ، ونحن اقوى وأشد تصميماً وأشد عزماً وإيماناً – وان هذا العواء لن ينتهي ابداً بأي حال من الاحوال ، لأن قيام الجمهورية العربيةالمتحدة في هذه المنطقة من العالم انما هو تعبير عن ارادة شعب الجمهورية العربية المتحدة في الشمال والجنوب ، وليس تعبيراً عن ارادة مستعمر اوغاصب او بلد اجنبي ، فرض إرادته كما تعود على ان يفرض هذه الإرادة في الماضي » .



« لقد بدأت طلائع الوعي العربي تتسلل الى تفكيري وانا طالب في المدرسة الثانوية . عندما كانت مشاعري تهتز واحساساتي تتفاعل مع كل ما يدور في الوطن العربي من احداث . وكانت اهم الاحداث التي ملكت علي تفكيري في ذلك الوقت ثورة العرب في فلسطين وفظائع فرنسا الوحشية في سوريا . »

« الناصرية »

لقد ترددت هذه العبارة كثيراً في كتابات الغرب كضوء جـــديد ظهر في ليل العـــالم العربي . ونحن لا ننكر ان هنـــاك تياراً جديداً قوياً باهراً قد انبثق في قلب الأمة العربية على يد ناصر، غير ان فهمنا له غير فهمهم القائم على التعصب ، والبعيد عن نزاهة التقدير وعمق النظر . ان « الناصرية » هي صيحة الايمان بالشخصية العربية وإعادة الثقة الى النفس العربية ، هــذه الثقة وهذا الايمان اللذين اهتزا طويلاً في خلال فترة تزيد عن نصف قرن ، بفعل الضربات المميتة التي وجهها الاستعمار واعوانه إلى روحنا وعقلنا .

لقد كانوا يطمعون بالتلقين المتصل والحرب النفسية ، وبعث التيارات المضللة والشعارات الزائفة أن يحطموا قوتنا كأمـــة ، ويشككونا في قيمنا وشخصيتنا؛ لقد استمرت هـــذه الحرب سنوات وسنوات ، واتصلت بالفكر والسياسة والمجتمع ، وحملت أهواء التعصب وحثالات الأفكار الغربية ،وقام عليها رجال استعماريون كانوا يستهدفون « تغريب » كياننا ، ومسخه ، وسحق مقوماته التي صاولت في الماضي وانتصرت في معارك دامية منذ سبعمائة عام .

فإذا كان هناك تيار جديد يحمله ناصر ، فإنما هو تحريرنا من هذه الأكاذيب التي ظل الغرب الاستعماري يبثها في عقولنا ،وكشف الأضاليل التيخدعونا بها، وفضح المؤامرات والمناورات التي كانت تجوز على حكام ما قبل الثورة .

« لا » !.. لأول مرة

إن جمال عبد الناصر هو ابن هذه البيئة العربية. إنه الإنسان الذي تجسدت فيه احلامها وآمالها ومشاعرها ، هذه الأحلام التي عاشت في ضميرنا طويلاً. جاء

في اوانه وإبانه ليحمل المشعل . وجاء ليصحح الأخطاء التاريخيـــة التي ظل الاستعمار يرددها في هذه المنطقة ، ويحـاول ان يقنع الامة العربية بها ؛ والتي انخدع لها بعض الناس ، والتي جعلها قوام سياسته في حكم هذه الامة والسيطرة عليهـــا .

ولأول مرة يواجه الاستعمارُ في هذه المنطقة رجلاً يقول رأيه في حرية وقوة . وزعيماً يقول «لا» اذا كان الامر ضد صالح وطنه . وقائداً يرد الضربة بأعنف منها . ورائداً تلتف حوله القلوب فلا تفلح المؤامرات المتعددة المنوعة المتصلة في صرف هذه القلوب عنه ، بل تزيد هذه المؤامرات ثقة امته الكبرى به ،وتعلقها بسياسته وايمانها بأهدافه .

ولقد كان عبد الناصر في موقفه هذا مثلاً عالياً للخلق : انه وهو المؤمـــن بالكرامة فلا يقبل ان يتهاون فيها مرة ،او يرضى عن ان يصيبها ذرة من مساس، لا يصادم ولا يعنف ولا يطلب المستحيل ولا يعامل الاستعمار الا باسلوب العقل والحكمة .

فهو في عنفوان خصومة الغرب له، كان دقيقاً في مواجهة هذه الخصومة . انه يعلن مسالمته لمن يسالمه ، ومعاداته لمن يعاديه ؛ انه يبسط يده مـــع الكرامـة والمساواة ومعاملة الند للند لكل من يعامله . انه لا يرفض التعاون مـع الغرب أو الشرق ، ولا يتعصب لثقافة معينة ، او مذهب معين .

انه يؤمن بوطنه اولاً ، وطنه العربي الكبير ، ويؤمن بحق هذا الوطن في أن يكون حراً قوياً عزيزاً ؛ وهو في ظل هذا الايمان يعمل . وهو لا يطلب المستحيل ولا يجبر التيار المندفع على التحول ، ولا يؤمن بالطفرة ولا الجمود . وانمـا يؤمن بالحركة والحياة .

وهو في هذا يريد ان أن يسابق الزمن ، ذلك أنه يريد أن يعوض التـــأخير الذي اصاب الأمة العربية نتيجة توقفها زمناً طويلاً ، حين جمّد الاستعمار قواها، وأوقف نموها ، وحال دون اندفاعها في الطريق الذي تندفع فيه الأمم الحية .

مواجهة الاستعمار

لأول مرة يقف سياسيٌ عربيّ على المنبر ليواجه الاستعمار والغرب بهـذا الأسلوب الفذ .

تصمم مصر على أن تضرب للعالم المثل الأعلى في ان بعض الدول الصغرى والضعيفة اذا ارادت وصممت أن تحافظ على كرامتها وسيادتها فلا بد ان تحافظ عليهما ...

«في هذه الأيام الحاسمة من تاريخ العالم التي يسمع فيها صليل سيوف انجلترا الدولة العظمى ، وسيوف فرنسا ، الدولة الكبرى ضد مصر ، تطالبان باغتصاب سيادة مصر ، أعلن اننا سنحافظ على سيادتنا . لن ترهبنا الدول الكبرى . ولن ترهبنا المؤامرات ولا الوعيد .

نحن نؤمن بحقنا في الحياة . وسندافع عن هذا الحق . ولن نسمح للمستعمر ان ينتقص من سيادتنا . هذه هي اهدافنا التي نادينا بها منذ ان قامت الثورة . وهي أن ندافع عن العزة والحرية والكرامة . ولن يرهبنا التهديد. ولن نتخاذل عن هذا الحق الى آخر قطرة من دمائنا .»

كان هذا الكلام جديداً على الغرب . لم يكن الاستعمار يتوقع ان يسمع هذا الكلام ينبعث من المنطقة العربية . لقد تعوّد في خلال سبعين عاماً أن يجد من حكام العرب من يسمع ويطيع . كانت عبارة واحدة تقـال في مجلس العموم البريطاني تهز الحاكم العربي أيـاً كان . كان التهديد بتحريك مركب واحد من قبرص يسقط الوزارة . ولكن جمال عبد الناصر لم يكن حاكماً بالمعنى المعروف المتداول ، وانما كان رائداً وزعيماً وقائداً . كان ثائراً يحمل فكرة ذات هدف واضح . كان انبعاثاً جديداً يريد ان يرسم مـلامح صورة الشخصية العربيـة في أقوى مظاهرها . كان رد الفعل الطبيعي لسياسة الاستسلام والتخاذل والسير في ركب الاستعمار . كان صدى الصوت للمعنى الذي كان يعيش في قلوب الملايين من العرب ويتطلعون الى ان يروه مجسداً في انسان .

وهو يؤكد دائماً هذا المعنى : اننا لسنا عبيداً لأحد ، أو تحت وصاية احد :

« من الذي جعلكم اوصياء علينا ! . هل طلبنا منكم الوصاية ؟.. نحن شعب حر . مستقل . لا نقبل ابداً الوصاية » .

واستطاع عبد الناصر ان يحطم التحكم والوصاية . فعل ذلك على أوسع نطاق في احتكار السلاح . عندئذ انهارت كل خططهم ، ولم يبق هناك تحكم عن طريق احتكار السلاح ، ولم يبق هناك سيطرة .

ولكن هل كان جمال عبد الناصر في خطواته يستغل أساليب دون كيشوت او يضرب على غير هدى ، حتى يحقق حلم العرب في بطل أسطوري أو عملاق من عمالقة القصص !

كلا . إن تصرفات عبد الناصر كانت تسودها الحكمة والعمق والدستورية الكاملة . خذ مثلاً تأميم شركة قناة السويس :

« اننا نباشر حقاً من حقوقنا . ان مصر تباشر سيادتها كاملة . ان قناة السويس شركة مصرية تخضع للسيادة المصرية . وحينما نعلن تأميم شركة قناة السويس انما نؤمم شركة مساهمة مصرية ، وكلتها الحكومة المصرية عام ١٨٥٦ لتقوم بعملها . واليوم عندما نسحب هذا التوكيل نمارس حقاً من حقوقنا ، وقد قررنا ان ندفع تعويض المساهمين . لقد أممت بريطانيا صناعات الحديد والصلب والنقل البحري ، فلم يتدخل احد في ذلك . انها حرة في شركاتها المساهمة ، ونحن احرار كذلك في شركاتنا . لقد أممنا الشركة ، وسنحافظ على حرية الملاحة فيها . لقد كانت الملاحة مستمرة قبل التأميم لأنها كانت تحت حمايتنا ، وسنستمر اليوم في المحافظة على حرية الملاحة . اننا نضمن حرية الملاحة لجميع الدول » .

هذا كلام عقل منطقي منظم . انها الوطنية العميقة الغور ، القائمة على الحقائق واساليب الحكمة ، والعلة والمعلول .

وعندما تأزم الموقف وبدا خطر الحرب ، لم تفارقه الحكمة : « ليس هناك فرد واحد يريد الحرب . ولكننا سنحارب اذا هوجمنا . »

كان ظهور جمال عبد الناصر في أرض العرب هو اشارة البدء لمعارك ضخمة

بين الحرية والاستعمار في سائر مناطق الأمة العربية . كان الوطنيون يكافحون منذ وقت طويل في كل مكان ، ولكنهم كانوا في حاجة إلى نداء موحد يجمعهم، وعلم واحد يضمهم ، وصيحة عالية مدوّية من مصدر قوي قادر .

لقد كان لا بد للمعركة الضخمة الفاصلة من منار يضيء الطريق على المنطقة كلها . فكان جمال هو ذلك المنار .

لقد انطلقت القومية العربية تحقق كل يوم نصراً : في الأردن ، وفي الجزائر وفي سورية وفي عمان والبحرين ...

« هزم الاستعمار في الاردن حينما ارسل الجنرال تمبلر ليملي إرادته على الأردن . كان الاستعمار يعتقد أنه قوي ، وأنه قوة هائلة . وأن الأردن الذي يتكون من مليون ونصف مليون سيخضع ويخنع ، ولكن رئيس اركان حرب الامبراطورية البريطانية الجنرال تمبلر ، هرب من الأردن . هرب رئيس اركان حرب الامبراطورية لأن القومية العربية انتصرت » .

« وفي الجزائر استطاعت القومية العربية أن تهزم حلفاء فرنسا الذين يمدونها بالأسلحة : أمريكا وبريطانيا ودول الاطلنطي كلها . بل استطاع المجاهدون في الجزائر بأسلحتهم البسيطة المحدودة ، أن يقضوا على القوات المسلحة بالدبابات وأكبر الأسلحة ، القوات التي جهزها الإنجليز والأمريكان لتقف أمام روسيا ، أرسلوها الى الجزائر ، فلم تستطع الوقوف أمام الجزائريين » .

هذه أرضنا

إن جمال عبد الناصر آمن ، منذ اليوم الأول ، بأهمية موقعنا الجغرافي في ملتقى البحار والقارات مما جعل هذه المنطقة العربية دائماً ملتقى الغزاة والطامعين . ولا بد ان تتخذ هذه المنطقة سبيلاً لحماية نفسها ضد العدوان الخارجي ، ولا يمكن أن يتأتى لها ذلك الا بالوحدة والتجمع والترابط .

ومصر جزء من هذا الكيان العربي لا بد ان تتفاعل فيه ، وتشعر بأن ما يحيق بأي بلد عربي لا بد ان يؤثر عليها. وهي لا محيص لها من ذلك ولا مفر.

انها العضو الذي لا يستطيع ان يستغني عن الجسم الذي هو منه . والذي به حياته .

وهو يصور هذا المعنى في بساطة ووضوح :

« لقد ارادوا في الماضي ان يفرقونا .وأرادوا ان يقطعوا أوصالنا . وأرادوا في الماضي ان يدسوا بيننا قوميات أخرى ، ولكننا اليوم قد تنبهنا ، وسنأخذ من الماضي عظة وعبرة . لقد انتهت الحرب العالمية الأولى ، فماذا كانت النتيجة ؟... لقد قُسم العرب ،وقطعت أوصالهم ، ووُزعوا كغنائم وأسلاب. ولكن العرب كافحوا ، وكانوا يتفاعلون في كفاحهم ، وكانت مصر تتفاعل مع العروبة جميعاً من أجل تحقيق الحرية بين ربوع العالم العربي جميعاً .

لهذا فنحن اليوم ، حينما نعلن اننا نتفاعل مع الأمة العربية ، ونعلن أننا جزء من الكيان العربي ، لقد حاولوا ان يخدعونا .وحاولوا ان يضللونا . وكانوا يقولون لنا : ما لكم وللعرب . ولكننا اليوم وقد تنبهنا . لن نخدع ابداً .

إن الكيان العربي يمتد من المحيط الأطلسي الى الخليج العربي . كلنا شعب عربي واحد . نكافح جميعاً متحدين متكاتفين من اجل حقنا في الحرية. من اجل حقنا في الحياة . نكافح جميعاً ضد الاستعمار وضد أعوان الاستعمار . لن تقطع أوصالنا مرة اخرى كما قطعت بعد الحرب العالمية الأولى .

وبعد الحرب العالمية الثانية ماذا تم ، وماذا حدث ؟

لقد اغتصبت قطعة من قلب العروبة ، من قلب بلادنا ، لاننا خدعنا ولأننا تفرقنا . واليوم نعلن عروبتنا الحقيقية ، وتماسكنا مع العرب جميعاً حتى لا يتكرر ما مضى ، ولا يتكرر ما فات . لقد ضاعت قطعة من أرضنا . لقد محيت قومية العروبة في فلسطين ، لأننا خدعنا ولأننا تبعنا الاستعمار وأعوان الاستعمار . كانوا يقولون هنا في مصر : « ما لكم وللعرب » وكانوا يقولون للبلاد الاخرى : « مـــا لكم ولمصر » ...

هذا هدف رئيسي من أهدافنا ، يمليه علينا مكاننا ، هذا المكان الذي كان دائماً سبباً لتهديدنا وغزونا والعدوان الخارجي علينا . »

ويرى جمال أن كل معركة في أي بلد عربي هي معركتنا :

« لا نستطيع أن نقول إن معركة الجزائر ليست معركتنا ، ولا نستطيع أن نقول إن معركة الأردن لم تكن معركتنا . ولا نستطيع أن نقول إن معارك الأحلاف ليست معركتنا . لأننا إذا قلنا هذا نتنكر لعروبتنا ونتنكر لقوميتنا وأنفسنا ومصائرنا . لأن مصائرنا مرتبطة بعضها ببعض . وفي كل بلد مصايرنا جميعاً مرتبطة . لقد خلقنا هكذا في هذا المكان من العالم : مصاير البعض تؤثر في مصاير البعض الآخر . »

ظاهرة تتمثل في رجل !

ان « عبد الناصر » ليس في حقيقة أمره إلا « فكرة » ضخمة تتحقق . أو « ظاهرة » واقعية تنفذ من محيطنا العربي . فمنذ عشر سنوات كنا لا نتصور أن يوجد الرجل الذي يستطيع أن يقاوم الاستعمار ويكيل له الضربات ، ويقف في وجه مؤامراته فيفسدها . وهو اليوم في معمعان المعركة الضخمة ، يحرز الانتصار تلو الانتصار ، ويفسد المؤامرة تلو المؤامرة .

ولكنه – ونحن نكتب هذا في نهاية عام ١٩٥٨ – قد استطاع ان يصبح اكبر من الأحداث . بعد أن مرّ بالمرحلة الحاسمة ، والتي تعرضت دعوته فيها للاندحار ، عندما تجمعت عليه قوى الاستعمار كلها ، تحاول أن تقضي عليه .

لقد تعرض عبد الناصر لعدد من المؤامرات الخطيرة الرهيبة ، ولكنه استطاع ان يحبطها بقوة إيمانه وصلابة شخصيته ، وثقته بسلامة دعوته ، وتجردها من الهوى والغاية .

فقد كان قد نذر نفسه ، منذ اليوم الأول ، ان يحرر هذا الوطن الكبير ، وأن يقوم بهذا العمل إيماناً به وبرسالة الإنسانية التي حملها العملاق العربي منذ ثلاثة عشر قرنا ، فكان بها رمزاً للعدل والسلام . وقد مضى يؤدي رسالته دون ان تحول العوادي والمطامع بينه وبين أمانته . فلقد تدافع الطغاة إلى هذه المنطقة في حملات تترية وصليبية وبربرية لا تستهدف إلا تحطيم هذا المنار ،

وإسكات هذا الصوت . ولكنه لم يكن يصمت إلا قليلاً بعد كل مؤامرة ، بقدر ما يتمكن من استعادة قوته على استئناف العمل .

فعبد الناصر واحد من هؤلاء الرواد الذين حملوا أمانة القومية العربية على الأجيال ، ورفعوا مشعلهـــا في مهب رياح الاستعمار الغربي بظلمــه وتعصبه ومؤامراته .

وقـــد مرت شعلته بمرحلة الخطر واستعصت على العواصف الهوج ، ولم تعـــد الأمة العربية تصدق الأكاذيب التي يذيعهـــا الاستعمار عن طريق محطات الاذاعة السرية التي يبثها في كل مكان ، ولا الدعاوى التي تنشرها الصحف والكتب والنشرات . فقد اجتاز عبد الناصر منذ عهد بعيد معركة الثقة مع شعب الأمة العربية ، حتى بلغ مرحلة الإيمـــان به كمنقذ للعرب ، ومحرر للمنطقة ، وقوام التراث والمقدسات والأمجاد ، ومجدد لشباب الأمة الممتدة من الخليج الى المحيط .

ولقد كانت الحركة العربية ، منذ ان بزغ فجرها عـــام ١٩١٣ الى اليوم ، تمهيداً واعداداً لعصر عبدالناصر ، ورسماً لخطوط عامة وتصويراً لآمال ومشاعر أريد لها أن توضع موضع التنفيذ فانحرف بها الطريق ثمة ، فقد اعتمد القائمون بها على خصوم العرب ، واتخذوا من الاستعمار نفسه أداة لتحقيق هدفهم ، فكان هذا مصدر الخطر على الحقيقة العربية ، حتى جـاء عبد الناصر فعدل الطريق ، ودفع الآمال والأحلام والخطوط العامة الى عمليات تنفيذية ، وخطوات فعلية ، فاستطاع ان يحطم القـــلاع والحصون بسرعة مذهلة ، وأن يزيـل الصخور والجنادل في فترة قصيرة ادهشت المراقبين ؛ ولم يكن في هذا ما يتعارض مـــع طبائع الأشياء ونواميس الكون . وقد فسر عبد الناصر هذه الظاهرة بقوله :

« لقد تهاوت الحواجز والسدود لما زال الاستعمار من بلدنا ، وهكذا بدأت الاحلام والأمانيّ والرغبات تنطلق من عقالها ، وتتدافع بسرعة الكبت الطويل في مثل تدفق الفيضان . لقـد كان هذا هو التفسير الحقيقي لسرعة الحوادث في جيلنا ، وهو امر طبيعي بعد اجيال عديدة مكبوتة . »

ونحن في خلال عام واحد قد ننظر فنجد عديداً من الانتصارات وفي نفس الوقت مزيداً من المؤامرات . ففي الوقت الذي يتحطم فيه حلف بغداد وتسقط الملكية في العراق ، وهو كسب ضخم للقومية العربيـة ، نرى احتلال الأردن ولبنان ، وعندما نرى ثورة لبنان على الطغيان تبدأ ، نرى الجو يربد عند أعالي مياه النيل ،وعندما يبدأ الجلاء يتم في لبنان والعراق ،نجد مؤامرة جديدةتذر قرنها في الشرق ، واخرى تذر قرنها في الغرب ، ولكنها تتحطمان عند صخرة العقيدة الجبارة التي انصهرت فيها ثقة وايمان وأمل العرب .

وهكذا يبلغ عبد الناصر من القوة بحيث يستطيع ان يحقـق نصراً بعد كل مؤامرة جديدة ؛ ذلك لأنه يختلف عن المتآمرين وعن عملائهـم من العرب . انه يلتمس الحق ويعمل من أجله ، متجرداً لا تمتلىء نفسه بالمطـــامع ولا بالأهواء . وهذا هو سر قوته وسر جرأته وسر الضياء النفسي الذي يشع في أعماقه ويهديه الى الصراط المستقيم .

انه نموذج جديد في دنيانا الجافـــة ، يؤمن بقيم انسانية لا يفهمها الغرب الا بعسر شديد ، هـذا الغرب الذي ألف التعامل بالمقاييس المـــادية ، وفي حدود قاعدة « الأخذ والعطاء » .

ان الغرب يدهش، حينما يرى رجلاً جديداً في هذا الشرق لا يمكن اخضاعـه بالإغراء ولا بالتهديد،ولا تصلـح بالنسبة للسيطرة عليه ، الوسائلُ التي نجحت في شراء عدد من الزعماء والقادة والحكام !

إن سر قوته في نزاهته وتعاليه عن المطامع ، ووقوفه الى جانب الحق .

منقذ العرب

آمن عبد الناصر بحقيقة واحدة : هي مفتاح شخصيته ،. . . :

« أليست هذه ارضنا – ارض العرب – ... لماذا إذن يسيطر عليها الأجنبي الدخيل ، ويصطنع فيها أعواناً ويعتصر مواردها ، ويدع أهلها جياعاً فقراء ، لا يجدون الفتات وعندهم هذه الثروة الضخمة ؟. . . »

وكان إيمانه بهذه الحقيقة هو دافعه لأن يؤدي واجبه في سبيل رد هذه الثروة الغالية الى اصحابها ، الذين هم في الحقيقة أهله وإخوته وابناء عمومته . إنه بدأ دعوته بأن دعا العاملين في الميدان الى كلمة سواء . كان هدفه بسيطاً وسهلاً ويسيراً :

«ايها الإخوة الذين تحكمون هذه الاقطار العربية ، أليست هذه ارضنا . أليست ثروتها ملكنا . إذن فلماذا نكون مستعبدين للاستعمار الذي يسلبنا حقنا وحق ابنائنا واخوتنا؟..لماذا لا نتجمع لنطالبه بأن يتعامل معنا على قدم المساواة معاملة الند للند . لا عبيد ولا سادة ، ولكن اصحاب وطن وارض . نعطي التزاماتنا ، ونبيع بترولنا وخيرات ارضنا ، ولكن لا نُسلب هذه الثروة بدون ثمن ، أو مقابل الدوانيق والسحاتيت ، فنظل فقراء عرايا جياعا ، والذهب يجري في وادينا ، ليستمتع به آخرون ، يسلبوننا إياه عنوةً واقتداراً ، بحكم ضعفنا وجبننا وتفرقنا واستسلامنا ...

لماذا لا ندافع عن أرضنا وحقنا ... لماذا نذعن ونسلم لهذا الغاصب الذي يعاملنا كما يعامل العبيد ، والذي يرى أننا ، وما نملك ، ملك له ، وأنه هو ابن الجنس الابيض الذي يجب ان يكون سيّداً للملونين أمثالنا ،مدّعياً أنه إنما جاء بلادنا ليحضرنا ويقدم لنا المدنية ... محاولاً أن يحطم معنوياتنا ، ويمزق قوتنا ، ويمسخ تاريخنا ، ويسخر من أمجادنا ؟ ..»

هذه كانت دعوة جمال حين دعا العرب الى التجمع ، وحين دعا زعماء العرب الى مائدة البحث والمناقشة . ولكن زعماء العرب ، إلا في القليل النادر ، كانوا من العجز بحيث لا يستطيعون الخروج من ماضيهم الطويل ، ومن التزاماتهم ، ومن الحياة التي يحيونها بفضل الاستعمار في اوطانهم . كانوا هم في الواقع معزولين عن هذه الاوطان وعن هذه الشعوب ، يلقون المقت والكراهية ؛ ولولا القوى الرهيبة التي يواجه بها المستعمر واعوانه وعملاؤه من الحكام، صيحة الاحرار، لما توقف الكفاح لحظة .

ولكن البلاد كانت تنزل المعركة وتقدم الضحايا .. ثم تتراجع لتتجمع مرة

اخرى لتدخل معركة جديدة مع المستبدين أعوان الاستعمار وعملائـــه الذين يحكمون البلاد بغير إرادة أهلها .

وسخر بعض حكام العرب من دعوة عبد الناصر ، كانوا يرون أن مـا يقوله خيال ... كيف يمكن ان يقف العرب بعيداً عن الأحلاف وعن الاستعمار وعن الشرق والغرب ...

ولكن الشعب العربي آمن بعبد الناصر حقاً وصدقاً . فقـد كان هذا الامل يراوده ويملأ عليه جوانحه ، ولكنه كان ينتظر القائد الذي يدفعه . ولذلك فان دعوة عبد الناصر كشفت الحقائق، وفصلت بين الحـــكام الخونة العملاء ،وبين مواطنيهم المؤمنين الصادقي الإيمان بعروبتهم ، هؤلاء الذين رأوا في عبد الناصر ذلك العملاق الذي كانوا ينتظرونه ويترقبونه .

كان هتاف سرائرهم واعماقهم : متى يوجد منقذ العرب . .

وأحسوا حقيقةً أن منقذ العرب ورائدهم قد وجد .

وآمن بعض هؤلاء الزعماء بدعوة عبد الناصر وتخلف بعض الزعماء . ولكن دعوة الحق كانت قادرة على أن تنفذ الى جميع القلوب ، وأن تعمر كل الافئدة ، فلم يكن بدّ من أن تثور هذه الاوطان على حكامهـــا الظالمين وأن ترديهم وأن توردهم مورد الهلاك .

وكان لا بد لهذه الاوطان المحتلة المكبَّلة بالقيود والاصفاد أن تندفع لتطلب حقها وحريتها ، وأن تُصادم المستعمر وأن تقاومه بعنف وتواجهه في قوة ،وان تصمد في وجهه .

التجاوب

ان هذا التجاوب الصادق الذي لقيته دعوة ناصر في العالمالعربي ، وهذا الإيمانالذي سرى الى القلوب باليقين بأن جمال هـــو رمز الوحدة العربية ، والانتفاضة العربية الكبرى ، قـد القى على كاهليه مسئوليات جساماً . إن صورةجمال عبد الناصرفي كل منزل وشرفة وواجهة في بيروت ودمشق والقدس

وعمان وتونس ومراكش والخرطوم ... ولقد أجاب جمال عبد الناصر عن مثل هذا السؤال : ماذا القت هذه الانتفاضة على كاهله :

« المهم هو اتحاد الآراء والافكار . الأهداف والآمال : الإيمان المشترك الوطيد بقوة القومية العربية الناهضة . إن من يلقي نظرة على تاريخ العرب لا بد أن يقتنع تمام الاقتناع بأهمية الوحدة العربية كلها . لقد كان العرب دائماً كتلة واحدة متماسكة الى ان جاءت السيطرة الأجنبية ففرقتهم شيعاً وأحزاباً . ولذلك فإنني واثق تمام الوثوق بأنه ما ان تزول السيطرة الاجنبية كلية عن البلاد العربية حتى تتحقق الوحدة العربية من تلقاء نفسها .

والحقيقة الواضحة هي ان القومية العربية كلها جذور عميقة في سوريا والاردن . في السعودية ولبنان . في العراق والجزائر . وفي كل جزء من أجزاء الوطن العربي . لقد نمت هذه القومية العربية في تلك البلاد وترعرعت منذ أمد بعيد وذلك قبل قيام ثورتنا التي اعادت مصر الى تيار العروبة الأصيل . انها شيء ينبعث من طبيعة الشعب العربي وتاريخه الطويل . إنها قوة من قوى التاريخ ، وليست نتيجة لسياسة معينة .

اننا نعيش اليوم في دويلات صغيرة تواجه كل يوم خطر الدول الكبرى وتهديداتها ، لذلك فان الضمان الوحيد لسلامتنا هو تحقيق الوحدة العربية الشاملة .

ان اعداءنا يهدفون الى عزل مصر والدول العربية المتحررة وبناء الحواجز بيننا . انهم يقيمون الاحلاف من حولنا . »

اليد لا السيف

لماذا أجمعوا في العالم كله : سياسيين وزعماء وكتاباً ومراقبين ومعلقين ، على ان جمال عبد الناصر هو رائد العرب ..

ان جمال عبد الناصر لم يدّع هذه الدعوى ، ولم يضع نفسه في هذا المكان ، ولكن الاجماع كله قد انعقد على انه رائد العرب . يقول هذا اشد خصومه عداوة ، قبل ان يقوله أنصاره والمؤمنون به .

لماذا حدث هذا ؟ هل هذه الدعوة التي دعا إليها كانت جديدة لم يسبق احد الى النداء بها ؟ .. هل حمل الناسَ على فكرة مبتدعة لم يعرف طريقها الزعماء الذين ظهروا في الأمة العربية والعالم العربي من قبل ...

الواقع أن لا : إن دعوة جمـال عبد الناصر كانت من البديهيات في التفكير العربي ، وكانت من الآمال التي طالما رددها ، بالحق او بالباطل ، زعماء كثيرون في العالم العربي منذ وقت بعيد ، قيل انه بدأ في مستهل هذا القرن او من عام ١٩١٣ على الاكثر ، عندما عقد المؤتمر العربي الاول في باريس .

ان زعماء كثيرين في العراق وسورية والحجـــاز وتونس بل ومصر ، كانوا يتحدثون عن الوحدة العربية ... وأمامي مجموعات ضخمة من مقالات ودراسات ونداءات في هذا الشأن . كان بعض هؤلاء الزعماء خادعين ، عملاء للاستعمار ، كاذبين في دعواهم .

اذن فلماذا كانت صيحة جمال عبد للناصر جبارة مدوِّية ، جمعت القلوب في جميع انحاء العالم العربي ، وازعجت الاستعمار ازعاجاً شديداً ..

مردُّ ذلك إلى المثل الذي يقول : ليست العبرة بالسيف ، ولكن العـــبرة باليد التي تضرب به .

وهذا قول صادق كل الصدق ، فقد كانت دعوة جمال تحمل نفس الفكرة القديمة ، فكرة الوحدة بين العرب ، ولكن الاختلاف كان في « مفهوم » هـذه الوحدة ، وفي الأساليب التي تتخذ في تنفيذها . وفي مقاصدها واهدافها .

لقد دعا الشريف حسين الى الوحدة العربية ، ولكن في ظل بريطانيا . وكان أغلب الزعماء والدعاة يرون هذه الوحدة في نطاق دولة كبرى تساندهم ، وتحقق لهم أملهم وحلمهم الذي عاشوا ينتظرونه أعواما .. حلم قيـــام الدولة العربية .

ولكن هؤلاء الدعاة كانوا واهمين مخدوعين . ذلك لأن بريطانيا والاستعمار ، بمختلف انواعه وصوره ، لن يسمحوا بقيام هذه الوحدة ، لأنها مناهضة لهدفهم ، مخالفة لهواهم ، ذلك أن رسالتهم كانت ولا تزال ، منذ اليوم الأول ، تمزيق هذه

الأمة إربا ، الى اقطار ، ثم تمزيق هـذه الأقطار الى سُنّة وشيعة ومسلمين ونصارى وعرب وبربر ، وتمزيق هذه الشيع الى أحزاب وجماعات ؛ ثم يثير الاستعمار الخلافات بينهـا فيضرب بعضهـا ببعض فتظل تتقـاتل وتتصارع وتتطاحن ، ويحكم هو ويأمر .

وبالرغم من أن الاستعمار قد خدع العرب في الحرب العالمية الأولى خدعـة كبرى ، فإنهم لم يلبثوا ان ساروا في ركابه مخدوعين مرة اخرى في الحرب العالمية الثانية . لذلك فقد كان من العسير ، قطعاً ، أن يصل زعماء العرب المؤمنون بالاستعمار الى تحقيق حلم العرب ، ولكنهم كانوا لا يستطيعون فكاكاً من سلطانه المسيطر وقوته المتحكمة ؛ فقـد عاشوا في كنفه ، وتربوا على موائده ، وكانوا صنائعه ورجاله ، يأتمرون بأمره ويسلمون له ، فلم يكن من الممكن قطعاً أن يصلوا الى شيء . هذا فضلاً عن ان بعض هؤلاء الزعماء كانوا خونة في الحقيقـة لأوطانهم ، كانوا يعملون لأنفسهم ولمطامعهم ، فـلم يكن من المعقول ان يحقق هؤلاء لأوطانهم حرية او كرامة .

أما جمال عبد الناصر فقد كان غير ذلك تماماً . كان نقيضاً لهذا كله . شخصية مفطومة عـن الشهوات ، أوتيت القدرة على الايمان بفكرة واضحة صادقة ، والعمل لها . كانت الرغبة الشخصية والدافع الذاتي معدومين عنده . لم يكن من طلاب المال ولا الجـاه ولا المنصب . وإنما هو رجل من صميم الشعب ومن أوساطه ، احس بان وطنه العربي الكبير مقيد بالسلاسل ، وانه يعيش في ظلمات كثيفة ، وان هذا الليل الذي طواه قد امتد . لماذا ؟ إن الأمة العربية تعيش في عواطف غالية ، وفوارة ، وتؤمن إيماناً صادقاً بحقها في الحرية . وانها بين الحين والحين تندفع لتنفس عن مشاعرها فيردها الاستعمار وعملاؤه في كل وطن .

عندما تنطلق هذه الأفواج من الناس لتعلن رأيهـا ، يرديها الرصاص ويهدر دماءها فيسقط افرادها شهداء كراماً يضرجون الثرى بدمائهم .

وفي كل يوم تسمع هـذه القصة تتكرر ، في الجزائر ، في سوريا ، في العراق ، في فلسطين ، في مصر . وتسقط الضحايا وتغلـق السجون على من فاتهم الموت

وتنتهي القصة .

ماذا تفعل الجموع المؤمنة الضخمة غير هذا ...

انها تبحث عن القائد الذي يدفعها الى الطريق . لقد كان هذا المعنى يجري في اعماق القلوب ويتمثل احياناً في كلمات تكتب هنا او هناك ثم تذهب مع الايام ...

« متى يوجد منقذ العرب » ...

ما هي الصورة التي يحملها الناس في العالم العربي لهذا المنقذ ..

انهم كانوا يبحثون عن زعيم يستطيع ان يقف في وجه الاستعمار . وفي وجه بريطانيا بالذات ! يقف ويصمد ويكيل الضربات ويرد الصاع صاعين ، ويقاوم المؤامرات !

لطالما وقف زعماء أحرار أبرار أمام بريطانيا وأمام الاستعمار ، ولكنهم عجزوا امام القوة الاستعمارية التي كانت اذ ذاك في فتوتها وشبابها ، فانهزموا بالتآمر والدس والخديعة والغدر ، وماتوا في ميدان المعركة شهداء ابراراً .. وانطوت صفحتهم ؛ ولكن كل واحد من هؤلاء كان يقاوم في حدود وطنه الضيق .

وجاء عبد الناصر فتبلورت فيه الآمال كلها . كان الرجل الأول الذي استطاع ان يقف امام بريطانيا بقوة وان يحطم قوتها ويسدد لها ضربات مميتة . وكان الزعيم الاول الذي جمع الناس على الهدف بأسلوب ايجابي واضح .

كان قوام دعوته الحياد الايجابي بين المعسكرين المتنازعين . ثم القوة المادية : قوة السلاح . ثم تجمع القلوب على الهدف . والكشف عن عملاء الاستعمار والخونة ، ثم إمداد المجاهدين بما يمكنهم من مواصلة الكفاح والمقاومة .

نقطة البدء

انه السؤال الذي يثار دائماً : كيف اتجه عبد الناصر الى العمل في الحقل العربي ؟ ما هي نقطة البدء ؟ ولماذا لم يفعل عبد الناصر مثلما فعل غيره من الثوار وقادة الحركات الوطنية ، حيث كانوا دائماً يعملون في محيطهم الإقليمي ،

على الأقل في المرحلة الأولى للثورة ، والى أمد غير قليل ؟ . .

الواقع أن جمال عبد الناصر كان ينظر الى الأمور نظرة واقعية ، فلم تكن مصر في الحقيقة هي القومية ، وإنما كانت هذا الجزء المنتزع من مجموع الأجزاء التي تسكن هذه المنطقة التي تتحدث اللغة العربية ، وتمتد من المحيط الأطلسي الى الخليج العربي .

انها نظرة الرجل العسكري الثائر ، وليست نظرة الرجل السياسي . وكان لا بد ان يختلف جمال فى هذا مع الاتجاهات المزيفة المصنوعة التي كانت سائدة قبل الثورة ، والتي لم تكن في حد ذاتها « تيارات طبيعية » قائمة على اساس من الحقائق الواقعة .

لقد كنا في اتجاهنا الى الحدود المصرية انما نعيش في ظل « رأي » استعماري فرضه الاحتلال البريطاني علينا خلال سبعين عاما ، وزيف به حقيقتنا الواضحة القائمة على اننا جزء من أمة واحدة لا يمكن فصم عراها ، ولا الفصل بينها . وانما كان هذا الالحاح على « المصرية » يهدف في اعمق اعماقه الى عمليـة العزل والتمزيق ، او ما يطلق عليه في الشام والعراق « التجزئة » .

ولكن ، ألم يكن جمال عبد الناصر قد عاش معنا في هذا الجو الذي صنعه الاستعمار ، وهذه المذاهب الثقافية التي صنعها الاحتلال البريطاني ، والتي حاول بها ان يجعلنا نؤمن بمصريتنا ، لا على أنها جزء من كياننا العربي ، بل على أنها غاية الغايات ، وقمة القمم ، حتى يتقطع بها ما بيننا وبين العروبة الأم في سائر اقطار الامة العربية من أسباب ووشائج ؟

نعم : عاش جمال معنا ، واستمع الى تلك الصيحات زمناً ،ولكنه لم ينخدع بها ، بل لعله قد استطاع بذكائه وفطنته أن يتبين ما في هـذه الدعوة من حق يراد به باطل ؛ فقد اشترك في مطلع شبابـه في إضرابات لأجل فلسطين ، وقرأ عن ثورتها عام ١٩٣٥ ، ولعله جمع لها من التبرعات ما استطاع الى ذلك سبيلاً .

ولعله قد ادار في عقله فكرة هذا العدوان اليهودي الغادر على قطعة أرض العرب ، وكان اذ ذاك يشارك فى مقاومة العدوان البريطاني على مصر حين الغت

بريطانيادستور ١٩٣٠ وحالتدون عودة دستور ١٩٢٣. وعاصرتصريح هور في هذا الشأن ، فهب يقـــود شباب مدرسته ومدارس مجاورة للاحتجاج على هذا العمل الخطير .

ثم لم يلبث أن درس الاستراتيجية في الكلية الحربية وكلية أركان الحرب ، وعرف كيف ان المنطقة العربية كلها منطقة واحـدة لا يمكن الدفاع عن جزء منها دون جزء آخر ، ولعله قد عرف ذلك بالرغم من أن التاريـــخ العسكري والاستراتيجية كانت تدرس وفق أساليب استعمارية في خلال العهد الماضي . ثم قرأ تاريخ المنطقة ، وكيف خـــدع الانجليز العرب في الحرب العالمية الاولى ، وفرقوا الوطن العربي ، وأقاموا اسرائيل شوكة في جسده .

وعاصر جمال عبد الناصر الحرب العالميـــة الثانية ، وقرأ انباء ثورة رشيد الكيلاني في العراق ثم ظهور الجامعـــة العربية ، وكيف انها كانت اداة لفثء المشاعر الجياشة في نفوس العرب ، وعملاً خداعاً براقـــاً ، كان بعيـد الأثر في هزيمة فلسطين .

ثم لم يلبث جمال عبد الناصر أن وجد نفسه في خضم المعركة ، وفي بوتقـــة الأحداث ... وبعد ان كان يعيشها مدرساً في كلية أركان الحرب يلخصها لطلبته في محاضرات ، اصبح يعيش واقعها ويشارك فيها مشاركة حقيقية ..

وتلك كانت حكمة القدر : ذلـــك القدر الذي كان يعد جمال عبد الناصر ليكون بعد ذلك بسبع سنوات رجلاً يرفع عقيرته بالدعوة الى شيء جديـد .. ولكنه كان موجوداً ، غير ان احداً لم يدع الأمة العربية إليه بهـــذا الأسلوب الجديد .

●

«انا اذكر ، فيما يتعلق بنفسي ، ان طلائع الوعي العربي بـدأت تتسلل الى تفكيري ، وانا طالب في المدرسة الثانوية ، أخرج مع زملائي في اضراب عام في الثاني من شهر نوفمبر – تشرين الثاني – من كل سنة احتجاجاً على وعـــد بلفور الذي منحته بريطانيا لليهود ومنحتهم به وطناً قومياً في فلسطين، اغتصبته

ظلماً من أصحابه الشرعيين .

وحين كنت اسائل نفسي في ذلك الوقت : لماذا أخرج في حماسة ، ولمـــاذا اغضب لهذه الأرض التي لم أرها .. لم اكن اجد في نفسي سوى اصداء العاطفة .

ثم بدأ نوع من الفهم يخالج تفكيري حول هذا الموضوع لما اصبحت طالباً في الكلية الحربية أدرس تاريخ حملات فلسطين بصفة خاصة ؛ وأدرس بصفة عامة تاريخ المنطقة وظروفها التي جعلت منها في القرن الأخير فريسة سهلة تتخطفها انياب مجموعة من الوحوش الجائعة .

ثم بدأ الفهم يتضح ، وتتكشف الأعمدة التي تتركز عليها حقائقه ، لما بدأت أدرس وانا طالب في كلية أركان الحرب حملة فلسطين ومشاكل البحر المتوسط بالتفصيل . ولما بدأت ازمة فلسطين كنت مقتنعاً من أعماقي بأن القتال في فلسطين ليس قتالاً في ارض غريبة ، وهو ليس انسياقاً وراء عاطفـــة وانما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس .

واذكر يوماً عقب صدور قرار تقسيم فلسطين في شهر سبتمبر - أيلول - ١٩٤٧ عقد فيه الضباط الأحرار اجتماعاً ، واستقر رأيهم على مساعدة المقاومة في فلسطين ؛ وذهبت في اليوم التالي أطرق باب بيت الحاج امين الحسيني مفتي فلسطين ، وكان ما يزال يعيش في الزيتون وأقول له :

- انكم في حاجة الى ضباط يقودون المعارك ويدربون المتطوعين . في الجيش المصري عدد كبير من الضباط يريد ان يتطوّع . وهم تحت امرك في اي وقت تشاء . »

•

ثم عاد فصور كيف كانت الفكرة العربية تملأ نفسه بصورة عملية واقعية ، وليست عاطفية شاعرية :

«لقد تبلورت في ذهني فكرة القومية العربية ، كمذهب سياسي ، عندما كنا ندرس في كلية أركان الحرب المشكلات الاستراتيجية الخـــاصة بمنطقة الشرق الأوسط . وكنت قد قرأت تاريخ العرب منذ أقدم العصور ، وعلمت انه عندما

كان العرب وحدة متماسكة استطاعوا رد المعتدين على اعقابهم . كما حـدث أيام الحروب الصليبية . ولكن بعد ان فرق المستعمرون بـين العرب ، أصبحوا عرضة للهزيمة ، وفريسة للسيطرة الاجنبية .

وكانت هذه الحقيقة ماثلة أمام عيني طوال فترة المناقشة التي كانت تدور حول وسائل الدفاع عن مصر . ولأول وهلة ، اتضح لنا أن مصر ، مثلها في ذلك مثل كل جزء من اجزاء الوطن العربي ، لا يمكن ان تضمن سلامتها إلا مجتمعة مـع كل شقيقاتها في العروبة ، في وحدة متماسكة قوية .

والشيء الثاني : أن موقع مصر الجغرافي والاستراتيجي الهام ، كان دائماً هو نقطة الضعف بالنسبة لها . وأنه بسبب هذا الموقع الممتـاز تسابقت الدول الى احتلالها . ففي عام ١٥١٧ احتلها الاتراك ، لأنها كانت تسيطر على طرق التجارة والمواصلات الى الشرق ؛ ولنفس هذا السبب احتلها نابليون عـام ١٧٩٨ ، ثم بريطانيا عام ١٨٨٢ . لذلك كان هدفنا ، منذ البداية ، هو أن نجعـل من هذا الضعف قوة ، وان نستغل هذا الموقع الممتاز لما فيه سعادة المصريين أنفسهم .

وقمنا بعد ذلك بدراسة ثروات العرب ، وخاصة البترول ، وعرفنا أن هذا البترول يمكن استخدامه لمصلحة العرب . ليس معنى هذا اننا نضيق الخناق على دول اوربا ، بل على العكس من ذلك ، لقد كان هدفنا هو أن نحمل الغرب على التعاون معنا كنظراء ، وان يتعامل معنا معاملة الند للنـد ، وألا نتيح له فرصة السيطرة علينا من جديد . وهذا نفس ما حدث في القنـــاة . لقد أدت القناة خدمات جليلة للعالم اجمع ، ما عدا مصر . وكان المستعمر يتخـــذ هذه القناة ذريعة لاحتلال البلاد . وهكذا كان علينا ان نغير هذه الاوضاع المقلوبة ، وأن نجعل من هـــذه القناة عاملاً من عوامل قوتنا ، بعد ان ظلت هي اول عوامل اضعافنا .

وهكذا اتخذت القومية العربية طابعها كضرورة استراتيجية ، وذلك لضمان سلامة الوطن العربي ، « وكمذهب » سياسي يمكننا من الحصول على صداقة العالم اجمع ، لا ان نكون عبيداً ، ننفذ ما يصدر الينا من اوامر .

براعة الاجابات

إن إجابات جمال عبد الناصر تعطي جانباً من الصورة التي نريد ان نرسمها لرائد العرب :

إن جمال يعرف دائماً الإجابة الصحيحة لأي سؤال مفاجىء . وقد عرف ذلك عنه في عديد من المواقف ، وعندمـــا أبدى الصحفيون الأمريكيون دهشتهم من الحديث عن الحياد الايجابي وعدم الانحياز قال جمال عبد الناصر :

« ان الرئيس الاميركي الأول جورج واشنطون تنبه لهـــذا الأمر إثر حصول امريكا على الاستقلال ، بعد ان كانت مستعمرة بريطانية . وسجل رأيه في خطاب الوداع فقال : إن مصلحة أمريكا هي البعد عن المنازعات التي تجتاح دول اوربا. وإن السياسة السلمية التي تحفظ لأمريكا استقلالها هي سياسة الحياد وعدم الانحياز في المسائل السياسية ، مع العمل على التوسع التجاري مـع جميع الدول وخلق صداقة معها جميعاً » .

وعندما سئل بعد تأميم القنال ماذا يفعل قال :

« إنني اعرف ما سوف أفعله . اننا لن نهاجم احـداً ، ولكننا سندافع عن وطننا الى آخر طلقة وآخر رجل » .

وصور حقيقة الطبيعة العربية :

« كلمة طيبة عندي أفضل من مليون دولار » .

وصور طبيعة الفلاح المصري في قوله :

« المصريون لا يرغبون حتى في مجرد الهجرة من قراهم . انهم مرتبطون بهـذه الارض . ونادراً ما يتركونها الى مكان آخر يكسبون فيه جنسية جديدة. »

وعندما تم الجلاء ، وأحسّ بأن الشعب يرى انه قد بلغ الغاية قال :

« الحرية والاستقلال لا يمكن الوصول اليها بمجرد خروج الجيوش البريطانية من أرض الوطن . ان الحرية ترتبط بالسياسة والثقافة والاقتصاد . والطريق التي توصل اليها طويلة وشاقة . وفي اليوم الذي نتحرر فيـه من كل تهديد خارجي ، ويتدعم اقتصادنا نستطيع ان نقول بأننا توصلنا الى الاستقلال . »

ويصور في عمق، معنى الاحلاف في قوله :

« إن الانضمام لأي حلف خارجي إنما يقسم الامة ، ويخلق أزمة ثقة داخلية».

ولما سئل عن السر الحقيقي لتـــأميم قناة السويس على هذا النحو المفاجىء الذي هز الدنيا قال :

« ان الطريقة التي انسحبت بها امريكا من مشروع تمويـل السد العالي كانت طريقـــة تدل على الغيظ . كان في امكانهم ان ينسحبوا بهدوء من غير قرقعة. ولكنهم شاؤوا اهانتنا بطريقة لا داعي لهـــا . كان في إمكانهم ان يقولوا لنا : «متأسفون ، لن نساهم في تمويل السد العالي» . وكنا نقول لهم: «شكراً على أي حال » . ولكنهم لم يختاروا ذلك الطريق . اختاروا أسلوباً مليئاً بالغيظ . ولم يكن احد يتوقع منا أن نخر على اقدامنا نطلب الرحمة . »

« إنني أعتقد عموماً انني كنت محتملا وصبوراً ومعتدلاً بما فيه الكفاية. ولكن مسألة قناة السويس كانت موجهة الى شخصي وإلى مصر والى جميـــع الدول الصغيرة أيضاً . واذا لم نرد على هذه الضربة وجه الينا كثير مثلها . ولذلك كان ردنا على هذه الضربة دفاعاً عن كرامتنا وقوميتنا . واذا وجهوا الينا ضربـــة اخرى فإنني اقول بكل صراحـة إننا سوف نرد عليهم ، والعين بالعين والسن بالسن » .

ولما قالوا له: ان خصومك يقولون انك ديكتاتور !

قال على الفور : « ان الدكتاتور هو الذي يحكم بلاده بالرغم من شعبه » .

لماذا نجحنا !...

لماذا لم ينضم جمال عبد الناصر للأحلاف ، واختار الحياد الايجـابي واعتمد على ايمان الشعب العربي ..

إنه في ذلك قد اعتمد على التجربة الماضية المريرة .

لقد تعاونت الثورة العربية الاولى مـع الاستعمار ، فخدعهـــا الاستعمار ، وطعنها من الخلف ، وحطم آمالها . ولذلك آثرت الثورة العربية الثانية بقيادة

عبد الناصر ان تستفيد من الأخطاء والتجارب ، وان تتفادى ما وقع فيه الذين احسنوا الظن بالانجليز .

ولقد نجحت هذه الثورة بينما فشلت الثورة الاولى التي اعتمدت على الاستعمار . نجحت لأنها نجحت بكم . اما الثورة التي قامت اثناء الحرب العالمية الاولى فقد فشلت لأنها اهملت الشعب ، واعتمدت على بريطانيا واعتمدت على الاستعمار » .

«لقد تحالفنا مع الاستعمار ليحقق لنا المساواة الاجتماعية والحرية السياسية فأقام بيننا الطغيان ، وأقام بيننا الظلم الاجتماعي . لقد تحالفنا مع الاستعمار بعد الحرب العالمية الاولى لننال الحقوق التي سلبتها الامبراطورية العثمانية فسلب هو الحقوق ..»

«لقد اعتمدنا في الماضي على الدول الاجنبية لنتحرر ، واعتمدنا مرة اخرى على الدول الاجنبية لنستقل ، فماذا كانت النتيجة : استعباد وسيطرة وطغيان !.»

هذه «صيحة» ناصر الحقيقية . هذه هي الناصرية . تحذير من الوقوع في الخطأ ثلاث مرات . تكفي مرتين .

اذن فما هي الوسيلة ؟.

«ان كل فرد عربي ، في كل بلد عربي يعلم علم اليقين أن حريته تعتمد على ساعده ، وان حريته تعتمد على تضحيته .»

●

وتجربة اخرى أراد جمال ان يطبقها . هي تجربة حرب فلسطين :

« كنا نريد ان نضع درس التاريخ وتجربة فلسطين موضع التنفيذ حتى نستطيع ان نحمي قوميتنا من القومية الصهيونية . كنا نهدف الى جمع الشمل والوحدة بين القادة العرب . ولكننا كنا نحرص على ألا تكون هذه الوحدة لخدمة الاستعمار . إن عندنا من القوة البشرية ما يمكننا من أن ندافع عن منطقتنا من أجل الدفاع عن اراضينا » .

هذا هو منطوق الدعوة التي حمل لواءها ، واتجه بها في نفس الوقت الى

الحكام والقادة والى الشعب نفسه . اتجه بهـــا الى زعماء العالم العربي وملوكه وحكامه ، وجرت محادثات مستفيضة حول هذا المعنى . معنى الدفاع عن المنطقة من داخلها ، دون الاعتماد على الغرب .

«ان الحل الوحيد ان توجد منظمة للدفاع عن هذه المنطقة . منظمة عربيـة خالصة قوية ، ليس لها أي ارتباط بالغرب . وبهذا ، يفكر العدو – وبدل المرة عشرة – قبل ان يهاجم هذه المنطقة » .

تجربة فلسطين

« لقد قامت دولة عربية كبرى في هذا الشرق . ليست دخيلة فيه ولا غاصبة . ليست عادية ولا مستعدية . دولة تحمي ولا تهدد . تصون ولا تبدد . تقوي ولا تضعف . توحد ولا تفرق . تسالم ولا تفرط . تشد ازر الصديق وترد كيد العدو . لا تتحزب ولا تتعصب . لا تنحرف ولا تنحاز . تؤكد العدل . وتدعم السلام . وتوفر الرخاء لها ولمن حولها . وللبشر جميعا بقدر ما تتحمل وتطيق .»

« جمال »

ماذا تركت تجربة فلسطين في نفس الرجل الذي كان عليه بعد سنوات اربع منها ان يحمل العبء كله في هذه المنطقة، وأن يضعه القدر في المكان الذي تطلع العرب اليه منذ عشرات السنين ، وهم يرونه فارغاً لا يملأ ؟...

انني أومن بأن بؤرة الانتفاضة العربية التي يقودها رائد العرب ناصر اليوم ، هي فلسطين . ذلك لأن اشتراك ناصر في معركة فلسطين ، يعد عاملاً فعالاً في تبلور أفكاره ، وتحديد الخطوط العامة لدعوته، واعطائه الحجة الكاملة على الطغاة وعملاء الاستعمار الذين أعانوا الاستعمار على تجريد العرب من هذه البقعة المقدسة من وطنهم العربي الموحد .

لقد اعترف عبد الناصر بأنه كان يفكر في هذا في خنادق الفالوجة ، ويعد

عدته للعمل الكبير الذي تحقق بعد ذلك بأربع سنوات واربعة شهور .

كانت الانطباعة العميقة التي كونتها المعركة ، والتي عاشت في اعماقه ، أن مكان المعركة ليس الفالوجة ، او فلسطين نفسها ، وانما « القاهرة » ، وكل عاصمة عربية . ذلك لأن الملك المصري والوصي العراقي وبعض الحكام العرب ، كانوا جميعاً يتآمرون على تسليم فلسطين لليهود في ظل معركة وهمية ، ضحاياها صفوة من شباب العروبة الابرار .

وفي الوقت الذي كان عبد الناصر وصحابته يخندقـــون في الجنوب ، كان هناك عبد الكريم قاسم وصحابته يخندقون في الشرق . وفي نفوسهم تدور نفس المعاني التي مهدت للثورة العراقية .

ولقد صور عبد الناصر تجربته هذه في اكثر من مناسبة ، واستعرض آثارها ونتائجها ، ووضع النقط على الحروف في هـــذه التجربة الضخمة البعيدة المدى في نفسه ، والكبيرة الأثر في خطواته وفي تفاعله مع القومية العربية في العـــالم العربي كله .

– ١ –

« يعنيني من حرب فلسطين درس عجيب .

لقد دخلتها شعوب العرب بدرجة واحدة من الحماسة . وإذن فهذه الشعوب جميعاً تتشارك في شعورها وفي تقديرها لحدود سلامتها .

ثم خرجت منها هذه الشعوب بنفس المرارة والخيبة . وإذن فهي جميعاً ، كل منها في بلاده ، قد تعرضت لنفس العوامل ، وحكمتها نفس القوى التي ساقتها الى الهزيمة ، ونكست رأسها بالذل والعار .

واقد خلوت الى نفسي مرات كثيرة في خنادق عراق المنشية وفي جحورها ، وكنت يومها أركان حرب الكتيبة السادسة التي كانت تقف في ذلك القطاع ، وتدافع عنه أحياناً ، وتهاجم في اكثر الاحيان ..

وكنت أخرج الى الأطلال المحطمة من حولي بفعل نيران العدو ، ثم أصبح

بعيداً مع الخيال ... هذا هو المكان الذي نقبع محاصرين فيه ... هـذه مواقع كتيبتنا ، وهذه مواقع الكتائب الأخرى المشتركة معنا على الخط وهذه قوات العدو تحيط بنا .

ان الظروف السياسية المحيطة بالعاصمة التي نتلقى منها الأوامر تحيطها بحصار، وتلحق بها عجزاً أكثر من الذي تصنعه بنا نحن القابعين في منطقة الفالوجه .

ثم هذه قوات إخواننا في السلاح ، وفي الوطن الكبـــير ، وفي المصلحة المشتركة ، وفي الدافع الذي جعلنا نهرول الى أرض فلسطين .

هذه جيوش إخواننا ، جيشاً جيشاً ، كلها هي أيضاً محاصرة بفعل الظروف التي كانت تحيط بها ، والتي كانت تحيط بحكوماتها . لقد كانت جميعـــاً تبدو كقطع الشطرنج : لا قوة لها ولا إرادة ، الا بقدر ما تحركها أيدي اللاعبين .

وكانت شعوبنا جميعـــاً تبدو في مؤخرة الخطوط ضحية مؤامرة محبوكة ، أخفت عنها عمداً حقيقة ما يجري ، وضللتها حتى عن وجودها نفسه .

ولما انتهى الحصار ، وانتهت المعارك في فلسطين ، وعدت الى الوطن ، كانت المنطقة في تصوّري قد أصبحت كلاً واحداً .

وأيدت الحوادث التي جرت بعد ذلك هذا الاعتقاد في نفسي .

كان الحادث يقع في القاهرة ، فيقع مثيل له في دمشق غـداً ، وفي بيروت وفي عمان وفي بغداد وغيرها ..

وكان ذلك كله طبيعياً مع الصورة التي رسمتها التجارب في نفسي :

منطقة واحدة ... نفس الظروف ونفس العوامل !

كان الاستعمار هو القوة الكبرى التي تفرض على المنطقة كلها حصاراً قاتلاً غير مرئي . أقوى واقسى مائـــة مرة من الحصار الذي كان يحيط بخنادقنا في الفالوجه ، وبجيوشنا جميعاً وبحكوماتنا في العواصم التي كنا نتلقى منها الأوامر .

ولقد بدأت ، بعد أن استقرت كل هذه الحقائق في نفسي ، أؤمن بكفاح واحد مشترك واقول لنفسي :

— ما دامت المنطقة واحدة ، وأحوالها واحدة ، ومشاكلها واحـــدة ،

ومستقبلها واحداً ، والعدو واحداً ، فلماذا تشتت جهودنا ؟ »

وكانت تلك هي شرارة العمل الكبير الذي قام به جمال عبد الناصر ..

- ٢ -

... « كنا نحارب في فلسطين ولكن أحلامنا كانت في مصر .

كان رصاصنا يتجه الى العدو الرابض امامنا في خنادقه ، لكن قلوبنا كانت تحوم حول وطننا البعيد الذي تركناه للذئاب ترعاه .

ومن فلسطين كانت خلايا الضباط الأحرار تدرس وتبحث وتتجمع في الخنادق والمراكز .

وكان حديثنا الشاغل وطننا الذي يتعين علينا ان نحاول انقاذه .

وفي فلسطين جلس بجواري مرة كمال الدين حسين وقال لي وهو ساهم الفكر شارد النظرات .

– هل تعلم ماذا قال لي احمد عبد العزيز قبل أن يموت ؟

قلت : ماذا قال ؟..

قال : قال إن ميدان الجهاد الأكبر هو في مصر .

ولم التق في فلسطين بالأصدقاء الذين شاركوني في العمل من أجل مصر ، فحسب وإنما التقيت أيضاً بالأفكار التي أنارت أمامي السبيل .

وانا أذكر أيام كنت أجلس في الخنادق واسرح بذهني إلى مشاكلنا ... كانت الفالوجة محاصرة ، وكان تركيز العدو عليها ضرباً بالمدافع والطيران تركيزاً هائلاً مروّعاً .

وكثيراً ما قلت لنفسي : ها نحن هنا في هذه الجحور محاصرين . لقد غُرّرَ بنا ، دفعنا الى معركة لم نُعَدّ لها . لقد لعبت بأقدارنا مطامع ومؤامرات وشهوات . وتركنا هنا تحت النيران بغير سلاح !..

وحين كنت أصل الى هذا الحدّ من تفكيري ، كنت أجد خواطري تقفز فجأة عبر ميادين القتال . وعبر الحدود . الى مصر . وأقول لنفسي :

هذا هو وطننا هناك . إنه « فالوجة » اخرى على نطاق كبير ...

ان الذي يحدث لنا هنا صورة من الذي يحـــدث هناك ، صورة مصغرة . وطننا هو الآخر حاصرته المشاكل والأعداء . وغُرر به . ودفع الى معركة لم يُعد لها . ولعبت بأقداره مطامع ومؤامرات وشهوات . وترك هنـــاك تحت النيران بغير سلاح .

وأكثر من هذا . لم يكن الأصدقاء هم الذين تحدثوا معي عن مستقبل وطننا في فلسطين ؛ ولم تكن التجارب هي التي قرعت افكارنا بالنذر والاحتمالات عن مصيره ، بل إن الأعداء ايضاً لعبوا دورهم في تذكيرنا بالوطن ومشاكله .

ومنذ أشهر قليلة قرأت مقالات كتبها عني ضابط اسرائيلي اسمه « يردهان كوهين » ، ونشرتها له جريدة « جويش اوبزرفر » ، وفي هذه المقـالات روى الضابط اليهودي كيف التقى بي اثناء مباحثات واتصالات عن الهدنة . وقال :

« لقد كان الموضوع الذي يطرقه جمال عبد الناصر معي دائما هو كفـــاح إسرائيل ضد الانجليز ، وكيف نظمنا حركة مقاومتنا السرية لهم في فلسطين . وكيف استطعنا ان نجهز الرأي العام في العالم وراءنا في كفاحنا ضدهم » .

- ٣ -

« كنا في شهر أبريل – نيسان – ١٩٤٨ ؛ كان تنظيم الضباط الأحرار قابعاً منكمشاً على نفسه ، فقـد كانت كلاب الصيد تتحسس آثارنا في كل اتجاه . كنت منهمكاً في الاستعداد لانتهاء الدراسة في كلية أركان الحرب،ولكن هموم الدراسة ومشاقها لم تستطع في ذلك اليوم ان تصد عن اذني طبول المعركة التي كانت تدق في فلسطين .

وكانت الحماسة بالغة ، وروح القتال على اشدها ، وخصوصاً بين زملائنا من الضباط الشبان . وكان كثيرون من اخواننا في تنظيم الضباط الاحرار يتسللون اليّ ، في خفية من عيون الرقابة ، ليهمس الواحـد منهم في أذني بأنه يريد أن يتطوع للقتال في فلسطين .

وكنت في حيرة مع نفسي. كانت هناك عوامل كثيرة تتنازع تفكيري :هل اتطوع أنا الآخر . اخلع ملابسي الرسمية . وأحمل مدفعاً صغيراً في يدي وأمضي الى المعركة ، ام انتظر انتهاء الدراسة في كلية اركان الحرب ، وقد قضيت اكثر من عام استعد له ... ولم يبق عليه الا شهر واحد ؟..

وذات صباح ، وجدت نفسي في محطة القاهرة مع عبد الحكيم عامر وزكريا محيي الدين نودع صديقنا وزميلنا في اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار : كمال الدين حسين وكان في طريقه الى فلسطين مع غيره من الأصدقاء . كنا نهنئهم على الفرصة المتاحة لهم . ونواعدهم على اللقاء بعد يوم غير بعيد في الأرض المقدسة .

وتحرك القطار وقلوبنا تهتز من فرط الانفعال .

ولم اعد يومها الى بيتي ، وإنما طرقت باب إحدى الصحف اليومية ، وطلبت الى رئيس تحريرها أن يسمح لي بأن اكتب له وصف سفر القطار المتجه الى فلسطين . وجلست وقلبي ما زال يهتز من فرط الانفعال . وكتبت ما حدث في محطة القاهرة ، وظللت ساهراً في دار الصحيفة انتظر ان تدور عجلات المطبعة بما كتبته .

.. وبدأت أيام شهر مايو — أيار — ونحن ما نزال في القاهرة ..

وغادرت بيتي صباح ١٦ مايو – ايار — احمل حقيبة الميدان ، بعد ان تركت على إحدى الموائد صحيفة الصباح ، وكانت صفحتها الأولى مليئة بالبلاغ الرسمي الأول الذي صدر عن وزارة الدفاع في ذلك الوقت، يروي للناس بداية العمليات الحربية في فلسطين .

وتملكني شعور غريب وانا اقفز درجات السلم :

« اذن فأنا في الطريق الى ميدان القتال !.. » .

— ٤ —

قامت الحرب في فلسطين ١٩٤٨ ، وهبت الامة العربية في كل بلد عربي تنادي: لا بد ان نعاون إخواننا في فلسطين ، ولا بد من ان نساعدهم على الحرية والتغلب

على الغزو الصهيوني ، هذا الغزو الصهيوني الذي كان يجد في الاستعمار العون الاكيد . فقامت الأمة العربية تفرض ارادتها ، ودخلت الجيوش العربية في ١٥ مايو -- ايار -- سنة ١٩٤٨ لتعاون العرب في فلسطين للبقاء في أرضهم ، والمحافظة على حريتهم ؛ فماذا كانت النتيجة ؟..

إن الخونة العرب ، اعوان الاستعمار ، الذين كانوا في هـذا الوقت يتحكمون في بعض البلاد العربية أخذوا اوامرهم من الاستعمار ، ليتعاونوا مع الصهيونيـة العالمية لتحقيق اهدافها وتحقيق اغراضهم .

اننا نعرف معرفة اليقين ان الخونة العرب كانوا ضد العرب ، ومع الصهيونية العالمية تحت اوامر الاستعمار . الاستعمار الذي أقام بين القومية العربية القومية الصهيونية ... هذا الاستعمار ، انه وجد اعوانه بين ابنـــاء الامة العربية الخونة ، وهم قلة على كل حال ؛ فكانت مأساة ١٩٤٨ ، وهُزم العرب هـــذه الهزيمة المفتعلة ، التي كان سببها الرئيسي هو الخيانة والغدر ، واخذ الاوامر من المستعمر .

كلنا نعلم كيف تصرفت حكومة العراق في هذا الوقت ، وكان جيش العراق الباسل يريد ان يدخل القتال ، وامر رئيس الحكومة في هذا الوقت ان يشترك جيش العراق مع الجيوش العربية في القتال . ولكن الخونة الذين يحكمون الوطن الشقيق كانوا ينفذون أوامر الاستعمار .

كلنا نعلم كيف اراد جيش العراق في سنة ١٩٤٨ ان يشترك في المعركة جنباً الى جنب مع اخوانه ، وكيف اراد رئيس الوزراء في ذلك الوقت ان يشترك في المعركة فكان الرد كلمة واحدة : « ماكو اوامر » ! اي انه ليس هناك اوامر في الجيش العراقي ان يدخل القتال .

هذه الكلمة : « ماكو اوامر الى الجيش العراقي ، حتى لا يشترك مع الجيوش العربية في القتال ضد الصهيونية العالمية » أوصلتنا الى حال يعلمـــه كل فرد في الامة العربية .

كل فرد في الأمة العربية يعلم ان العراق في ١٩٤٨ اعلن الحرب ، ويعلم ان

جيش العراق في ١٩٤٨ اراد ان يقاتل ببسالة ، لأنه كان يشعر بأهداف الأمة العربية ، ويحس احساسات اهل فلسطين ، ولكن اعوان الاستعمار الخونة في العراق تنكروا لعروبتهم وتنكروا لأرضهم ، فكانوا بهذا اول دعائم الصهيونية .

إن الأمة العربية حينما تنظر اليكم اليوم تنظر الى الماضي وتذكر مآسي فلسطين ١٩٤٨ ، وحرب فلسطين . تذكر كيف تآمر ملك الاردن في ذلك الوقت الملك عبدالله مع الاستعمار ومع الصهيونية العالمية ، ومع لندن ، ليتخلى عن الجيوش العربية . وكيف تقدم جيش الاردن الوطني ليقاتل ويستشهد داخل اللد والرملة ، واحتل منطقة كبيرة من فلسطين . ولكن بدون معركة مع اسرائيل ، وبدون قتال مع الصهيونية ، وبدون أي سبب من الأسباب ، صدرت الأوامر من ملك الاردن في ذلك الوقت لجيش الأردن الباسل المقاتل : ان يترك اللد والرملة لإسرائيل ! فكان الخونة في الاردن لا عمل لهم الا تنفيذ اوامر الاستعمار .

وكانت المأساة الكبرى التي لاقيناها سنة ١٩٤٨ !...

- ٥ -

«.. ان فلسطين اليوم لم تعد تعبر فقط عن مشكلة من مشكلات الاحتلال الاجنبي ، بل إنها تكوّن خطراً من أخطار التوسع الاستعماري في قلب وطننا العربي . لقد ذهب اليهود الى ابعد من ذلك ، فراحوا يغيرون أسماء الأماكن التي استولوا عليها في غزة وسيناء ، رغبة منهم في تحقيق الأغراض الوحشية التي ترمي اليها الصهيونية .

ترى ماذا عساه أن يحدث إذا لم نوقفهم عند حدهم ؟. لا شك انهم سيحاولون الاستيلاء على مصر والأردن وسورية ، وتحويل شعبنا العربي الى لاجئين كما هو الحال في فلسطين .

الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن اسرائيل ليست اسرائيل او بن جوريون

او شاريت ، إنها صنيعة تلك الدول الكبرى التي تمولها وتؤيدها وترسم لهـــا سياستها » .

– ٦ –

«دخلنا تجربة فلسطين ، سبع دول عربية . ولكن سبع دول غير متحدة ، سبع دول متفرقة ؛ تفرق بيننا الأطماع ، تفرق بيننا الأحقاد ؛ سبع دول ناس منها تحارب وناس تبحث عن اراض تضمها لبلادها .

وحدثت الهزيمة الكبرى ، وكانت تنحصر في سبب واحـد : هو اننا كنا سبعة جيوش عربية ؛ ولو كنا جيشاً عربياً واحداً لكنا انتصرنا . وكانت مصر والاردن والعراق تحت الاحتلال البريطاني ، وكان الجيش المصري يحـــارب ومفروض أن فيه قيادة موحدة ، وكانت تحت قيادة الملك عبدالله ملك الأردن. ولكن كان الجيش المصري يحارب وجيش الأردن الذي غزا اللد والرملة وضحى بشهدائه وبدمائه يأخـذ أوامره من الملك عبدالله ليخلي اللد والرملة . لأن بريطانيا تريد ذلك . كان الجيش العراقي يحارب ويضحي بدمه ، ومستعداً لأن يستشهد في سبيل القومية العربيـــة ، ولكن حكام العراق رفضوا ان يعطوا الأوامر . وهذا سبب الهزيمة . »

– ٧ –

ومن الناحية الأخرى نجد اليهود يفهمون عبد الناصر . ويرسمون صورة لشخصيته :

« ... [1] ليس جمال عبد الناصر غريباً عنا ، فهو معروف تمـاماً من معظم ضباط إسرائيل في القطاع الجنوبي . فقد قام بدور ممتاز في المعارك التي دارت حول « يادمورديتشاي » وتيرزانيم ونجبا ، وفي الدفاع عن الفالوجـا . والواقع أن المرة الأولى التي تعرفت فيها بالبكباشي جمال عبد الناصر كانت اثناء ذلك

١ ــ الضابط الاسرائيلي « اللون » جريدة جويش اوبزرفر .

القتال المرير الذي دار على اطلال الفالوجا في خريف عام ١٩٤٨ .

ومن حديثنا الطويل ، سرعان ما أدركت انني أقف امام رجـــل يتمتع بشخصية قوية ، وعلى علم تام بمشاكل بلاده ، بل وبمشاكل الشرق الأوسط عامة.

وفشلت المباحثات بيننا وبين القادة المصريين ، وعادت المدافع الرشاشة الى الانطلاق من جديد ... ومع ذلك فان علاقتي بجمال عبدالناصر كانت قد بدأت على التو وتعددت زياراتي له ، وكان الموضوع الذي يطرقه دائماً هو الحديث عن كفاحنا – كفاح إسرائيل – في سبيل طرد البريطانيين . ولم يكن يكف أبداً عن السؤال عن الطريقة التي نظمنا بها حركتنـا السرية ، ولا عن الطرق التي اتبعناها لتجنيد الرأي العام حولنا في كفاحنا ضد البريطانيين ، فلم تكن كراهيته للبريطانيين ولا لأصدقائهم في القاهرة تعرف حداً تقف عنده .

وسرعان ما تبينت ان موضوعاً هاماً يثير ثائرة المصريين أكثر من كل ما عداه من موضوعات : ذلك هو موقف الملك عبد الله ، وموقف حلفاء مصر الاردنيين . ولم يكن جمال يستطيع أن يعلل كيف أن الفيلق العربي الذي كان يعسكر قريباً من تلال « حبرون » ، لم يبذل أية محاولة لمد يد المعونة للقوات المصرية المحاصرة . لقد كان عدم التعاون الظاهر بين صفوف الحلفاء العرب ممـا يثير السخط والغضب » .

– ٨ –

وهذه صورة اخرى لعبد الناصر رسمها قلم صهيوني [١] :

هل ستقع الحرب في الشهر القادم !..

هل سيقوم جمال عبد الناصر بالهجوم !..

وهل ستبدأ الحرب إذا استأنفت إسرائيل العمل في مشروع الأردن ؟

إن الجواب على هذه الاسئلة الحاسمة متعلق إلى حد كبير بشخصية الرجل الذي يترأس الآن حكومة مصر . هناك أمر واحد لا يمكن الشك فيه ، هو أن

١ – جريدة ها عولام الاسرائيلية (ابريل – نيسان – ١٩٥٦)

هذا الشاب الطويل القامة ، الذي بلغ في يناير – كانون الثاني – الماضي ٣٨ عاماً هو من أعظم الرجال في هذا العصر !..

هذا الشاب الذي استطاع في خلال مدة تقل عن أربع سنوات أن يحدث انقلاباً حقيقياً في مكانة مصر في العالم ، وانتقلت مصر من دولة فاسدة الى دولة محترمة ، يتسابق أقطاب العالم في نيل رضاها ...

هذه المعجزة السياسية قد تمت بدون نفقات مالية باهظة . إنها ثمرة المجهود الشخصي لرجل واحد . ومن هنا ينبعث مصدر القوة الهائلة التي يتمتع بها جمال عبد الناصر . إنه لم يحدث حتى الآن ثورة اشتراكية تجعل دولته دولة اشتراكية طبقية عقائدية ، ولم يحاول ان يقيم حكمه على الارهاب وشنق الخصوم . إنه يتربع على جبل هائل من انتصاراته السياسية التى يراها كل انسان ، حتى الفلاح على ضفاف النيل .

ما هو موقف هذا الرجل من دولة اسرائيل ... هل هو عدوها اللدود ... وهل هو مصمم على محوها من الوجود ؟...

إن العسكريين الاسرائيليين الذين عرفوا هذا الرجل في أيام الفالوجه السوداء قد شهدوا كلهم بأنه كان صادق النية . ولم يكن من النوع الذي تأكل الكراهية والحقد قلبه .

إن الانطباعات كلها تدل على ان هذا الضابط المصري المتوثب النشيط ليس حقوداً او يعتمد على السيف وحده . وهذا الرأي عنه منتشر ايضاً بين جميع الصحفيين الأجانب الذين هم أقدر الناس على تقدير قيمة الرجال .

وليس هناك ذرة من الشك في ان هذا الرجل يعتقد بأن حكام اسرائيل يطمعون في توسيع حدود دولتهم بالقوة عند أول فرصة ، وطرد السكان من أراضيهم وجلب مهاجرين جدد من يهود العالم .

وعندما اقترب عبد الناصر من تنفيذ الحلم الذي يراود عقل جيل كامل من المصريين ، وهو طرد الانجليز الغاصبين من منطقة القنال قامت حكومة اسرائيل وطلبت من البريطانيين البقاء في مصر . لقد كان هذا طلباً وقحاً يدل على الغفلة

والسخافة . لقد كان طلباً لا قيمة له ولا معنى ،ولكنه تغلغل في كل عقل مصري كقطعة من الحديد المحمى بالنار .

إن هذا كله يؤدي بنا الى افتراض واضح ، هو أن الرئيس المصري يعتـــبر إسرائيل عدواً حقيقياً ، وسوف ينظر اليها كذلك .

وعلى هذا فإن عبد الناصر ليس متعصباً دينياً ولا خاضعاً للحقد الأعمى ولا مغامراً مجنوناً .

إذن متى يقوم هذا الرجل بالعمل ضد اسرائيل وكيف يعمل ؟..

إن كل من يتعمق في تاريخ حياة الرجل تبرز أمامه مزايا عديدة له : منها الحكمة والاتزان الفائقان ، الصبر والتجمل والسيطرة على النفس وضبط الاعصاب .

أما صبر عبد الناصر فقد اعترف به خصومه زعماء اسرائيل انفسهم عندما راحوا يضربون في غزة وتونس وغيرهما فامتنع الرجل عن الانسياق وراء المغامرة .

لقد استغرب زعماء اسرائيل هـــذا الصبر وقوة ضبط الأعصاب . ولكن استغرابهم يزول لو أنهم نبشوا ماضي هـــذا الرجل . فإن الثورة المصرية كانت عملاً عقلياً رفيعاً ، وتمت دون ان تسفك فيها قطرة دم . ويتوهم بعضهم أن نصر الثورة المصرية كان بسيطاً ، ولكنه في الحقيقة لم يكن كذلـــك ، إنه كان ثمرة تخطيط وتفكير استغرقا عدة سنوات . انه كان عملاً يدل على قوة الصبر وضبط الأعصاب .

وهذا الرجل الذي قام بهذه الثورة ، كان خلال سنوات يضم اليه رجلاً بعد رجل ، ويقيم الخلايا هنا وهناك في الميدان ، وفي قلب القاهرة . ولم يحرك ساكناً إلا بعد ان كان متأكداً تماماً من الفوز ، وكانت حركة واحـــدة من يده كافية لتحطيم البنيان الملـكي الكبير .

إن كل شاب عربي مثقف يمجد صلاح الدين . وعبد الناصر بدون شك يمجد هذا البطل العربي ، ويريد ان يسير على طريقه ، فإن صلاح الدين لم يقتحم المعركة إلا بعد ان توحدت مصر وسورية والعراق والأردن وغيرها في أيامه ، وهذا ما سوف يفعله عبد الناصر .

إن الميدان الذي تدور فيه المعركة في الوقت الحـــاضر هو توحيد الشعوب العربية. وقد بدأت هذه المعركة فعلاً، فإذا انتصر فيها عبد الناصر ، فإن الخطر على اسرائيل اعظم من خطر الحرب .

لقد وقع تطور هائل في العالم العربي ، وقامت الشعوب المستضعفة في آسيا وافريقيا لكي تتحرر من الاستعباد، وإسرائيل لا تستطيع ان تقف أمام التيار الجارف !..



« يريدون منا ان نكون تابعين . ننفذ اي امر ونكون تحت الامر . هناك دول كثيرة تتبع هذه الطريقة . دول تتلقى الاوامر وتنفذ الاوامر . وهي الدول التي يتولى الامر فيهـا صنائـع الاستعمار واعوان الاستعمار . والذين لا يؤمنون بانفسهم ولا بوطنهم ولا بقوميتهم . يريد منا الاستعمار ان نكون بهـذا الشكل ، وهذا لا يمكن ان يكون ، والا فلماذا قامت الثـورة ولماذا قاتل الشعب .. هل كانوا يقاتلون ويموتون لنعود آخر الامر تابعين ، نتلقى الاوامر ؟..»

« جمال »

كمن الاستعمار كله وراء عبد الناصر ، يدبر المؤامرات لتحطيمه بغية القضاء على دعوته الفذة التي استفاضت في العـــالم كله ، قوية باهرة كضياء الفجر ، لا تقف أمامها جحافل الظلام ، ولا تردها السدود ولا الحدود . انها دعوة مـــن القلب الى القلب ، ومن العقل الى العقل ، وتلك ميزتها الكبرى . وهي دعوة وراءها قوتها المعنوية الصادقة ، تنفذ الى النفس العربية التي عرفت بأنها لاترضى بالظلم ولا تقبل الضيم ، وتؤمن بالكرامة والعزة، وتبذل الروح والدم في سبيل الحرية .

وهي دعوة لا ترمي الى التسلط او الطمع في السلطان أو الرغبة في الحصول على أي لون من ألوان الكسب المادي ، وانما هي صيحة اليقظة ، وانتفـــاضة

البعث ، ونداء الخلاص وكلمة المقاومة والتجمع .

وجمع الاستعمار اعوانه ومفكريه واصحاب الخبرة فيه ، ومضى يضع الخطط .

وفشلت كل هذه الخطط وتحطمت ! ذلك لأنها قامت على أساس غير الأساس الذي قامت عليه دعوة الحق التي حمل لواءها ناصر .

انها قامت على خطأ تاريخي ضخم ، هو مقاومة تيار الشعوب والأمم حين تستيقظ وتتجمع ، وتصمم على ان تسترد ارضها وحقها ومقوماتها ، وان تستعيد كيانها وتصبح قوة حقيقية كما كانت من قبل .

ان الامة التي تريد أن تتحرر وتتجمع لا يمكن أن يقف امامها شيء. ولكان خيراً للغرب والاستعمار، لو كان حصيفا، أن يستجيب وينزل عن غروره وغطرسته وصلفه، ويكتفي بالسنين الطويلة التي حكم فيها هذه الأمة بالحديد والنار، واستغل ثرواتها في غفلة من الزمن؛ ولكان عليه ان يسلم ويرضخ . ذلك لأن الأمة العربية، في انتفاضتها بقيادة ناصر، لم تكن تهدف ، ولن تهدف يوماً الى العبث بعقودها والتزاماتها، ولا وقف معاملاتها معه ، أو منع شرايين البترول أو ناقلات التجارة.

انه لن ينتقم من الاستعمار عن مظالمه المتصلة ومؤامراته المتوالية ، ولكنه يهدف الى أن يصبح سيداً يتعامل على أساس المساواة والسيادة ، والند للند .

ولقد ذهب الغرب في أحقاده الى أبعد مدى . كان هدفه أن يقضي على هذه القوة الجديدة المسالمة التي تحمل لواء الحرية والسلام معاً ، ويقضي على حامل اللواء ورافع العلم .

وتجمع الاستعمار كله ضد رجل واحد .

الرجل الأول في امة العرب الذي قال : لا . ولم يستطيعوا ان يحطموه .

لقد قال كثيرون من الأبرار ، للاستعمار ، كلمة «لا» ، ولكن الاستعمار كان أقوى منهم .. اما ناصر فقد قالها ومن ورائه ٧٠ مليوناً كلهم ناصر .

قال «انتوني ناتنج» ، وزير الدولة البريطاني : «اني مقتنع بأنه في استطاعتنا ان نوقف ناصراً عند حده اذا تصرفنا تصرفاً سليماً . لقد فعلنا ذلك مع مصدق في ايران ولم يكن اقل صلابة من ناصر . اذا كنا نرغب في وضع الكولونيل

ناصر بين صفوف الوزراء السابقين ، يجب علينا ان نركز جهودنا على عزل اصدقائه عنه . وليس على القيام بهجوم عليه رأساً » .

ولقد حاول الاستعمار هذا الأسلوب فلقي اقسى انواع الفشل . وكانت التجربة عكسية الأثر ، ولكن ناتنج عاد فاعترف بفشلهم في خطة حملة السويس وانتصار ناصر فقال : « في معاملاتي الكثيرة معه بدا ناصر رجلاً ذا اعصاب حديدية ، قاسياً وطموحاً . واننا بدلاً من ان ننقص من مركز ناصر زدناه قوة اخيراً بوضعنا على رأسه الضخم تاجي الاستشهاد والبطولة بفشل السياستين البريطانية والفرنسية » .

ان الاستعمار لم يهتز بصورة خطيرة بمثل ما اهتز يوم تأميم قناة السويس . لقد بلغت عوامل الذعر والاضطراب اقصاها ؛ فقد قامت الدنيا ولم تقعد ، وعلت اصوات الضجة على كل شيء . لم تصدر صحيفة واحدة في العالم كله ، ولمدة سبعة شهور ، لم تكن تحمل في صفحاتها الاولى اسم ناصر .

ومضى المتآمرون يرسمون الخطط . كان هؤلاء جميعاً ضد رجل واحد .

كان الهدف هو عزل هذا الرجل وحده . عزله عن الأمة العربية .

ورسمت خطط انتقامية عجيبة . وبينما كان الغرب يغلي كان عبد الناصر يقف هنا في مصر ، وفي العالم العربي ، عملاقاً لا يقهر . وقد تجاوبت الأصداء من كل جوانب الارض العربية ، بل وأبعد من ذلك ، من أطراف الصين ، بأنها على أهبة الاستعداد لتقاوم خطط المتآمرين . وثارت الدنيا العربية ثورة عجب لها المراقبون السياسيون ، فهم يعلمون تماماً انها ليست من صنع فرد ، ولكنها الإيمان الصادق العميق بالقومية العربية ووحدة العرب .

ومضت بريطانيا تعمل . لم تترك حاكما من حكام العرب لم تحاول ان تسعى لديه بالوقيعة والدس . قالوا : انه ضد الملوك ، وإنه بصفقة الأسلحة التي عقدها قد فتح ابواب الشرق العربي للشيوعية ؛ وأن على ملوك البترول ان يتحدوا من أجل مصالحهم المشتركة ؛ وأن ناصر بذلك يريد أن يشد انظار العرب عن مشكلتهم الحقيقية : إسرائيل .

ومضت الدعاية البريطانية التي أنفقت عشرة ملايين جنيه في شهر واحد في نيويورك تطلق عليه اسماء ستالين وهتلر وبيرون . وتصوره بصور نابليون الذي استنزف دماء شباب فرنسا في بناء امبراطوريته .

وكشفت الايام عن مدى الكذب والتضليل الذي تحمله كل هذه العبارات .

عرف العالم هذا كله عندما حدد يوم ٢٩ اكتوبر – تشرين الاول – ١٩٥٦ موعداً للالتقاء في جنيف لوضع الخطط الخاصة بتنفيـذ المبادىء الستة التي تضمنها القرار الذي صدر عن مجلس الامن .

هذا اليوم الذي حددته مصر للسلام حددته بريطانيا وفرنسا للعدوان ، لأنه هو نفس اليوم الذي بدأت فيه حرب السويس .

●

وبعد هزيمة العدوان الثلاثي على مصر واجه جمال عبد الناصر مؤامرة ضخمة كان قوامها العزل والتجويع والحصار الاقتصادي . وانقلب الجو في العالم العربي كله ، وبدت الخصومة واضحة من حكومات العراق والاردن ولبنان ، القائمة اذ ذاك ، وانطوت كل الاتفاقيات والعهود التي كانت قد عقدت من قبل بيننـــا وبينهم . فقد استطاع الاستعمار ان يخدعهم بأكذوبة كبرى . وان يدس عليهم وثيقة مزورة .

كان اسم هذه الاكذوبة : ان جمـال يريد ان يحطم العروش ، ويطمع في السيطرة على المنطقة ، ويرغب في إقامة امبراطورية عربية .

وانطلت هذه الخدعة على « العملاء » الذين كانوا هم في صميم انفسهم يخشون تيار القومية العربية الضخم المفزع ، وهو يمتد ويكتسح ويعمق ويقوى وتتحطم امامه الحواجز والسدود .

وقال الاستعمار لهؤلاء الملوك والرؤساء : ان اسم جمال قد شطب من الشرق الاوسط ، وانها ليست الا شهور قليلة حتى يكون كل شيء قد انتهى .

ولم تلبث يقظة جمال عبد الناصر ان كشفت مؤامرتين على مصر ؛ ولم يلبث ان جاء الرد على هاتين المؤامرتين بقيام الجمهورية العربية المتحدة وامتزاج مصر

وسورية في دولة واحدة .

كان قيام الجمهورية العربية المتحدة رداً على العـــدوان الثلاثي . كما كان تأميم قناة السويس رداً على سحب تمويل السد العالي .

وتحسس الاستعمار حرارة الصفعات على وجهه !

ولكن هل توقف ؟... مستحيل ...

هل عرف الطريق الصحيح ؟ لا ، مع الاسف . لقد مضى في مؤامراته .

●

من أبرز ملامح شخصية عبد الناصر هذه اليقظة اللماحة العجيبة في مواجهة المؤامرات . عندما قال السفير الأمريكي له : إن امريـــكا ستغير سياستها بالنسبة للجمهورية العربية المتحدة . قال ناصر بفطنته وسرعة خاطره :

– هل هو تغيير في الاستراتيجية ام في التكتيك ؟..

يريد : هل هو تغير في الاهداف ام في الوسائل ! وقال السفير : إنه تغيير في الأهداف . ولكنها لم تمض إلا ايام قليلة حتى فضح القدر النوايا وكشف المخبوء ؛ فقد قامت ثورة العراق ، ووضعت يدها على وثائق خطيرة كان من بينها رسالة من الولايات المتحدة الى سفرائها في انحاء العالم العربي وفيها هذه العبارة بالحرف الواحـــد :

« لا يتضمن الأمر اعادة تقدير أساسي لسياستنا . انما هناك تحول «تكتيكي» مؤقت تفرضه الضرورة . إننا اذا نجحنا في ان نقنع ناصر ان الولايات المتحدة قد وطدت نفسها على حكمه ، وأنها على استعداد للاستجابة لشروطه ، فان النتيجة الحتمية لذلك ستكون فتوراً في العلاقات بين الجمهورية العربية والكتلة السوفيتية » .

وعلم ذلك عبد الناصر ، ولكنه وقف في دمشق ينادي بالسلام .

ومن اساليب الحرب النفسية التي أرادوا بها بذر بذور الشك ما حدث قبل قيام الجمهورية العربية المتحدة مما اريد بـــه الوقيعة بين دمشق والقاهرة ، وقد صوره الرئيس عبد الناصر في حديث له مع صحيفة الاهرام [1] :

---

١ – عدد ٩ سبتمبر – ايلول – ١٩٥٧ .

« لقد قرأت في الايام الاخيرة في صحف أمريكا مقالات حملت لي المديح لاول مرة منذ زمن طويل . على أساس أنني أبديت عدم الرضا بما يجري في دمشق ».
ثم يعلق على ذلك بقوله :

« والحيلة قديمة وأنا اعرفها . وما اظنها تجوز علي » .

●

والسؤال الآن : كيف استقبل جمال عبد الناصر المؤامرات الاربع : اعلان حلف بغداد في ١٢ يناير – كانون الثاني – ١٩٥٥ ، ضرب اليهود لغزة في ٢٨ فبراير – شباط – ١٩٥٥ . مؤامرة السويس ٢٩ اكتوبر – تشرين الاول – ١٩٥٦ . مشروع ايزنهاور يناير – كانون الثاني – ١٩٥٧ .

استقبلها برباطة جأش تجل عن الوصف . كان يحسب حساب القوى الباغية التي لا بد ان تقوم بعمل اجرامي تحاول به ان توقف هذا التيار ، وتحطم به هذا الضياء .

«ان الاستعمار يتربص بنا ويتحكم فينا . فهل سلمنا . اننا لم نسلم ابداً . لقد مات منا الاجداد والآباء على مر السنين في سبيل تحقيق هذا الهدف : الحرية والاستقلال والوحدة والعزة والكرامة .

اننا اليوم نموت في سبيل هذه المعاني . نموت ونقاتل ولا نسلم . فان الآباء لم يسلموا والأجداد لم يسلموا .»

● «سنحمل السلاح لندافع عن شعلة الحرية التي انتصرت . اننا نسالم من يسالمنا ونعادي من يعادينا . سنقابل العدوان بالعدوان . لن يرهبنا التهديد ، ولن ترهبنا الأساطيل . لأن هذه الأساطيل ستخبو ، ثم تنقلب رماداً ، وتبقى القومية العربية . وتبقى شعلة الحرية عالية مرتفعة لا يمكن ان تخبو .»

● «سنقاتل حتى آخر قطرة من دمائنا ، وستقف مصر كلها جبهة واحدة . كتلة وطنية متكاتفة متحدة . مصر كلها ستقاتل لآخر قطرة من دمائها . كلنا سنقاتل في سبيل بناء بلدنا . لن نمكن منا تجار الحروب . لن نمكن منا المستعمرين. سنعتمد على سواعدنا وعلى دمائنا » .

● « ان مشروع ايزنهاور إسفين اجنبي آخر يعمل على خلق الشقاق بين الدول العربية وإفساد القومية الكاملة التي ننادي بها » .

● « ربما لا تعلم أنني منذ فجر الثورة كنت ضد فكرة تكوين جيش كبير ، لأني كنت اتمنى الحياة في سلام ومودة مع جميع الدول . بيد ان الهجوم الوحشي الذي شنته اسرائيل على غزة غيرت هذه الفكرة . في ليلة واحدة – ٢٨ فبراير – شباط – ١٩٥٥ – في هذه الليلة ايقنت اننا في حاجة الى السلاح للدفاع عن سلامة اراضينا . لقد رأيت اللاجئين في فلسطين ، وكان يعز علي أن أرى المصريين وقد صاروا ايضاً لاجئين ... »

● «قبل هذه الغارة لم نكن نشغل انفسنا بخطر اسرائيل. كنا في ذلك نعتبر خطر اسرائيل في حقيقة امره هو ضعف العرب ، ولولا هذا الضعف ما قامت اسرائيل . ولولا هذا الضعف ما استطاعت ان تغتصب من الوطن العربي بقعة من اقدس بقاعه واطهر اراضيه .

ولكن دخان الغارة على غزة في ٢٨ فبراير – شباط – ١٩٥٥ انجلى ليكشف حقيقة خطرة . تلك هي ان اسرائيل ليست الحدود المسروقة وراء خطوط الهدنة . إنما اسرائيل في حقيقة امرها رأس حربة للاستعمار . ومركز تجميع لقوى اخطر من اسرائيل ، وأخطر من الاستعمار ، وهي الصهيونية العالمية .

وكانت هذه الحقيقة التي انجلى عنها دخان الغارة على غزة نقطة تحول في تفكيرنا ، ومن اتجاه الاحداث في المنطقة كلها . تبين لنا اننا لا نستطيع ان نمضي في معركة البناء غافلين عن الخطر الذي يهدد ما نبنيه ويهدد وجودنا بأسره»

●

« إنني اعاهدكم أيها الإخوة أني سأقاتل معكم ، من اجل حريتكم ، كما عاهدتكم من قبل ، لآخر قطرة من دمي . سنقاتل ولا نسلم » .

●

وصور جمال الفرق بين السلام والاستسلام في اكثر من مناسبة :

« ان هناك فرقاً كبيراً بين السلام والاستسلام . فإذا كنا ننادي بالسلام

فإننا ننادي بسلام مع عزة وكرامة وشرف. إننا نحمي السلام بدمائنا . إن الاستعمار لم يرض أبداً ان يرى مصر وقد تحررت منذ زمن طويل من العبودية ، وقد رفعت رأسها الى السماء متحدة قوية تنادي بالحرية والسلام ..

ان الاستعمار كان يتربص بنا دائماً. وكان يطلب مني ومنكم ان نكون اذيالا. وأنا حين كنت ارفض ، كنت ارفض باسمكم وباسم عزتكم . »

●

وكان الاتهام الذي يوجه اليه دائماً أنه يحاول خلق أمبراطورية عربية . ولقد أجاب عن هذا السؤال بصراحة تامة :

« إن هناك أمة عربية ، وإن على مصر أن تساعد في تدعيم كيان هذه الأمة العربية ، وهو أمر لم يكن من وحي اختراعي . إن العرب عبارة عن أفراد ، وليس لجميع الدول العربية نفس المشاكل التي لبعضها . ولن يقبل احداها دكتاتورية أخرى . إن القومية العربية ليس معناها « الامبراطورية العربية » . إن ما أريده ويريده زعماء آخرون من العرب ، هو أن يقام نظام أمن جماعي ، داخل نطاق العالم العربي ، يتيح لنا بطريقة جماعية ، أن نحافظ على استقلالنا ، وأن نقاوم بطريقة جماعية العدوان .

لقد تعرض العالم العربي دائماً للاجتياح من جانب جميع الأمبراطوريات . وكانت آخر عملية غزو لنا ما وقع في اواخر اكتوبر – تشرين الأول – ١٩٥٦ .

إن مصر لا تستطيع ان تعيش منعزلة . وما من دولة عربية تستطيع أن تعيش منعزلة . وإنه من السهل على دولة عظمى أن تعيد احتلال مصر مرة اخرى ، ولكن من الصعب على أية قوة ان تحتل العالم العربي بأسره . لقد نجحت الأمبراطوريات الحديثة من حيث انها كانت توقع شعباً عربياً في الآخر ، ولأنه كان بمصر كثير من انصار سياسة العزلة » .

●

كما صور عبد الناصر هدف الاستعمار من هذه المؤامرات جميعاً :

« كان هدف الاستعمار دائماً أن يمنع أي تضامن عربي ، وهو لا يقصد بهذا

إلا حمـــاية إسرائيل والدفاع عن إسرائيل . وقد بدأت المعركة سنة ١٩٥٥ بتفكيك البلاد العربية ، وبجذب البلاد العربية بلـداً بلـداً حتى تدخل ضمن مناطق النفوذ وضمن المنظمات الدفـــاعية ، وحتى يكون الغرب مسيطراً على سياستها الخارجية وسياستها الدفاعية .

كان لنا في هذا الوقت هدف ، وفي نفس الوقت كان لنـــا تكتيك معين . نتحرك دائماً ولا نترك الظروف تفرض نفسها علينا ، ولكننا نفرض انفسنا على الظروف . ولا نترك المبادأة للاستعماريين ونأخذ دائماً المبادأة في أيدينا ، ونعمل لهزيمة غرضهم وهزيمة هدفهم . »

« ان معركة القومية العربية لم تكن معركة جديدة على العرب ، ولكنهـا كانت معركة قديمة استمرت سنين طويلة بين الاستعمار وبين القومية العربية .

ونحن حين بدأنا معركتنا وضعنا نصب أعيننا دائماً الظروف والأخطاء التي ارتكبناها في الماضي ؛ ولذلك لم نقبل ، بأي حال من الأحوال ، إلا أن يكون الدفاع عن هذه المنطقة ينبثق من المنطقة نفسها ، من الدول العربية بدون اشتراك أي دولة كبرى . »

« كانوا يريدون أن يشتركوا معنا حتى يحققوا أهدافهم بوضع هـذه المنطقة تحت السيطرة أو ضمن مناطق النفوذ .

وطبعاً وجدنا انفسنا مضطرين لأن ندخل معركة أخرى .

المعركة الأولى كانت من أجل إخراج الانجليز من بلادنا .

والمعركة الثانية كانت من اجل تحصين انفسنا ومنع الاستعمار ان يعود الينا بأي وسيلة من الوسائل . »

« لقد اعلنا مبادىء نعمل لها ، ونصمم على العمل بها ، ونحارب من اجل تحقيقها .

وظهر في المنطقة الحياد الايجابي وعدم الانحياز . كلام سيؤمن به كل مواطن في المنطقة العربية . الدفاع عن المنطقة يجب ان ينبعث من المنطقة نفسها، بدون الاشتراك مع أية دولة كبرى .

وبدأت القومية العربية تعتنق هذه المبادىء . »

قال عبد الناصر للاستعمار كلاماً جديداً غريباً لم يكن في الحسبان ان يسمعه الاستعمار .

قال لهم : « لامكان لمناطق النفوذ ، وإننا لن نخضع لمنطقة نفوذ احد ، ولن نخضع لسلطان أحد » ...

« إن سياستنا نستوحيها من بيئتنا ، ليس من أي دولة أخرى، فنحن لانريد ان نخضع لنفوذ أية دولة » .

« اننا نتبع سياسة مستقلة تنبع من مصر لا من لندن ولا من وشنطون ولا من موسكو . تنبع من ضميرنا ومن احساسنا » .

« انا لست رئيس وزراء محترف . انا رئيس وزارة جاءت بثورة . إنهم يعاملوننا على اساس الماضي ظناً انا سياسيون محترفون » .

« انا عن نفسي سأقاتل في سبيل عزة مصر وكرامتها لآخر قطرة من دمي ».

« انا لا أعرف ان هناك سلاحاً شيوعياً وآخر غير شيوعي . انا اعرف أن السلاح الذي يأتي الى مصر يصبح سلاحاً مصرياً » .

« ان الطريق الذي سلكته فرنسا وبريطانيا حيال أزمة السويس ، كما يسمونها ، وما تبع ذلك من غزو آثم غاشم على مصر الآمنة المسالمة ، بواسطة قوات الاستعمار متضامنة مع قوات الصهيونية ، كل هذا جعلني اقتنع تمام الاقتناع بعدم جدوى الاعتماد على كلمة الغرب . كنت اعتقدت ان اثق في كلمة زعماء الغرب وساسته . كنت اعتقد ان هناك في السياسات الدولية شيئاً اسمه الصدق والأمانة والإخلاص » .

« لقد ارادوا ان يجمعونا كقطعان من الغنم في منظمة عسكرية لا مصلحة لنا فيها ، وطبيعي انني رفضت » .

● وقال عبد الناصر لوزير خارجية الولايات المتحدة: «إن الأحلاف المفروضة من الخارج هي في نظر الشعوب استعمار جديد . وان الشعوب سوف تقاومها كما قاومت الاحتلال . وقال الوزير : ان بعض حكومات المنطقة ترحب بالنظام الجديد . وقال عبد الناصر : ان هذه الحكومات لا تعبر عن رغبات الشعوب .

وسيجيء وقت تبحثون فيه عن الذين عقدوا معكم هذه المعاهدات ولا تجدونهم .»
وكانت هذه نبوءة الرجل البعيد النظر الذي يتوقع الأحداث ويزنها بمقياس قوة القومية العربية النامية ، التي كان لا بد ان تحطم كل مؤامرة .

●

واذا كانت معركة السويس هي أضخم مؤامرة فإن عبد الناصر يصورها بقلم القائد المحارب في هذه العبارات :

« لقد نجحت الدول الاستعمارية في ان تحتل بور سعيد ، فهل كان احتلال بورسعيد نصراً لانجلترا وفرنسا والدول العظمى ؟.. كلنا يعلم ان اي جيش مهاجم يجب ان يأخذ رأس جسر لينفذ عمليات الإنزال . وكلنا يعلم ان هذه العمليات كانت تنجح دائماً نظراً لتركيز جميع القوى فيها . وبتركيز هذه القوى استطاع الانجليز ان يؤمنوا لانفسهم رأس كوبري ، وعندئذ قالوا : انهم نزلوا في بورسعيد !..

ولكن هذه مغالطة من الناحية العسكرية ، فالمعروف أن أي دولة أرادت أن تهاجم دولة اخرى وتعمل رأس كوبري قد تنجح في ذلك ولكن العبرة تكون بنتيجة المعركة » .

●

ومع مواقف الاستعمار البربرية الحاقدة فان مواجهة عبد الناصر للاستعمار كانت مثلاً في السمو والكرامة والبعد عن التعصب او الرغبة في الانتقام . كانت محاولة لتعليم هؤلاء الدهاقين درساً جديداً لم يسبق لهم ان تلقوه : كان هذا الدرس ايضاً نبوءة صادقة عما سيقع بعد ذلك في العالم العربي .

«في ٢٠ فبراير – شباط – ١٩٥٥ قابلت مستر إيدن في القاهرة ، وكان رئيس وزراء بريطانيا وقلت له : إنك اذا عملت قاعدة في بغداد فيها طائرات ومدافع وقنابل ذرية ، فسيكون في العراق عشرون قاعدة من احرار العراق ليقضوا على هذه القاعدة ، لأنهم لن يقبلوا ذل الاستعمار . ولن يقبلوا ذل الاحتلال . وسينتصر شعب العراق . وسيدمر هذه القاعدة » .

وقال عبد الناصر عن ساسة الغرب : « إن سبب الأزمة أنهم لا يقدرون

تطور الشعوب ، وانهم يتنكرون للتاريخ ويتنكرون للطبيعة . وان على الذين كانوا يُغفلون الحقائق ولا يرونها في الشرق الاوسط ان يفتحوا عيونهم قبل ان يجرفهم الطوفان » .

وقال عبد الناصر : « إننا لا نريد عداء أحد ولكننا ننشد صداقة الجميع . صداقة الأحرار المبنية على المساواة . نريد أن ننتفع بما لدينا وينتفع الآخرون.. نصادق العالم مصادقه الند للند » .

وصدق جمال وعده معهم ، وصدقت القومية العربية . أمّم القناة ، وقالوا إن مصر ستغلق القناة ، ولكن مصر كانت وفية بعهدها ومضت القنـاة مفتوحة لرفاهية العالم كله . وعندما أعلن احرار العراق ثورتهم قـال الاستعمار : إنهم سيحولون بينه وبين البترول . ولكن ثورة العراق كانت وفيه بعهدها . واطلقت البترول يمضي في طريقه لرفاهية العالم كله .

وهكذا أعطت القومية العربية المثل على التمسك بالوفاء والوعد الصادق ، ومضى الغرب يرسم خطط الغدر ..

قالوا لجمال عبد الناصر : إننا نريد ان نقيم حلفاً معكم حتى نحميكم من عدوان الاتحاد السوفييتي .

وقال جمال : اذا اعتدى علينا السوفييت سنطلب مساعدتكم . واذا اعتديتم علينا سنطلب مساعدة السوفييت .

وسخر القدر من اصحاب الوعود المضللة . وكانوا هم الذين اعتدوا علينا .

● ونفذ حكام الغرب سياسة العزل في محيطنـا المحدود ، وحطم عبد الناصر القيود . وطار الى باندونغ حيث أقام علاقات جديدة مع دول آسيا وافريقيا ، وكسب للعرب صداقات كانت بعيدة المدى في معاونتنا والوقوف معنا .

كانت باندونغ مقدمة لعمل ضخم ، هو « تصفية الاستعمار » ؛ فقد تضامنت الدول الآسيوية والإفريقية في هذا الهدف ، وقطعت فيه خطوات .

وفي باندونغ كان « عبد الناصر » قوة فعالة . شهد بذلك نهرو ، حين اعلن اذ ذاك :ان « ناصر » هو الذي انقذ المؤتمر بحكمته وحصافته في وضع التوصيات

التي قبلها الجميع .

● وواجه عبد الناصر عمـلاء الاستعمار في قوة بعـــد ان كشفوا عن نياتهم الحقيقية ، وصارح العرب بحقيقتهم . كانت هذه خطوة ضرورية لدعم القوميـة العربية. لقد حاول عبد الناصر ان يثني هؤلاء العملاء عن طريق الاستعمار ويحملهم مع التيار للعمل لأوطانهم ، وللتجمع في صف واحد ، ولكنهم كانوا يعلمون ان دعوة عبد الناصر هي المـوت لهم . انهم يعيشون على الاستغلال والاستبداد وتكميم الأفواه وسحق القوى في بلادهم والاعتماد على الاقطاع ومقاسمة الاستعمار عرق الفلاح وأجر العامل وحق المواطن الضعيف .

وتداعت معاقل الاستعـمار في مصر ولبنان والعراق ، وانتصرت دعوة عبد الناصر وسحق الشعب هؤلاء العملاء .

●

« كانوا يعتقدون ان الارهاب والسجن سيستطيع ان يحطم الكثرة ، ويحطم التصميم ، ويحطم العزم ، ويحطم الآمال . ولكن الارهاب والسجن والتعذيب والتقتيل كان يزيد النار اشتعالاً .

«حينما قـامت الثورة في مصر كنا نرى المحاولات التي تـتركز في وطننا من اجل ابعاد مصر عن الأمة العربية . وكنـا نرى في نفس الوقت المحاولات التي تركز في كل عاصمة عربية من اجل ابعادها عن كفاح العالم العربي .

« حاول الاستعمار ان يفرق بين الأخ والأخ . وان يفرق بين البـــلد العربي والبلد العربي .

● قد يتمكنون من ان يقيموا الحدود ، ويقيموا الفواصل . وقد يتمكنون من ان يقيموا اعواناً لهم . ولكنهم لن يستطيعوا ان يغزوا هذه القلوب التي آمنت بحريتها ووحدتهـا . قد يستطيعون ان يقيموا اعوانـــاً لهم في الوطن العربي ، ولكنهم لن يستطيعوا مطلقاً ان يسيطروا على مشاعر الشعب العربي » .

● « فاذا قام بيننا اليوم بعض الخونة من أعوان الاستعمار لينادوا من ربوع هذه الامة العربية : ألا سبيل لنا إلا إذا تحالفنا مع الاستعمار فإني أقول لهم :

الله يرحمكم ايها العبيد !...

إنكم تنكرتم لأمتكم . وتنكرتم لتاريخكم . وتنكرتم لقوتكم ومجدكم ».

● ان مدافع الاستعمار عجزت دائماً عن حماية العمــلاء . بل إنها عجزت في أوقات كثيرة عن حماية نفسها » .

●

ومضت الدول التي يرئس حكوماتها عملاء للاستعمار تسعى الى عزل مصر ، إيماناً بسياسة سادتهم الذين قالوا : إنهم شطبوا اسم جمال عبد الناصر من الشرق الاوسط (They have written Nasser off)

وقال جمال عبد الناصر : إن هؤلاء الحكام قد عزلوا انفسهم عن شعوبهم. ووقف الناس في كل مكان ينتظرون الحقيقة لكي يعلموا أين الحقيقة : وانهارت قلاع الاستعمار . وسقط الحكام العملاء .

وصدق جمال عبد الناصر .

انتصارات

« ان السلاسل تحطمت ، والوصاية سقطت ، والشخصية المستقلة برزت ، واحتكار السلاح انتهى : لا في بلد يمكن عزله وحصاره ، وانما في منطقة شاسعة يتدفق فيها تيار واحد ، هو تيار القومية العربية ، يغمر الارض ما بين المحيط الاطلسي والخليج العربي . والضغط الاقتصادي ومعركة التجويع افلتنا منها . والقتال لم يستطع ان يفرض علينا الاستسلام .»
« جمال »

مضت دعوة عبد الناصر بين خطين واضحين : مؤامرات وانتصارات . كانت تفسد كل مؤامرة لتحقق بعدها نصراً باهراً . كانت انتصاراته ضربات قاصمة للاستعمار وعملائه . كان الغرب بأجهزته السرية ومخابراته يفاجأ بهذه الانتصارات فيصيبه الدوار والذهول .

انتصر جمال في معركة الجلاء ، حينما حقق الجلاء لمصر بعد بضعة وسبعين عاماً . وانتصر في معركة السلاح ، حينما حطم ذلك القيد الذي فرضه الغرب على العرب حين اقام في وجههم السدود دون التعامل مع الكتلة الشرقية .

وانتصر في معركة الاحلاف . وانتصر في معركة تأميم القنال . وانتصر في حرب السويس . وحقق باسم القومية العربية خطوات ايجابية في قيام الجمهورية العربية المتحدة وقيام المجتمع الاشتراكي التعاوني ، وبنى السد العالي .

ولكن هل ازدهاه النصر ؟... « اليوم، ونحن نشعر بالحرية ، ونشعر بالعزة ،

ونشعر بالكرامة ،لا اريد ان نزهو بالنصر ،ولا أريد ان يجرفنا الفخر أبداً . إن الفجر الذي انبلج بالأمس كان مجرد بداية فقط . إننا اليوم نسود في وطننا لأول مرة منذ زمن طويل » .

ووقف الغرب مذهولاً أمام الايجابية والبناء ، واطراد النمو والقوة. لم يجد امامه الا شيئاً واحـداً هو التآمر . ومع ذلك فقـد تحطمت مؤامراته الباغية واحدة بعد الأخرى على صخرة الوحدة والثقة واليقظة .

« لقد أرادوا ان يجمعونا ويسوقونا كقطعان الغنم في منظمـة عسكرية لا مصلحة لنا فيها ، أطلقوا عليهـا اسم حلف بغداد ، وطبيعي أنني رفضـت ؛ فقالوا : انني اختلق لهم المشكلات . لقد احتكروا تزويد منطقتنا بالسلاح ، واستغلوا قوتهم لتهديدنا والسيطرة علينا ، فلم اجـد طريقاً سوى ان الجأ الى المعسكر الشرقي لشراء الأسلحة الضرورية للدفـاع عن سلامتنا ، فقالوا : انني أسبب لهم المتاعب .

لقد احتكروا منتجاتنـا وسيطروا على تجارتنا بشكل بات يهدد اقتصادنا وكرامتنا . ولذلك قررت عقد اتفاقيات وصفقات تجـارية مع دول اخرى ؛ فقالوا أيضاً : انني اسبب لهم مشكلات » .

وانتصرت القومية العربيـة في بور سعيد ، وكانت اول تجربـة في معركة تدخلها . واشترك العرب كلهـم في معركة بور سعيد . « في كل مكان كان العرب يهددون مصالح المعتدين ومصالح المستعمرين . اتسع ميـدان القتال فأصبح ليس بور سعيد فقط . ولكن أصبح ميدان القتال البلاد العربية كلها . لم يكن العساكر الانجليز في بور سعيد وحدهم مهددين بالفدائيـين وبحرب العصابات في داخل بور سعيد . ولكن اصبحت مصالح الاستعمار كلها مهددة في كل مكان من الوطن العربي » .

ولم تُنس آيات النصر الباهر جمالاً دعوته الخالدة : السلام !..

« في ايام الجلاء ، واعياد الجلاء ، وحينما شعرنا بالاستقلال السياسي ، اتجهنا الى العالم اجمع وقلنا : فلننس ما مضى ! ... واتجهنا ايضا الى المستعمرين ، الى

الناس الذين جاؤوا واحتلونا وخرجوا بعد ان قتلوا آباءنا واجدادنا ، فقلت في ١٩ يونيه – حزيران – انني سأمد يدي للجميع . ان مصر تمد يدها الى الجميع ، وانها ستسالم من يسالمها وتعادي من يعاديها ، اننا نتبع سياسة مستقلة ، تنبع من مصر لا من لنـــدن ولا من واشنطون ولا من موسكو . ولا من اي دولة من الدول . سياسة تنبع من ضميرنا ومن إحساسنا . وإننا مستعدون للتعـــاون مع الجميع ، ولكن هذا التعاون لن يكون ابداً على حساب قوميتنا او على حساب عروبتنا » .

ولكن هل قبل الاستعمار هذه الدعوة الحرة الشريفة ؟

كلا . إنه كان يدبر مؤامرة جديدة .

ولكن عبد الناصر لم يتوقف عن هذه الدعوة . كان في كل انتصار يعيدهـا مرة اخرى على اسماع العالم :

« اذا كان العالم قد استطاع ان يحيط اللثام عن سر الذرة العظيم ، فإن هذا العالم يستطيع ان يثبت ان طاقته المعنوية وطاقته الروحية أقوى من عضلاته . وأقوى من قدرته على التهديد . وإلا فأنه سيدمر الأرض ويدمر نفسه ».

●

● معركة السلاح :

اذا كان التاريخ يسجل للأمة العربية خطوة جديدة جريئة غير مسبوقة ، قد عجز عنها حكام العرب وقادتهم في خلال الفترة الماضية ، وحققها جمال عبد الناصر ، فتلك هي تحطيم قيد السلاح . وتزويد الجيش العربي به من كل مكان ، وبدون قيد أو شرط . وبناء مصانع الاسلحة الثقيـلة في قلب الوطن العربي . وهو ما كان مستحيلاً من قبل .

كان الحديث عن السلاح في الماضي أمراً خطيراً مخيفاً . فقد حرص الاستعمار على تحطيم قوى الجيوش العربية حتى لا تكون قادرة في يوم من الايام ان تدافع عن نفسها . ذلك ان الاستعمار كان يعرف ان هذا السلاح سيوجه اول ما يوجه الى صدره هو . وقد كان طبيعياً أن يعمل الاستعمار على خلق قيادات تدين له

له وتخضع لولائه ، وان يبث في صفوف الجيوش بعثات استعمارية لتحول دون نمو هذه الجيوش .

ولذلك كان السلاح دائماً يقدم وفق أسلوب عجيب ، قوامه تجميد القوى الوطنية وشلها تماماً . وكان يقدم للحكومات وفق شروط غريبة ، وفي ظل محالفات عجيبة ، بل إن السلاح قد قدم لبعض الدول العربية بشرط ألا يستعمل ضد اسرائيل !...

وقد بدأ جمال عبد الناصر معركة السلاح بان طلبه من الغرب . لم يطلبه استجداءً بل أعلن استعداده لدفع الثمن . قالوا : اننا لا نستطيع ان نعطيكم السلاح الا اذا وقعتم معنا ميثاق الأمن المتبادل . ومعنى هذا ، ان تأتي بعثة امريكية فتسيّر أمور الجيش المصري .

قال لهم جمال : إن لنا تجارب ، فقد كنا موجودين في الجيش . وإن لنا تجارب كبيرة مع البعثات العسكرية . فقد جاءت بعثة عسكرية الى الجيش المصري سنة ١٩٣٦ ، عندما كنا ضباطاً صغاراً . كنا ملازمين ثواني وملازمين أوائل وكنا نحتك بهم . فكنا نجد أن هدفهم الأول هو إضعاف الجيش المصري ، وبث روح الهزيمة ، وروح عدم الثقة في الجيش المصري . إننا لا يمكن بأي حال من الأحوال ان نقبل بعثة عسكرية . ولهذا لا يمكن ان نوقع معكم ميثاق الأمن المتبادل ...

« اننا نريد الجيش المصري يمثل مبدأ الثورة . إننا قلنا في مبادئنا إننا نريد بناء جيش وطني قوي . لهذا فنحن لا نقبل ابداً أن يكون الجيش المصري تحت سيطرة ضباط أجانب . هذا الجيش ، لن يعمل إلا لمصلحة هذا الشعب . ولمصلحة ابناء هذا الشعب » .

وعادوا مرة اخرى يعلنون استعدادهم لإعطاء جمال السلاح . ولكنهم لم يقبلوا لا بالمجان ولا بالثمن إلا بعد توقيع صك وصفه جمال بأنه « صك عبوديتنا ، صك نسلم به وطننا . ونسلم به ابناءه لهم . ليسيروهم كما يشاؤون . وليعملوا ما يطلبون . كانوا يريدون منا ان نوقع صكوكاً تمكنهم منا وتعتبرنا في هذا البلد

غرباء . لا نستطيع ان نقرر سياستنا . ولكن نتبع السياسات التي تملى علينا من الاستعماريين وتجار الحروب والمستغلين والمستبدين » .

● انه حين اراد ان يقوي جيشنا لم يكن يريد العدوان . وإنما كان يريد ان يؤمّن قوميتنا وعروبتنا ... « ان هذا الجيش هو حامي هذا الوطن، يقف دائماً على أهبة الاستعداد ليدافع عن الحدود ، لا نريد سلاحاً للعدوان ، ولكنا نريد سلاحاً حتى نطمئن ، وحتى نشعر بالسلام ، وحتى لا نشعر بالتهديد .

لقد ارقنا ماء وجوهنا ولكنا لم نحد أبداً عن مبـــادئنا . وقد صممنا على المحافظة على المبادىء ، والمثل .

إن فرنسا كانت تساومنا دائماً . تساومنا على شمال إفريقيا. وتقول لنا دائماً: إننا نعطيكم السلاح على شرط الا تنتقدوا موقفنا في شمال إفريقيا ، وعلى شرط ان تتخلوا عن عروبتكم . على شرط ان نتخلى عن انسانيتنا . على شرط أن نرى المذابح التي تحدث في شمال افريقيا ونسكت عليها .

اما امريكا فقد اشترطت أن نأخذ السلاح على أساس ان نوقع على ميثاق أمن متبادل . نوقع على حلف من الاحلاف . ورفضنا ان نوقع وثيقة الأمن المتبادل ؛ ورفضنا أن نوقع على حلف من الأحلاف .

وحينما رأينا هذا النفوذ الذي يتحكم فينا وفي رقابنا ، قررنا ان نطالب جميع دول العالم بأن تمدنا بالسلاح بلا قيد ولا شرط . وقدمت هذا وقلت لهم : ان هذه الأسلحة ستستخدم في الدفاع . اننا ليست لنا أية نوايا عدوانية . اننا نريد أن يكون لنا جيش حر مستقل يسند هذا الوطن في أهدافه الحرة المستقلة .

ووصلنا رد من حكومة تشيكوسلوفاكيا تقول فيه انها مستعدة أن تموننا بالسلاح بحسب حاجتنا على أساس تجاري بحت ، فقبلنا هـــذا الاتفاق ، وهذه الاتفاقية تسمح لمصر بأن تدفع الثمن منتجات مصرية » .

● ومضت الضجة في انحاء العالم الغربي في صخبها العاتي . ولكن جمـــال عبد الناصر كان يعرف هدفه بوضوح ، وقد افصح عن العوامل الحقيقية لهذه الخطوة الجريئة :

«من الذي اقام اسرائيل في هذه المنطقة ؟
«من الذي كان منتدباً على فلسطين ؟
«من الذي سلمته عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الاولى حق الانتداب على فلسطين ؟
«من الذي اعطى وعد بلفور ١٩١٧ ؟
«من الذي سبب نكبة أهالي فلسطين، وسمح للصهيونيين أن يتسلحوا ومنع العرب من أن يتسلحوا ؟

الجواب : بريطانيا

لقد جاءت يوم ١٥ مايو – أيار–١٩٤٨ وتركت العرب للصهيونيين. وهي تعلم أن الصهيونيين مسلحون . وان تسليحهم قوي . وان العرب عزل من السلاح .

ماذا كانت تهدف بريطانيا. وماذا كانت تهدف امريكا التي اعترفت بإسرائيل يوم ١٥ مايو – ايار – بعد دقيقة واحدة من اعلانها؟.. كانوا يهدفون الى هدف واحد : هو القضاء على قوميتنا . انهم يعتبرون ان لنا قومية تجمعنا من المحيط الأطلسي الى الخليج العربي . كلنا عرب نتكلم اللغة العربية . هذه القوة يجب أن يعمل لها حساب ، إذ انها ، اذا استيقظت اصبحت قوة دولية كبيرة .

ماذا حدث في فلسطين : عملية إبادة . لم تكن هذه العملية تهدف الى إبادة فلسطين فقط ، ولكنها كانت تهدف الى إبادة القومية العربية جميعاً ، وإبادة العرب إبادة كاملة . قضاء على جنس كامل .

كان لا بد لنا ان نطلب سلاحاً لندافع به عن انفسنا حتى لا نصبح لاجئين كما أصبح اهل فلسطين لاجئين ، وهم في حماية بريطانيا تحت الانتداب !..

كان لا بد ان نجد سلاحاً بأي سبيل ، حتى لا نكون دائماً تحت هذا التهديد. واحضرنا السلاح دون قيد او شرط .»

● معركة الجلاء :

وتعطي معركة الجلاء جانباً من صورة جمال عبد الناصر ، وقطاعاً من شخصيته الباهرة :

لماذا خرج الانجليز من مصر ؟ وبعد سبعين عاماً ؟.. لقد كانت مصر تجاهد منذ اليوم الاول للاحتلال دون جدوى . كانت الصفوف تحـــارب وتسقط ، لتجيء صفوف اخرى تحارب . ولطالما قدمت مصر الشهداء . كان الشعب كله يؤمن بحقه في الحرية، ولكن حكامه وزعماءه كانوا قد تحالفوا مع هؤلاء المستعمرين على نحو من الأنحاء ، كان للاستعمار في مصر عملاء واعوان يعتمد عليهم ويعمل بهم . فلم يكن لأي كفاح قوة فعالة لإخراج الإنجليز مع وجود هذه الدعـــائم القوية : هذه الدعائم التي تتمثل في القصر والحزبية والاقطاع. لذلك فقد كان من أول ما فكر فيه جمال عبد الناصر ، في سبيل تحرير مصر ، هـــو تحطيم هذه الصخور الضخمة العاتية .

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل إن عبد الناصر قد قام بعمل آخر ضخم ،لعله لم يعرف في حينه ، ولكنه كان بعيد الاثر في إجلاء هذه القوات . لقد قـام في منطقة القنـال كفاح ضخم أصار هـذه المعسكرات الى جحيم ، أحس معـــه البريطانيون بأنه لم يعد لهم مقام فيها .

ويقول جمال عبد الناصر «بدأ الكفاح في القناة . ولم نكن ننشر أخباره في الصحف . حدث في القناة قتال مرير. مات فيه أناس كانوا يؤمنون بالنصر وبحرية مصر . كان اقصى ما يتمناه كل واحد منهم ان يهب روحه فداء هذه المبـادىء العليا . مثل مصطفى حافظ وصلاح مصطفى . اناس ذهبوا الى القنال ليكافحوا وليقاتلوا . واستطاعوا ان يجعلوا القوة الانجليزية التي تبلغ ٨٠ الفاً في القناة لا تحمي الشرق الاوسط او تحمي القناة . ولكنها لا تستطيـع حتى حماية نفسها . استطاعوا ان يجعلوا هذه القوة موجودة لتدافع عن وجودها . وقد استطاعوا ان يذيقوا قوات الاحتلال كل صنوف العنف والقوة ، لتقف آخر الأمر وتعلن انه لا يمكن ان توجد في بلد معاد . وان القاعدة ليس لها فائدة من بقائهـــا في بلد معاد .»

هؤلاء الثمانون الفاً الذين جاؤوا بهم لحماية الشرق الاوسط لم يستطيعوا حماية انفسهم ، وليست هناك فائدة لبقائهم هنا . وهذا هو السبب الأســـامي في

الوصول الى اتفاقيـــة الجلاء ، الكفاح والعرق والدماء والجهاد والاستشهاد . استشهاد الأبطال الذين ماتوا ولم تقل اسماؤهم . الناس الذين اصيبوا ولم تقل اسماؤهم في معارك القناة الطويلة التى استمرت منذ قامت الثورة حتى اعلن اتفاق الجلاء. كان هذا هو السبب الأساسي للجلاء . وخرجت انجلترا من مصر وهي تؤمن بأن لا وجود لها في مصر لأن شعب مصر قد استيقظ . وقد آلى على نفسه ان يحقق لها الحرية في الحياة . وهذا هو السبب الحقيقي للجلاء . »

كان هذا العمل الذي صنعه جمال في معركة الجلاء شيئـاً جديداً ، لم يكن في استطاعة زعمائنا السياسيين والوطنيين على السواء القيام به .

● الجمهورية العربية المتحدة

وعندما قامت الجمهورية العربية المتحدة كانت نصراً باهراً هز دوائر الاستعمار وكان علينا ان نفهم معنى هذا الانتصار ؛ ما هو المعنى الحقيقي لقيـام الجمهورية العربية المتحدة ، وما هي الدوافع التي دفعت الشعب العربي لأن يتبنى فكرة الوحدة ؟ ما هي الدوافع والعوامل التي جعلت الشعب العربي في كل بلد عربي ينادي بالوحدة ويعتبرها تحقيقاً لآماله .. :

« انا كفرد ، كنت أفكر في الحال التي وصلنا اليها بعـد مأساة فلسطين في سنة ١٩٤٨ ؟ وكانت المشكلة التي تواجه كل عربي يهتم بوطنه، هي: كيف نستطيع ان ندافع عن انفسنا ضد العدوان .

كانت هناك افكار وآراء تختلف وتتناقض . بعض الآراء يقول : اننا كدول عربية ، وكدول صغرى ، لن نستطيع مطلقاً ان نحقق الحرية ، ولن نستطيـع مطلقاً أن نعيش في أمان ، ولن نستطيع ان نتخلص من السيطرة الاجنبيـة ، لأننا لا بد ان نقع تحت سيطرة اجنبية اخرى . ولا بد لنا من دولة كبرى نعتمد عليها لكي تحمينا ، ولكي تتولى الدفاع عن بلادنا واراضينا .

كانوا يقولون : انه لا بد من ان نقيم حلفاً مع دولة اجنبية حتى نستطيع ان نحمي بلادنا ، وكانوا يتناسون ان هذا الحلف وهذه المعاهـدة ليست الا نوعاً من

أنواع العدوان .

« اليوم نشعر ان القومية العربية تتحقق . ان الماضي لن يعود . لن يسيطر علينا اجنبي ، ولن يستبد بنا مستبد .

لقد قامت دولة كبرى في هذا الشرق. ليست دخيلة فيه ولا غاصبة . ليست عادية عليه ولا مستعدية » .

وتوالت الانتصارات . ثار لبنان على مبدأ ايزنهاور وعملاء الاستعمار .

ونجحت الثورة وعزلت العملاء . وثارت العراق على حلف بغـــداد وعملاء الاستعمار والملكية وحطم كل السدود والقيود . ومد المارد العربي رأســه الى أعلى ليرى كيف اصابت الهزيمة معسكر الاستعمار وهزته من الاعماق .

●

ولكن هل كنا معتدين على احد ؟... كلا . إنما كنا نصحح أوضاعنا ؛ ومع ذلك فقد حمل عبد الناصر دعوة السلام :

« عليكم ان تفهموا منطق الاحرار ، وان تتناسوا منطق الاستعمار . إن الاحرار منطقهم مبني على الشرف ، فهم اذا عاهدوا عاهدوا بشرف . وهم اذا سالموا سالموا بشرف . وهم اذا قاتـلوا قاتلوا بشرف . وهم اذا دافعوا عن بلدهم دافعوا بشرف . وإني اشعر بالعزة ان على رأس الحكومة حكومة من الأحرار ، ولم يبق بينهم خونة ولا عملاء . لقـــد انتهى منطق الاستعمار . ولا يوجد غير منطق الاحرار الذين لا يغريهم ولا يثنيهم تهديد ولا وعيد . انالاحرار الشرفاء إذا وعدوا فإنما يعدون وهم متمسكون بشرفهم . إننا نريد ان نحافظ على عزتنا وان نعمل من اجل السلام . لان السلام هو هدف لنا . سندافع عن هذا النصر الذي استشهد من اجله الكثير من ابنــاء هذا الوطن . سندافع عن وطننا الى آخر قطرة من دمائنا . ان مصالح العالم كله محفوظة مصونة بعد ان اعلنا نحن في الجمهورية العربية المتحدة ان مواصلات البترول وانابيب البـــترول محفوظة مصونة . نحن نؤمن بالسلام ،ولكنا لانسمح ابداً لأي بلد ان يعتدي علىحدودنا او يعتدي على حدود بلد عربي شقيق لنا . لن يكون في هذه المنطقة مكان لخائن

او عميل .اننا نتفق مع اخوتنا في العراق على الاخوة في السلاح من اجل الدفاع عن الجمهورية العربية المتحدة ، ومن اجل الدفاع عن كل بلد عربي حر . »

وعندما ضغط جمال ومعه – محمد الخامس وشكري القوتـلي – يوم ٩ يناير – كانون الثاني – على زر فانفجرت على بعـد سبعمائة متر عشرة اطنان من الديناميت حطمت ٢٠ الف طن من الصخور ، وانشقت اول فتحة من قنـاة السد العالي .. قال جمال كلمة خالدة :

الوفاء يمـلأ قلوبنا لمن ساعدونا
ولا حقد على الذين حاربونا . .

وتكفي هذه العبارة لتعطي صورة رائعـة عن عظمة جمال وقوة شخصيته ومدى ما تنطوي عليه نفسه من نقاء وطهر ...

في الآفاق الواسعة

« ان ظروف التاريخ مليئة بالابطال الذين صنعوا لانفسهم ادوار بطولة مجيدة مشرفة ، قاموا بها في ظروف حاسمة . وان ظروفا حاسمة ، وان ظروف التاريخ ايضا مليئة بادوار البطولة المجيدة التي لم تجد بعد الابطال الذين يقومون بها على مسرحه . ولست ادري لماذا يخيل الي دائما ان في هذه المنطقة التي نعيش فيها دورا هائما على وجهه يبحث عن البطل الذي يقوم به . ثم لست ادري لماذا يخيل الي ان هذا الدور الذي ارهقه التجوال في المنطقة الواسعة الممتدة في كل مكان حولنا قد استقر به المطاف متعبا منهوك القوى على حدود بلادنا ، يشير الينا ان نتحرك . وان ننهض بالدور، ونرتدي ملابسه ، فان احدا غيرنا لا يستطيع القيام به .

وابادر هنا فاقول : ان الدور ليس دور زعامة . انما هو دور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل يكون من شانه تجربة لخلق قوة كبيرة في هذه المنطقة ترفع من شانه وتقوم بدور ايجابي في بناء مستقبل البشرية .»

«جمال»

❋ ❋ ❋

كانت رحلات جمال عبد الناصر الى آسيا وأوربا ، الى باندونج والحجاز والهند وروسيا ويوغسلافيا ، من أبرز المعالم التي كشفت عن شخصية هذا الثائر العربي . فقد لمع عبد الناصر بمواقفه الحاسمة وكلماته الرفيعة ، وكان موضع تقدير زعماء الغرب والشرق على السواء وإعجاب شعوبهم . كان المواطنون في كل مكان يتلهفون الى رؤية الرجل الذي حرر العرب وأمم قناة السويس وحطم قيود الاستعمار ، وسحق الإقطاع .

لقد كان اتجاه جمال الى آسيا والى الشرق متمشياً مع سياسته التي أعلنها منذ اليوم الأول : إنه يؤمن بالامة العربية ويدعو الى السلام والى التعـايش السلمي والحياد الإيجابي .

« انني لن أدخل اي حلف ، ولن ارتبط خارج نطاق ميثاق الضمان الجماعي ، وان سياستي هي تقوية المنطقة العربية وإعدادها للدفاع عن نفسها ضد اي اعتداء مهما كان مصدره » .

ورسم جمال خطوط العمل بين دول آسيا وافريقيا بإحكام فقال :

« إن التعاون بين الشعوب الاسيوية والإفريقية ليس عاملاً على تخفيف حدة التوتر الدولي القائم فحسب ، بل هو معوان لتلك الدول التي تمثل أكبر قارتين ، وسكانها اكثر من نصف سكان العالم ، على التقـــدم ، وتحقيق مستوى معيشة أرفع . وتحقيق هذا الغرض ، كما لا يخفى ، لازم لهدف تال : وهو السلم العالمي.

فليس معنى السلم مجرد « لا حرب » بل إنـــه يستوجب جهوداً متضافرة متواصلة لتهيئـــة جو من الاستقرار السياسي والنمو الاقتصادي والعدالة الاجتماعية ... وكلها مقومات لا غنى عنها لإنشاء مجتمع عالمي سليم » .

ووقف جمال عبد الناصر في مؤتمر باندونغ الذي ضم اكثر من ٣٠ دولة ، وضم نهرو وشواين لاي وسوكارنو ، وأعلن وجهة نظر بلاده في دعم السلام العالمي وتحرير الأوطان المغلوبة :

« ستعمل على أن تساند الحرية والتحرير في جميع أنحاء العالم . وستعمل على القضاء على الاستعمار في جميع أنحاء العالم . وستعمل على تقرير المصير للدول التي لم تتمتع باستقلالها في العالم . وان مصر ستتبع دائماً سياسة خارجية مستقلة من وحي ضميرها . وان مصر ، التي تحررت ، تريد ان ترى جميع الشعوب حرة . ستعمل مصر ما في وسعها لإقرار السلام العالمي واقامة تفاهم وتعاون بين الدول. وان مصر لن تخضع لأي أسلوب من أساليب الضغط السياسي التي تتبعها الدول الكبرى لتحقيق اهدافها » .

●

ومن آفاق جمال عبد الناصر ربط المسلمين في مشارق الارض ومغـــاربها بموسم الحج ، ليخلق منهم قوة تحررهم من شتى صنوف الاستعمار .

فقد كانت فكرة المؤتمر الاسلامي تراود اعـلام المسلمين في المشرق والمغرب منذ مئات السنين حتى جاء جمال ليحققها .

فلقد رأى جمال ان في افريقيا كتلا بشرية تتحدث عن دين . لقد ذهب اليهم الاستعمار وراء طليعة من المبشرين انبثوا في المراكز الحساسة ، وبثوا في كل منها كنيسة ومستشفى ثم راحوا يعملون بجهد لا يعرف الملل .

وهو يقول : لماذا لا نذهب الى هناك لنقدم لهذه الكتل البشرية الهائلة ديننا، ونقدم لهم الحرية معه . . .

ذلك أن جمال يؤمن بأن ملايين المسلمين في جميع الأمصار ، يمكن أن يكونوا قوة لا تقهر . وتستطيع هذه القوة ان تأخذ حقها في العلم والرزق والحياة والعمل .

وهو لا يرى ان الحج تذكرة الى دخول الجنة ، وانما هو موعد لتلتقي فيــه آمال المسلمين ليتخذوا موقفاً إزاء مشاكلهم وآلامهم . فمكة هي الكعبة الـتي يتجه اليها المسلمون في كل بقاع الأرض ، وفي موسم الحج ، فيجب ان يجتمع فيها قادتهم لـكي يتلاقى الكفاح وتتوحد الاهداف .

يقول: « لقد وقفت أمام الكعبة ، وأحسست بخواطري تطوف بكل ناحية من العالم وصل اليها الاسلام . ثم حدثتني نفسي :

« يجب ان تتغير نظرتنا الى الحج . لا يجب ان يصبح الذهاب الى الكعبــة تذكرة لدخول الجنة بعد عمر مديد . او محاولة ساذجة لشراء الغفران بعد حياة حافلة . يجب ان تكون للحج قوة سياسية ضخمة . ويجب ان تهرع صحافة العالم الى متابعة انبائه ، لا بوصفه مراسم وتقاليد ، وانما بوصفه مؤتمراً سياسياً دورياً ، يجتمع فيه كل عام قادة الدول الاسلامية ورجال الرأي فيها ، وعلماؤها من كافة انحاء المعمورة، وكتابها ، ليضعوا خطوطاً عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معاً» .

فلما ذهب جمال الى موسم الحـــج بدأ الموقف يتبلور في الصورة التي ارادها

كأنما كان يراها بظهر الغيب .

يقول انور السادات : « كان يقبل علينا مسلمون من آسيا ومن افريقيا ومن كل اطراف الدنيا ثم يحيطون بنا . إنهم يريدون ان يقولوا لنا شيئاً ... وخيل إلي، وهم يحيطون بجمال عبد الناصر مرحبين وملهوفين إنهم يودون ان يقولوا له : أيها الثائر الذي من مصر : ماذا نصنع ؟

كانت الوجوه كلها تفصح عن هذا السؤال ، بل وكانت تفضح عن عديد من الاسئلة، وجمال عبد الناصر يبدو وسط وفودهم مثل امل هائل، انتقل من ضفاف النيل الى ارض المسلمين جميعاً : «الحجاز» .

وتحدثنا اليهم وتحدثوا الينا .

وجمال يطرق برأسه أحياناً الى الارض ثم يرفعه الى السماء وفي عينيـه شيء يريد ان نترجمه الى كلمات يقولها للوفود الملهوفة المقبلة عليه. الحبيبة الى نفسه».

●

ان هذه خطوة اخرى لا بد منها عندما يعمل جمال على ربط افريقيا وآسيا لتقف في وجه الاستعمار . وقد مضى في هذا العمل وما زال ماضياً .

في مرآة الغرب

لطالما كتبت صحف الغرب عن جمال . كان بعضها منصفا ، وكـان البعض الاخر متعصبا للاستعمار . ولكن ما من كاتب او صحفي قدم الى ارض العرب وشاهد ذلك التيار الدافق الذي يهدر في محيطنا من الخليج الى المحيط مؤمنا بدعوة جمال ، محبا لجمال ، الا واضطرته حرارة هـذا الايمان الى ان يقول كلمة الحق .

« القلوب كلها تتجه نحو قلب واحد . صور عبد الناصر فوق سيارات التاكسي . في البيوت . في القهاوي البلدية . المسلمـون والمسيحيـون يسمون اولادهم جمال . القسس يدعون له في الكنائس . الرهبان يهتفون بحياته في الاديرة . خطبه تسجل . والمسارح تعرض اغاني عنه . وصالات الرقص التي لم تكن تعرف الا اغاني الهوى انقلبت فجـاة تعنى باناشيـد العروبة التي تنتهي بذكر جمال عبد الناصر . وعندما عقد مؤتمر لندن اضرب العالم كله . مائة مليون عربي كانوا يهتفون بانهم فداء جمال . جاء هـذا الاضراب التاريخي (يوم ١٧ اغسطس ـ آب ـ ١٩٥٦) دليلا واضحا عـلى قوة الوحدة العربية في الشعور بالالم والامل . كان اقوى برهان على ان القومية العربية قد بلغت الذروة من القوة واليقظـة ، وان هذه القوميـة الواعية لن تخدع عن حقوقها مرة ثانية . ولن يسرقها الاستعمار في وضح النهار ، كما فعل في الماضي ، فقد شمل الاضراب العالم العربي كله ، من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي » (١)

وهذه بعضالصور التي تعطي صورة جمال عبدالناصر في مرآة الغرب :

---

(١) مصطفى امين .

- ١ -

● كارنجيا : الكاتب الهندي

عبد الناصر الذي وحد العرب جميعاً من مراكش إلى بغـــداد تحت لواء الكفاح والنضال المشترك من اجل تكوين وطن عربي موحـــد ، وأمم قناة السويس وأوقـــع الهزيمة بجيوش بريطانيا وفرنسا واسرائيل ، ورد المعتدين على أعقابهم واجبرهم على الانسحاب فوراً دون قيد او شرط .

وخلال جولتي في لبنان والاردن وسورية ومصر ، وفي كل بلدٍ من بلدان الوطن العربي ، كنت استمع الى الشعب وهو يصيح من صميم فؤاده : «جمـــال الحبيب الناصر » ؛ اما صورته فكنت اراهـا على جدران المباني ، وفي شرفات المنازل وفي المحال العامة ، وفي كل مكان .

ولما اصبحت على وشك مقابلة ذلك الرجـل الباسل والسياسي القدير الذي اهتزت له الارض من أقصاها الى اقصاها ، وخاصة بعـــد انتصاره في حرب السويس – والذي بات يحتل مركز الصـدارة في صحف العالم – رحت أسائل نفسي : ترى أي نوع من الاشخاص سيكون ?..

وهل يمكن تشبيهه بهتلر . موسوليني . ستالين . صلاح الدين . اتاتورك . أو أنه فرعون القرن العشرين جاء ليبعث مجـد مصر الغابر من جديد ! . أو ليس من المحتمل ان هذا الرجل قد أراد لنفسه ان يكون قيصراً على امبراطورية عربية في شمال افريقيا ? ان قائداً من قادة الامم – حتى هتلر وموسوليني – لم يهاجم بنفس العنف الذي يهاجم به عبد الناصر من اعدائه : اعداء القوميات واعداء السلام . ومع ذلك فقد اصبح جمال عبد الناصر – في اعتقادنا معشر سكان

آسيا وافريقيا – رمزاً للعناية الإلـهية التي هبطت من السماء للدفاع عن بور سعيد وحماية قنـــاة السويس من اغارات الغرب ، والحيلولة دون اعادة استعمارها من جديد .

ولما دخلت المنزل الصغير المتواضع، وسمح لي بدخول مكتبه المتواضع ايضاً، هدأت نفسي وانفضت عني ملامح الحيرة والارتباك . وكان سبب ارتباكي هـذا هو اعتقادي ان الملوك والرؤساء دائماً يختارون لسكناهم القصور الفخمـة والمباني الرائعة الضخمة كي يضفوا على انفسهم نوعاً من الهيبة والوقار ، وشيئاً من صفات الإلـه الجبار ، او الشيطان المارد حتى يخشاهم ويشعر بجلالهم وقوتهم كل من حاول الاقتراب منهم أو التحدث اليهم . ولكنني وجـدت الامر يختلف تمام الاختلاف مع الرئيس جمال . وسرني انه لا يعرف مثل هذا الغرور ولا يعتقـد في المظاهر الكاذبة .

ان محـرر العرب ، لم يشعر في يوم من الايام بأية رغة تدفعه الى تغيير المنزل المتواضع الصغير الذي كان يقيم به، وهو لم يزل بعد ضابطاً عادياً في الجيش،بقصر أو بآخر من قصور فاروق الفخمة .

إن هدفه يتصل اتصالاً وثيقاً بإيمانه بالعروبة والوحدة العربية الشاملة. ولقد حقق عبد الناصر في هذا المجال نجاحاً باهراً ، وتمكن من إعادة مصر الى حظيرة القومية العربية بعد ان ظلت تتخبط ردحاً من الدهر ذات اليمين وذات اليسار، تحت تأثير اسرة حاكمة لا تمت للمصريين بصلة . وكان طبيعياً ان تؤدي هـذه الحقيقة الى تولية مصر وزعيمها عبد الناصر مركز الزعامة لقيادة وتوجيه كفاح العرب الأحرار من اجل الوحدة الكاملة .

اما تشويه الحقيقة واتهام جمال عبدالناصر بأنه يهدف الى تكوين امبراطورية عربية ارضاء لأطماعه الشخصية فهذا ما لا يقبـله العقل او المنطق ، وما تكذبه قوى التاريخ وأحداثه : **لقد اصبح عبد الناصر في الواقع أسيراً للقومية العربية بقدر ما هو زعيمها وباعث نهضتها .**

ان اولئـك الذين يزعمون ان ناصر له اطماع شخصية ، وانـــه يريد بناء

امبراطورية في الشرق لمجرد إشباع هواية في نفسه يخطئون خطأ كبيراً . والسبب ان ناصر ليس شخصية منعزلة او حاكماً فردياً مستبداً، كما كان هتلر او موسوليني أو اتاتورك : إنه في الواقع قوة من قوى التاريخ. وليعلم كل من حاول محاربته أنه يحارب التاريخ نفسه .

ان القوى والمبادىء التي يمثلها هذا الزعيم لا يمكن ان تزول . فهناك الآن في الوطن العربي ٨٥ مليون ناصر يشتركون جميعاً في توجيه معركة الكفاح من اجل تحقيق املهم المنشود في الوحدة العربية الشاملة . لذلك فإنه ما من قوة تحاول الوقوف في سبيل تيار العروبة الجارف الا وستتحطم ، وتلقى مصرعها على صخرة القومية العربية الناهضة .

- ٢ -

● ديزموند ستيورت [١]

كان الهدف من حملة السويس واضحاً لكل إنسان : تحطيم جمال عبد الناصر كشخص وكرمز للمبادىء التحريرية التي بات يعتنقها العرب في كل مكان . لقد قتل أناس كثيرون وجرح آخرون ، ودمرت مساجد وكنائس ومنازل كثيرة . ولكن صوت الحق لم يخفت . ولم ينهزم المصريون . ولم يضعف جمال عبد الناصر بل على العكس من ذلك تماماً . خرجت مصر كما خرج عبد الناصر من هذه المعركة اشد قوة واصلب عوداً .

وقد تذكرت في هذا قول نيتشه « ان ما لا يقتلنا يجعلنا اكثر قوة . » لقد صدق هذا القول بالنسبة لمصر وعبد الناصر على السواء .

ما من أحد اليوم ، مهما بلغت درجة عدوانه ، يستطيع أن ينكر التأييد الشامل الذي يتمتع به عبد الناصر في قلوب العرب جميعاً . إنهم يتبعونه ويسيرون وراءه صفاً واحداً متماسكاً لتحقيق الآمال العريضة والأعمال الضخمة التي ربما ناء بحملها هرقل .

---

١ - كاتب بريطاني .

ربما يقول بعض الناس إن عبد الناصر عدو للغرب. بيد ان هذا القول يحمل خطأ كبيراً ؛ فالحقيقة هي أن عبد الناصر لا يعادي أحـداً . طبيعي أنه ليس صديق الغرب ، ولا يمكن ان يكون صديقاً لهم بالمعنى الذي يريدونه: أداة طيعة في ايديهم او مطية سهلة لتنفيذ اغراضهم الاستعمارية . إن الصداقـة التي يريدها جمال عبد الناصر – شأنه في ذلك شأن كل رجل حر – لا بـــد وان تقوم على اساس معاملة الند للند . وهذا هو ما لم يفهمه ساسة بريطانيا حتى الآن .

– ٣ –

● دوروثي طومسون .

في الساعة السادسة بالضبط ظهر ناصر . كان يرتدي قميصـــاً أبيض مفتوح الرقبة . وجرسيه من الصوف الرمادي بلا أكمام وبنطلوناً رمادياً داكنا . وبـدا اشبه بالرجل الرياضي منه بالديكتاتور أو برجل السياسة .

وكانت هناك إشاعة في القاهرة ضمن آلاف الإشاعات تقول : إن الازمـة انهكته ، ولكنه كان في احسن حال .

لقد قابلت اكثر من حـــاكم آخر . موسوليني بعبوسه المخيف وجو العظمة الرومانية الذي يحيط به . وهتلر الذي كان من المستحيل التحدث إليـــه على الاطلاق . فقد كان دائم القلق . ويتحدث في شبه غيبوبة ، كما لو كان يخـاطب خمسة آلاف شخص في قاعة ...

وفي خلال الثلاث ساعات التي قضيتها معه أحسست إحساساً قوياً مما قاله ، ومن الطريقة التي كان يتحدث بها ، أنه رجل تغلب عليه العاطفة والأحساس أكثر من كونه رجلا هادئاً ذا إرادة حديدية . لقد شعرت أنه رجل « يحب اكثر مما يكره » ... إنه عربي بكل ما في الكلمة من المعنى . وهذا يجعله يختلف عن غالبية المصريين ، وشأنه شأن الكثير من العرب الذين عرفتهم : ميـال بالفطرة الى الكرم والمجاملة . وهو شديد المراس ، وإن كان في نفس الوقت بريئاً . وفي معرض حديثي معه وصف الشعب عدة مرات بالطيبة والبراءة وكان ما قـاله :

إن الشعب طيب وبريء . ولكن الذين ارتفعوا اكثر من مرة الى أعلى المناصب ، لم يكونوا طيبين . وإنه من السهل ان يجد المرء مائة رجل خبيث ويندر أن يجد رجلاً فاضلاً واحداً .

ولقد سألت نفسي :هل يمكن لرجل من هذا النوع أن يميل الى الانتقام ؟...

ولما أبدى بعض النقد حول التاريخ وجهت اليه سؤالاً شخصياً هاماً : أي شخصية في التاريخ نالت إعجابك ؟

وكان رد الفعل المباشر هو أن القى برأسه الى الوراء ضاحكاً . وقال : هل تؤمنين بسير الناس ? إن الرجال لا يكررون انفسهم في التاريخ. ثم قال بلهجة حـــادة :

إن المرء ليجد من خلال حياة العظماء قدوات طيبة للسير بمقتضاهـا . فانا رجل مسلم ولقد درست بإمعان سيرة الرسول – عليه الصلاة والسلام – لقـد كان محمد نبياً وسياسياً . وهو كرجل سياسي كان هناك أمر واحد يتميز بوضوح في اقواله واعماله . انه لم يكن قاسياً مع أعدائه . وكان كلما انتصر عليهم اطلق سراحهم وانا اكره القسوة والانتقام . فالانتقام يولد الانتقام، وليس له من نهاية .

ولو كنت قـــد اتبعت ما اشار عليّ به بعض مستشاري لكنت القيت بعشرات الآلاف في السجون .

ولما سألته عن الحرب قال : « انا لا اؤمن بالحرب . لان الحرب لا توصل الا نادراً ، بل قد لا توصل أبدا إلى النصر الحقيقي . وخاصة في الاوقات الحاضرة. إن الشروع في شن حرب شيء وإنهاء هذه الحرب، شيء آخر .

لقد قرأت التاريخ من ايام هانيبال حتى الآن ، وكنت اقوم بتدريس تاريخ الحرب في الكلية الحربيـــة . ولقد فهمت أنه ما من مخلوق يستطيع ان يتنبأ بكيفية انتهاء أي حرب » ! ..

ملامح شخصية

« اللهم أعطنا المعرفة الحقة كي لا يستخفنا النصر وتدور رؤوسنا غرورا من نشوته .

اللهم أعطنا الامل الذي يجعلنا نحلم بما سوف نحققه في الغد ، اكثر مما يجعلنا نفاخر بما حققناه في الامس واليوم .

اللهم أعطنا الشجاعة لنستطيع ان نتحمل المسؤوليات التي لا بد ان نتحملها ، فلا نستهين بها ولا نهرب منها .

اللهم أعطنا القدرة على ان نواجه انفسنا ونقبل ان يواجهنا الاخرون بالحق والعدل .

اللهم أعطنا القوة لندرك ان الخائفين لا يصنعون الحرية والضعفاء لا يخلقون الكرامة . والمترددين لن تقوى ايديهم المرتعشة على البناء . »

« جمال »

خطوط عامة لشخصية ناصر

...عرفت فيه التحكم في أعصابه .الضابط لها . الذي لا تظهر عليه انفعالات حتى في احرج الأوقات . وان المتحدث معه مهما يكن حظه من الذكاء والفطنة لا يستطيع ان يعرف من ثنايا حديثه معه ما اذا كان موافقاً على كلامه أم غير موافق . ولا ان ينفذ الى رأي يكون قد رآه . ان رأيه لا يبديه لمحدثه . فإذا ما انتهى الحديث وخرج محدثه من عنده خالجه شعور بالارتياح الى الاثر الذي تركه

في نفسه . اما الحقيقة فعسير عليه ان يعلمها [1] .

... والشيء الذي يلفت النظر اليه أنه متفتح الذهن شديد الملاحظة . يفهم بسرعة اتجاه محدثه . ويتمتع بذكاء حاد وفطنة تمكنه من ادراك المعاني العميقة التي تستتر وراء احاديث الناس والتي قد تبدو للبعض عابرة .

وهناك ما هو اهم من هـذا وذاك . فهو يتمتع بابرز صفات القادة ، فينشىء الألفة والود والصداقة بين جميع معاونيه ، ويحس بالخطر الذي يتهدده وهو في طريقه اليه ؛ وأمام هـــذا الإحساس تستيقظ عنده القدرة على سرعة اتخـاذ التدابير السريعة اللازمة التي تحول دون وقوع الخطر [2] .

... واروع مثل له أنه يملك زمـــام الموقف دائماً، ويسيطر على اعصابه في اقسى الظروف ، ويستطيع ان يجعل من القوة التي لا تكاد تقوى على الدفـاع قوة تقوم بالهجـــوم وتصنع المعجزات . انه ينبوع يفيض بالأمــــل والحماسة والإيمان بالله [3] .

... وهو فوق هذا طاقة إنسانية عظيمـة . وقوة قومية أعظم . لا تحطمه مرارة الهزيمة ولا تدفعه الى يأس . بل انه لا يعترف بالهزيمة ، فتراه أبداً مستعداً ليخوض المعركة من اولهـــا الى خاتمتها . وهو دقيـــق في رسم خطوط المعركة ومداخلها ومخارجها ، رسماً يكاد يخيل لمن يراه بعد تنفيذه انه كان ينظر في مرايا المستقبل . وهو في كل هذا هادىء ثابت متزن ، لا تهزه نشوة النصر ولا يستخفه غرور الفوز [4] .

ملامح شخصيته

إننا حين نتحدث عن رجل حي ، لا يزال في قلب المعركة الضخمة التي قدر له ان يقودها ، والتي لم يسبق لرجل في العالم العربي أن قادها ، انما يجب ان

١ – حسين الشافعي .
٢ – خالد محيي الدين .
٣ – زكريا محيي الدين .
٤ – كمال الدين حسين

نذكر ان الصورة التي نريد ان نرسمها له باعتباره رائداً للعرب ، ستتغير كثيراً منذ كتابة هذه الكلمات حتى تصل الى القارىء كتاباً مقروءاً . ذلك ان كل يوم يمر من شأنه ان يضيف الى هذا العمل الكبير قوة وحيـــاة ، وان يضاعف من مسئولية الكاتب ويجعل الصورة اشد وضوحاً . ولكن العبرة في عرض هـــذه الجوانب ليست في التفصيلات بقدر ما هي في جوهر هذه النفس الانسانية التي اختارها القدر في هذا الوقت بالذات ، لتؤدي هذا الدور الخطير في تاريخ العرب والانسانية على السواء . فقد دل استقراء التاريخ انه ما من شخصية لعبت دوراً ضخماً ، او قادت معركة فاصلة ، الا كان لها من طبيعة تكوينها القوة القادرة على اداء هذا الدور ، وفق إعداد غير مرئي . وان عزمات القادة والمصلحين انمـــا تكون دائماً بقدر المسؤوليات الضخمة التي يضعها الزمن على كواهلهم .

ولقد كان جمال عبد الناصر الى بضعة اعوام بعيداً عن مسرح الاحـداث ، ولم يكن يقدر — الا عدد قليل من اخوانه — انه يعد نفسه لحمل أمانة خطـيرة كهذه الامانة . ولكنه كان في استعداده مؤهلاً لأن يكون قائداً ، وفي طبيعة تكوينه كان مهيئـــاً لأن يقف موقف الصدارة ، وان يحقق النصر تلو النصر والظفر بعد الظفر ، فلا يبهر الشعب في الوطن العربي الكبير فحسب ، ولا في العالم اجمع ، بل انه يبهر القادة والملوك ودهاقين السياسة وأقرام الحكم والسلطان ، ويهزهم من الاعماق بل ويقض مضاجعهم . فقد كانت لا تلبث أن تتهاوى أمـام ضرباته تلك الحصون التي وقفت امام ناظرنا طويلاً ، شامخة ضخمة رهيبة .حتى لقد كان يخيل الينا أن الزمن نفسه — القوي القادر — لن يقوى على تحطيمها.

وتلك سنة الطبيعة وناموسها الذي يخفي حكمته وراء العوالم . وذلك هـو السر العميق الذي تكنه الانسانية في اعماقها لتحيا به ، ولتمد في عمرهــا ، ولتزداد به قوة ، انه سر الصراع بين الموت والحياة ، بين القديم والجديد ، بين الأباطيل التي يعيش في ظلها الناس ثم يجيء يوم سقوطها ، وبين الامبراطوريات التي تقوم على العسف والظلم ثم يجيء يوم انهيارها .

انها القوة غير المنظورة التي تدفع بين آن وآخر الى الحياة رجلاً عملاقـاً ،

يغير الصورة التي طال عليها الزمن ، ويعيد تخطيط الارض التي انهال عليهـــا الرماد ، ويدفع القلوب والنفوس مرة اخرى الى الايمان بالحقائق العليا في الحرية والحب والاخاء . ويعيد الى الناس الثقة في القيم الإنسانية بعد أن يكون الطغاة قد اوشكوا ان يحطموها ، واصاروا الشعوب الى اليأس القاتم والظلام الكثيف.

ولكن جمال عبد الناصر بعد هـــذا كله بشر . وانسان ، يعمل ولا يزال يعمل ، وان هذه الفترة التي نحاول ان نصورها في حياته ، قليلة ، إنها لاتتجاوز الأعوام السبعة . وما تكون الاعوام السبعة الا شيئاً يسيراً من اعمار الشعوب والامم ، وفي اعمار القادة والرواد ، الذين يحملون رسالة ضخمة وامانة كبرى كتلك التي يحملها ناصر ؛ ولكن قد تمر الاعوام الطوال دون ان تحمل في طياتها الا في النادر القليل ، مثل هذه الاعوام الخصيبة العميقة الغور التي تهز احداثها العالم كله ، وتحفر اثرها البعيد في نفس الشعب العربي الذي طال به الترقب لمنقذ العرب ، هذا الشعب الذي عاش الأمل في اعماق نفسه بين اليأس والرجـاء ، فما أن بدأ يحس به وقد تحول حقيقة واقعة حتى وقف مبهور الأنفاس يتحسس جبهته ليثق بأنه لا يحلم ، وليستطيع ملاحقة هذا الإعصار الجبار .

ان جمال عبد الناصر يؤمن بأن الركب قد توقف طويلاً ، وأن علينا أن ندفعه بقوّة لنعوّض ما فات .

وان علينا « أن نبني ، ونبني ونبني ؛ نبني لنعوض الماضي . ونبني لنواجـه الحاضر . ونبني لا لنلحق بالمستقبل فحسب . وانما لكي نسبق هذا المستقبل .

ولا وقت لدينا نضيعه ، ولا فرصة أمامنا نبعثرها .

إن هناك سباقاً بيننا وبين الزمن . ويتعين علينا أن نسبق الزمن . »

ولكنه في الوقت نفسه لا ينسى أبداً أنه يجب « ان نقيم من الحكمة خزانات على أمانينا ثم نفتح عيوننا ليمر التيار . ليمر التيار على شكل الفيضان المنظم . ولا يقفز فوق رؤوسنا كالطوفان العالي الشديد . »

وهذه هي قوة جمال عبد الناصر الحقيقية : القدرة على الجمع والازدواج بين العمل الذي يتعين علينا به أن نسبق الزمن ، والخزانات التي لها عيون يمر منها

التيار على شكل الفيضان المنظم .

وقد سئل عبد الناصر عن أي تطور حدث في تفكيره بعد سنوات حكمه[1] فقال : « كنت متصفاً بالسرعة في التنفيذ ، والحزم في العمل ، فأصبحت متصفاً بالصبر . لقد تعلمت الصبر . ولم أعد أبت في الامور تحت تأثير أحداث طارئة . بل ارجىء البت الى اليوم التالي حتى أجرد القرار من أي فورة حماس او نزعة عاطفة . ويكون القرار في مثل هذه الحالات أوقع وأسلم . »

●

وقد تحدث جمال عبد الناصر عن حياته فقال :

منذ عام ١٩٣٤ بدأت أقرأ الكثير عن مصطفى كامل . قرأت تاريخ حياته ومقالاته الحماسية التي كانت تنشر في الصحف . وطبيعي أنني كنت أهتم اهتماماً خاصاً بقراءة كل ما يتصل بتاريخ مصر منذ القرن التاسع عشر .

وقال : كنت أجد متعة عند قراءة ما كتب عن الثورة الفرنسية .

ولما سئل عمن حاز أعجابه : دانتون أم روبسبير ؟... قال : في الواقع . لا هذا ولا ذاك . لقد أعجبني فولتير ، لأنه كان هادئاً ولم يلجأ الى استخدام القسوة والعنف كبقية الزعماء الذين اعتادوا القتل وسفك الدماء ! لقد كانوا يدبرون المؤامرات ويقتلون بعضهم بعضاً .

ثم قال : لقد قرأت قصة شارلز ديكنز المشهورة « قصة مدينتين » لقدقرأتها عدة مرات . ورأيت كيف صور الكاتب بشاعة القسوة . وأعمال العنف . والإرهاب التي سادت فرنسا في ذلك الوقت . لقد علمتني هذه القصة شيئاً ، إننا اذا شرعنا في القتل وإراقة الدماء فإنه سيكون من الصعب حقن هذه الدماء.

وقال : عندما كنت طالباً بالمدرسة الابتدائية ساءني أن اقرأ في كتاب التاريخ أن نابليون قد غزا مصر . وانه قد وضع مدافعه فوق تلال المقطم ، وأمطر القاهرة بوابل من القنابل . لقد كان نابليون يعتقد في سياسة القوة والعنف التي أكرهها ولا أعترف بها . وكذلك أيضاً الثورات ، يجب أن تقوم

١ – مايو – أيار ١٩٥٨ – جريدة السياسة اللبنانية « محمد أمين دوغان » .

على أساس من المباديء والمثل العليا ، وليس من القوة والعنف وإراقة الدماء ».

ولقد اكد جمال عبد الناصر هذا المعنى في اكثر من حديث ومناسبة . وفي كتابه : فلسفة الثورة ، حيث يقول ، وهو يصور أول خطواته في ميدان العمل الثوري :

« الحق أنني لم أكن في اعماقي مستريحاً إلى تصور العنف على أنه العمل الإيجابي الذي يتعين علينا أن ننقذ به مستقبل وطننا .

.. لقد كان من السهل أن نريق دمـــاء عشرة او عشرين او ثلاثين . فنضع الرعب والخوف في كثير من النفوس المترددة . ونرغمها على أن تبتلع شهواتهـا وأحقادها وأهواءها ، ولكن أي نتيجة كان يمكن أن يؤدي إليها مثل هـــذا العمل ؟.. لقد كنت أرى ان الوسيلة لمواجهة مشكلة من المشاكل هو ردهـا الى أصلها ، ومحاولة ان نتتبع الينبوع الذي بدأت منه .

وكان من الظلم ان نفرض حكم الدم علينـــا دون ان ننظر الى الظروف التاريخية التي مر بها شعبنا ، والتي تركت في نفوسنا جميعاً تلك الآثار ، وصنعت منا ما نحن عليه الآن » .

ولما سئل عن الشخصية التي احبها وتأثر بها ؟

قال : أذكر انني قد اعجبت في طفولتي بعدد كبير من الأبطال . لقـــد أعجبني غاندي كثيراً . وعندما كنت اتلقى دروس الديانة في المدرسة استحوذ سيدنا محمد على كل اعجابي وتقديري ، فقد كان قائداً او زعيماً كرّس حياتــه لخدمة رعيته وتحريرهم من ظلمة الجاهلية وضلالها .

واني لأشكر الله لاني قد تعلمت من سيدنا محمد عادة طيبة « الصبر » . لقـد ثابر محمد ثلاثة وعشرين عاماً ، لا يعرف احد عنه شيئاً ، ولا يثق به احد ، ولا يتبعه احد ، اللهم الا زوجه خديجة . بيد انه كان يثق في نفسه وفي رسالته .

وعاد مرة اخرى في بعض احاديثه الى قدرة « النبي محمد » فقال : إنه كرجل سياسي يتميز بوضوح في اقواله واعماله ، وانه لم يكن قاسياً مع اعدائه ، وكان كلما انتصر عليهم أطلق سراحهم وانا اكره القسوة والانتقام .

وقال عن شبابه : « في فترة من حياتي كانت الحماسة هي العمل الايجـابي في تقديري ، ثم تحول مثلي الأعلى الى العمل الإيجابي . واصبحت ارى انه لا يكفي أن تضج اعصابي وحدي بالحماسة ، وانما كان عليَّ ان انقل حماستي ، كي تضج بها اعصاب الآخرين » .

●

وتبدو اهدافه ومعالمه النفسية في عدد من عباراته التوجيهية . انه يكره السلبية :

« السلبية شديدة الخطر على مستقبلنا ، فان البلد لا يتكون من اشخـاص بذاتهم ولا من وقت معين . »

● انه يؤمن بالقيم الروحية :

« انـكم تنظرون نظرة مادية ، ونحن لا نرى الامور ، كشرقيين ، بهـــذه النظرة المادية . قد تكون عندنا النظرة المعنوية تساوي اكبر مبلغ يمكن لأحد ان يتصوره » .

● انه يؤمن بالحركة :

« لم نكن نؤمن بالجمود ، ولكننا كنا نؤمن بالحركة ، وكنا نعتقـد ان الحركة امر ضروري لتحقيق الاهداف . قد تكون الحركة مريرة . قد تكون الحركة صعبة ، ولكن لا بد منها حتى نحقق الهدف » .

● وعرف قيمة الشيء ، لا باسمه ، ولكن بحقيقته :

« انا لا اعرف ان هناك سلاحاً شيوعياً وآخر غير شيوعي . انا اعرف ان السلاح الذي يأتي الى مصر يصبح سلاحاً مصرياً » .

● ويؤمن بالمستقبل .

« اننا نخلق جيلاً جديداً لا يعتمد على الاشخاص ، ولكنه يعتمد على المبادىء والمثل العليا ، فالاشخاص يفنون ، والمثل العليا باقية .

انني اؤمن ايماناً قاطعاً بأنه سيخرج من صفوف هذا الشعب أبطال مجهولون يشعرون بالحرية ويقدسون العزة ويؤمنون بالكرامة » .

● ويؤمن بان اهم ما حققته الثورة هو الامل والايجابية :

« اذا كان لا بد لنا من القاء نظرة عابرة على حساب الارباح والخسائر خلال السنوات الخمس ، فان اعتقادنا الاكيد هو ان اكبر ارباحنا هو الامل .

« ان اعظم ما حققته الثورة في رأينا ، هي انها اعادت النبض الى آمال شعبنا . فإنه مـا من شعب تراكمت عليه آثار الماضي وتبعاتـه ، بل وعقده النفسية ، مثل شعبنا . ما من شعب تـآمر عليه المحتلون الغرباء ومشوا بالجبروت والطغيان عليه مثل شعبنا . لقـد كان الاعتقاد السائد قبل الثورة هو ان « لا فائدة » ... يبقى المحتل ولا فائدة . ويستبد الملك ولا فائدة ... ويحتكر خيرات البلد ولا فائدة ... وتنهب ثرواته وتبعثر اماله ولا فائدة ... حتى لقد وصل الأمر الى حد ان احترقت عاصمة مصر واندلع اللهب في قلبها .. ولا فائدة ..

كانت هذه العبارات الصغيرة تقرع أسماعنا صباح مساء . فإذا كانت للثورة قيمة حقيقية – وان لها لقيمـة حقيقية – فهي ان هذه العبارة قـد محيت من قاموس شعب مصر . ان باب الأمل مفتوح على مصراعيـه أمامنا ، وإن الأمل لدعوة صريحة الى العمل . »

● ومن قوة شخصيته قدرته على الحديث عن الخسائر .

« بقي جانب الخسائر ، وعلينا أن نواجهه بشجاعة وشرف . ينبغي ان نقول أمامكم إن سجل السنوات الخمس لم يخل من اخطاء . والذي لا يخطىء لا يعمل . لم يخل الامر من مشروع كان يمكن أن يدرس على نطاق واسع ، أوسع مما درس ، ولكن العذر أننا كنا نريد ان نعمل ، وكنا في عجلة متلهفة على العمل . »

وليس اكثر انصافاً للنفس أن يصدر مثل هذا الكلام من قائد حقق اعمالاً ضخمة لم يكن من المنتظر ان تحقق في اقل من عشرات السنين . وقطع طريقاً طويلاً لعله عوض كثيراً من تخلف الأعوام الطوال ..

● ومن ابرز ملامح شخصيته الصراحة والقدرة على الربط بين الماضي والحاضر :

« كنت انظر الى مستر بلاك وأتصور أن الذي يجلس امامي هو « فرديناند دلسبس » ؛ وعادت بي الذاكرة الى الكلام الذي كنا نقرأه عن ١٨٥٤ عندما

وصل دلسبس إلى مصر وذهب الى الخديوي عباس وقــال له : نريد حفر قناة السويس .

وكان بلاك كلما تكلم عن «السد العالي» كنت أحس بالعقد في كلامه ، ويعود بي التفكير الى دلسبس ، وقلت له : «اننا لا نريد ان نعيد كرومر آخر الى مصر» .

وقد عرف عنه الايمان الراسخ إبان العدوان ـ فيما يروي السيدانور السادات ـ . ففي الوقت الذي كانت تقذف فيه مدن مصر بالقنابل كان يردد قوله «الله اكبر من كل سلاح ، وأقوى من كل من يصور له الغرور أنه أقوى الاقوياء » .

● ولعل مما يروى هنا أن من صفات جمال عبد النـــاصر انه يسمع اكثر مما يتحدث . ومن عزمته ما رواه الاستاذ الباقوري حــين سافر الى باندونغ قال : «أفطرت وصام الرئيس» . وبلغت به سلامة أعصابه انه عندمــا سمع بالغزو في إحدى الليالي قادماً من الاسكندرية ذهب الى نومه في موعده بعــــد ان اعطى تعلياته . وعندما حاصرته القيود التي فرضهـــا الاستعمار لعزل مصر ، حطمها وسافر الى باندونغ ، ولما قيل له ان هناك خطراً عليك !.. لم يأبه بالقول وأعلن ثقته في الله .

●

وقد وصفه عدد من الكتاب والمرافقين الذين التقوا به ؛ قال روبرت دوتي: إن اهم صفاته التي تعد خروجاً على المألوف هو واقعيته العنيدة في نظرتــه الى المسائل السياسية والاجتماعية . وقد خلت خطبه وبياناته من الطنطنة التي كانت من مميزات الخطب السياسية في الشرق الاوسط .

● قال جاكوب ، عضو مجلس العموم ، « لقد استطاع ناصر أن يدق رأس ايدن ثلاث مرات: الأولى عندما وقع اتفاق الانجليز وخلص بلاده من الاستعمار. والثانية عند ما طرد جلوب من الأردن ؛ وخلص منه الشرق العربي . والثالثة عندما اعلن تأميم قناة السويس وصمد في وجه اكبر دول العالم الغربي . »

● وقال وليم كارك : إنه صورة فذة من صور الإيمان بالوطن والطموح والرغبة في الاصلاح . واكاد أجزم بان بينه وبــين اوليفر كرومويل ، زعيم الثورة

البريطانية التي خلفت الملك شارل الاول ، شبهاً .

● وقال روجيه كابيرا : رأيت في ناصر رجلاً ذكياً يحدثك من القلب حديثاً طبيعياً غير مصنوع . حديثاً عادياً كالذي يتبادله مسافران في القطار ، لا زيف فيه ولا افتعال . بل الصدق وحده .

قال جمال : ان الأمس لم يعد له وجود في حساب الزمن ، واليوم والغد هما وحدهما الهدف ؛ من أجل هذا يجب ان ننسى الماضي .

وقال : انا لن ابدأ بلداً بالهجوم . أما الدفاع فإنني أبذل فيه كل قطرة من دمي ..

● وقال وليم افوود : بينما كان يتحدث ، بدأت افهم السبب الذي جعل هذا الرجل الصغير السن نسبياً ، يقطع هذا الشوط البعيد في مثل هذه الفترة الوجيزة . فإنه يملك مزيتين سياسيتين لا تقدران بثمن . حيوية هائلة ، وجاذبية عظيمة . ومن الصعب ألا تعجب به حتى عندما تختلف معه في الرأي . ولقد ساعدته هاتان الميزتان في صعوده الى القمة .

وقال عبد الناصر لي : انهم يسمونني دكتاتوراً في امريكا لأني أرفض ان اتلقى الأوامر منهم . وهناك كثير من الطغاة يطيعون وزارة الخارجية الامريكية ، وليس هناك من يهاجمهم .

وقال : علينا ان نظهر لكم انكم لا تستطيعون اهانة دولة صغيرة دون ان يلحق بكم شيء . ولو أننا قبلنا هذه الصفعة (سحب تمويل السد العالي) لأعدتم الكرة وتتابعت الصفعات ..

حلال العقد

بعد ان تعثرت المفاوضات الخاصة بتعويض حملة الأسهم عشرات المرات ، وجرت محاولات متعددة للاتفاق ، جاء يوجين بلاك رئيس مجلس ادارة البنك الدولي ، الى مصر والتقى بعبد الناصر .

قال جمال ليوجين بلاك :

دعنا ننح كل هذه الاوراق والملفات جانباً ، وأريد أن اسالك كرجل أثق في حكمك : ما هو المبلغ الذي ترى من العدل ان ندفعه ؟...

إن الرأي العام في الجمهورية العربية المتحدة يصر على ان لا ندفع شيئاً ، ووفد المفاوضات قد وصل الى رقم ١٨ مليون جنيه، ورفض بعدها ان يتزحزح ويدفع مليماً واحد فوقها ، فما رأيك انت ؟

قال بلاك : سيدي . بضميري أعتقد أن مبلغ ٢٨ ميون جنيه يمكن أن يكون مبلغاً معقولاً .

قال جمال : ويخصم منه مبلغ خمسة ملايين جنيه حصلتها الشركة رسوماً من البواخر الانكليزية والفرنسية من بعد التأميم حتى يوم العدوان ...

قال بلاك : هذا حق ..

قال جمال : قل قبلت الحل الذي اقترحته . ولكن ليكن معلوماً للشركة أنك انت الذي اقترحت هذا الحل ، وأنني وافقت عليه حتى لا يكون هناك مجال لمساومة اخرى . فإنني بعدها سأرفض ان ندفع مليا واحداً حتى لو بقيت المشكلة معلقة مائة عام ..

معركة السلبية

هل خلق جمال عبد الناصر في أعماق هذا الشعب قوة جديدة ظهرت بوضوح في معركة بور سعيد عندما حارب الشعب كله الى جوار الجيش : شباباً وشيباً ، وأطفالاً وشيوخاً ، رجالاً ونساءً ، على هذا النحو الباهر الذي هز المراقبين وهز الاستعمار ؟...

الحق ان جمال استطاع ان يوقظ هذه الروح التي كانت منطوية خامدة في الأعماق ؛ كان هذا الشعب العربي كله مؤمناً ، ولديه خاماته الروحية وطاقاته النفسية، ولكن لم يكن من اليسر أن تصقل وتوجه وتفعل فعلها، وتهز الاستعمار، الا بروح قوية عملاقة تدفعها وتوجهها . وقد كانت مؤامرة العدوان التي أطلق عليها « حرب السويس » امتحاناً كشف الحقائق كلها في العالم العربي .

ظهر الشعب العربي على حقيقته في إيمانه بالقومية العربية ، وفي إيمانه بجمال عبد الناصر ، وظهر بعض الحكام العرب على حقيقتهم في الخداع والتآمر والدس والكيد لحساب الاستعمار .

عندما استعملت مطارات العراق في تموين الطيارات المنقضة على بور سعيد ، وعندما اعترض الملك إدريس السنوسي على استخدام بلاده مركزاً للانقضاض على مصر .

وبرز الشعب العربي في ثوراته واعماله الإيجابيـــة ، فحطم أنابيب البترول واشعل النار في معامـــل تكريره ، وحمل الشعب في مصر السلاح ووزع على الشعب لاول مرة نصف مليون قطعة سلاح ليدافع بها عن حرية وطنه . وقاتل الجميع بشرف وإيمان .

كان هذا كله تحولاً جديداً في النفسية العربية ، هو من أثر صيحـــة الرجل الذي نادى بالقومية العربية .

لقد سجلت هذه المعركة بطولات حية قوية في كل ميدان . علمت الشعب الإيجابية واختفت السلبية اختفاءً نهائياً .

« ...كانت النتيجة أن الذي لم يكن يثق في نفسه أصبح يثق فيها،والذي لم يكن يثق في أخيه اصبح يثق فيـــه . والذين كانوا يقولون « ما فيش فايده » عرفوا أنه « فيه فايده »،واننا نستطيع ان ندافع عن بلدنا ونقاتل قتالاً مريراً . وأننا إذا كنا هزمنا من قبل فاننا لم نهزم لأننا قصرنا في القتال ، او لأننا جبنا او لأننا هربنا ، ولكن كان السبب الأول ، وكان السبب الأوحـد في الهزيمة هو الخيانة » .

هذه هي معركة السلبية التي قادها جمال في أعمق أعماق نفسياتنا .

«إن أعظم ما حققته الثورة في رأينا ، هي أنها أعادت النبض الى آمـــال شعبنا . فانه ما من شعب تراكمت عليه آثار الماضي وتبعاته ، بل وعقده النفسية مثل شعبنا .

وما من شعب تآمر عليه المحتلون الغرباء ، ومشوا بالجبروت والطغيان عليه

مثل شعبنا ؛ لقد كان الاعتقاد السائد قبل الثورة هو ان «لا فائدة» فبقي المحتل «ولا فائدة» . ويستبد الملك «ولا فائدة» ، وتحتكر خيرات البلد «ولا فائدة» وتنهب ثرواته وتبعثر امواله « ولا فائدة» ، حتى لقد وصل الأمر إلى حد أن احترقت عاصمة مصر ، واندلع اللهب في قلبها «ولا فائدة» .

كانت هذه العبارة الصغيرة تقرع اسماعنا صباح مساء. فاذا كان للثورة قيمة حقيقية – وان لها لقيمة حقيقية –فهي ان هذه العبارة قد محيت من قاموسنا » .

جبال القائد

ما هي شخصية هذا القائد وما هي سرائره النفسية ؟.

ما هي العوامل الفعالة التي كونته وأمدته بهذه العاطفة المؤمنة وهذه الطبيعة القوية الفعالة ؟

لقد كان العرب يحلمون برجل عظيم . وكانت مصر تحلم بهذا الرجل . كانت المنطقة كلها تريد ان تتحرر من الاستبداد والانحراف والإقطاع . تلك أزمة قديمة عاشت في ضمير مصر عمراً .

ولقد كانت الأمة العربية المفككة المتمزقة تتساءل في اطواء ضميرها : من يكون هذا الرجل ؟ أهو من ذلك الصنف الذي شهدته عام ١٩٢٠ ، من الذين تربوا في أحضان كرومر وغورو وولكوكس ولورنس وفيلبي ؟..

لقد كره العرب هذا الصنف ، ونفروا من هؤلاء الذين عاشوا ينحنون للاستعمار ، ويقفون تحت العلم البريطاني ويستعرضون جيوش الأجانب .

لقد كانت مصر في حاجة الى حاكم من صميم الشعب ، وابناء الطبقة المتوسطة. نشأ في كنف الاسرة المصرية ، ورأى الفقر والجوع ، وأحس متاعب الدنيا وذاق مرارتها . وشاهد بنفسه ولمس بيده وصكت سمعه صيحات المظلومين وأنات المرضى .

كانت مصر وكان العرب ، في حاجة الى رجل من هذا الطراز !..

لقد عاش اولئك الحكام في ابراج عاجية وغرف دافئة . لا تصل اليهم

صيحات ولا انات . ولا يحسون بإحساسنا ولا يشعرون بآلامنا . ولدوا في مهد الترف ، وتلقفهم الاستعمار منذ اليوم الأول فأقام بينهم وبين روح الشعب واحاسيسه حجاباً صفيقاً .

كانت مصر في حاجة الى رجل قوي العارضة ، ينزل الى الميدان فيزلزل الدنيا ويحطم الاصنام ، ويرفع الرمال السافية عن المجرى ويعبد الطريق الذي ظل مسدوداً ، ويدك الصخور وينسف الجنادل .

وهذا هو ما تحقق على أروع صورة في شخصية « جمال عبد الناصر » .

لقد نشأ جمال في البيئة التي عاش فيها كل أبناء الطبقة المتوسطة والفقيرة . وهو ابن عائلة كادحة في سبيل العيش . وقد اشترك في جميع حركات الإصلاح . وعاش قريباً من تاريخ مصر الفعلي منذ اكثر من خمس عشرة سنة .

لقد حاول أن يشارك في القضاء على الفساد بكل أسلوب . فلما أحس بأن الفساد أكبر من ان يعالج . صمم على سحقه واجتثاث جذوره من تربة مصر .

ولما اتصل بالساسة والأحزاب ايقن ان اسلوبهم لا ينفع وطريقهم لا يؤدي . وتأكد له أن القوة وحدها هي التي تحرر البلاد . وان وطناً لم يستطع ان يتحرر الا بالقوة . فكان طبيعياً ان يجد طريقه إلى الجيش . وفي الجيش وجد بيئة أشد سوءاً من بيئة رجال الأحزاب وحكام مصر . بيئة اللواءات الطغاة الذين يسيطرون على الضباط ويذلونهم ، ويحطمون من نفوسهم كل روح معنوية وكل كرامة .

ولكن جمال كان صنفاً جديداً من الضباط . كان من اولئك المرفوعي الهامات والرؤوس الذين لا يذلون ولا ينحنون ولا يخضعون .

كان ايمانه بربه يملأ نفسه فيحول بينه وبين الخضوع لغيره . واغضب هذا السادة الكبار . ومن هنا بدأ بينه وبينهم صراع طويل . استمسك فيه جمال بالحق وثبت للعاصفة .

وفي فلسطين تعلم الدرس الأكبر . جاهد وقاتل . وجرح واصابته رصاصات العدو ونام بين الخنادق والمدافع تضرب ضرباتها الضخمة ، يحلم بمجد العرب .

ورأى إخوانه يسقطون صرعى بمدافـــع تنطلق من الوراء ، وبنادق تنفجر في وجوه اصحابها .

وقد اجمع المؤرخون وعلمـــاء النفس على ان القيادة هبة واكتساب . وأنها تولد مع الشخص · طبيعة في ذات نفسه . كما انهـا تكتسب بالمران والتجربة . وقيادة الأمم كالحرب ، عـلم وفن . وهي جماع روح القائـــد وهواتف نفسه ومزاجه ، وخلاصة خبرته وتجـــاربه ، وايمانه بوطنـــه واحساسه بمسؤوليته من الرعية .

وقد اجمع الثقات والخبراء بفن القيادة على ان الصورة المثلى للقائد تجمع في إهابه الشجاعة والحزم والصراحة والغيرةعلى الشرف والنجدة والنظام والطاعة وتقدير الواجب والايمان بالحق .

والجندية بطبيعتها لها تقاليدهـا التي تقوم على الشجاعة والنخوة والغيرة على الشرف ، وتتنافى مع الكذب والرياء والنفـاق ؛ ولعل في شرف الجنـدية التي تتخذ من المثل « الموت ولا العار » ناموساً لا يحيد عنه ، ما يعطي صورة القائد من محيط الجيش .

ومن جماع هـــذه الصفات نلمح صورة عبد الناصر ، فقـد كان استاذاً في المدرسة الحربية، شأنه شأن كبار قادة الامم والجيوش . وامدته الدراسة بالقوة على مواجهة المفاجـآت وجعلته مستعداً للعمل في أية لحظـــة تحت وطأة أي ظرف جديد .

وقد عرف جمال بقوة الإرادة والشجاعة الفطرية والنزاهة وضبط النفس .

وهو من المؤمنين بالكفاح . من أولئك الذين لا يرضون بأنصاف الحـلول . ويصر على ان يظفر بحقه الكامل. وهو لا يرتجل ابداً . يـدرس كل شيء في اناة ويستخلص نتائجه مجردة؛وله من اختباره وادراكه لدقائق الحياة ما يجعله يحرص على ان يضع قدمه متى قدر موضع خطواته.وتعلم جمال في مدرسة الوطنية الشيء الكثير . تعلم ان حق الشعب لا يضيع مهما طال عليه الأمـد . وان ليل الظلم قصير وإن طال . كما آمن بأن مصير الطغاة إلى زوال .

وقد وصفه من رآه من المراقبين السياسيين الأجانب بأنه وطني متعصب . شديد النزاهة ، لا يبالي بنفع شخصي ، وانه عميق التفكير . وتفسر آراؤه في الغرب بأنه من الشعبة اليمينية المحافظة . وأنــه رجل نزيه وذكي وواقعي . صموت مهذب . يحسن الاستماع ويجيده ويؤثره على الكلام . وصمته صمت الرجل الذي يفكر كثيراً ويؤثر ان يمحص ما يفكر فيه .

والوفاء صفة من صفاته . فهو لا يعرف الغدر ولا يتربص بالنـاس الدوائر . قوي في مواجهة الأحداث والناس قوته في مواجهة نفسه .

وابرز مظاهر قوته أنه لا يحرص على أن يبدو قوياً ابداً . لم يفر من حمـل التبعات ليلقيها على اكتاف غيره ويكتفي بموقف المحاسب .

وتعد سيطرة جمال على عواطفه وأعصابه مظهراً آخر من مظـاهر قوته الخارقة . فهو لا ينفعل رضا ، ولا ينفعل سخطاً ، وقد مكنته الأحداث من أن يقود أعصابه ، ولم يسمح لهذه الأعصاب أن تقوده قط . وهو سريع الخاطر في مواجهة ما يظن أنه يحدث ، وفيه صراحة لا تستطيع ان تخفي الطيبة المستترة .

وقد تحدث عن نفسه مرة فقـال : إنهم يقولون إنني الثعلب المـاكر ؛ فاستغربت هذا التفكير الذي تحيط به العاطفة المجردة من العقل . وقلت : ان البلاد كانت تحتاج الى رجل يتقدم ويقود حركتها ، ولا تصدق أن يكون مثل هذا الرجل « عبيطاً » ..

وهذا حق فإن الرجل اليقظ هو الذي استطاع أن يرغم خصومه على احترامه والتسليم له .

وقد وصف جمال يوماً بالصرامة على أنها قسوة فقال :

«إن هناك فرقاً بين الصرامة والقسوة . فالصرامة هي الجد . وليس كل جاد قاسياً . كما أن ليس كل قاس جاداً . والإنسان الذي يعرف كيف يحب لا يعرف كيف يكره . وما انا الا انسان تحس نفسه بمختلف المشاعر الإنسانية » .

وهو يقول : إنه لم يحدث أن خاب لي أمل، فقد التزمت في حياتي ألا اطمع في المحال . وان اسعى الى هدفي عن طريق مستقيم ، معتمداً على الله .. ولهذا لم

يخذلني الله ابداً .

وقد عرف الموت طويلاً وعاش في التجربة ، العاشرة بل المائة بل الألف :

« فقد واجهت رصاص إسرائيـل شهوراً طويلة . وانا انتقل بين الفـالوجة وعراق المنشية . وكان طريقي في تلك الأيام هـــدفاً دائماً لرصاصهم وقنابلهم . كنت اقطع اميالاً طويلة . وانا ارافق الانفجـارات وأدرّي الألغام . كان الموت سميري وملازمي وصديق أيامي . وقد عرفته ورأيته وعشت معه . »

●

وقال جمال في معرض أحاديثه العديدة مع الصحفيين الأجانب : « انا لست دكتاتوراً . ولا أريد الدكتاتورية . لقد دعا مجلس الثورة الأحزاب غداة الثورة الى تحمل المسئولية فأبت إلا أن تسير على الطريق التي اعتادت السير عليها ، إنها تريد أن تفعل الخير عن طريق الشر . وما كانت طريق الخير في أي يوم من الأيام سوى الخير نفسه .

اما كان في وسعي أن اقيم حكماً ديمقراطياً نيابياً ، لمجلس الثورة فيه اغلبية كبرى ؟ ... ولكني لا أحب هذه الأساليب .

ان للثورة مبدأ مقرراً . هو أن تحرر الفرد من كل عبودية . وحتى تطمئن الثورة الى أن الفرد قد تحرر فعلاً ، وأنه اصبح قادراً على أن يفرض مـا يريده هو ، كمواطن ، له كل الحقوق التي يتمتع بها أي مواطن آخر ، حتى اطمئن الى هذا ، تكون رسالة الثورة قد بلغت غايتها .

اننا حين تولينا الحكم لم نتصل بأجنبي لنستعين به على الشعب . وإنما استعنا بالشعب على الاجنبي . وكان علينا أن نطهر البلاد من الفساد ، وطهرنا مـــا أمكننا منه ، وكنا مؤمنين بأنه لا سبيل الى القضاء على الاحتلال الاجنبي إلا إذا قضينا أولاً على اعوان الاحتلال وعلى الخونة ؛ وقد فعلنا .

وحين ادرك المستعمرون أنه لم يبق لهم من يعتمدون عليه في البلاد ، حين ادركوا أن عيونهم في البلاد قد فقدت نورها ، وأن أيديهم قد بترت ؛ يومها فقط شعروا بأنه لا سبيل للبقاء . ويومها فقط شعروا أنه لا مناص من الرحيل ، فكان

الجلاء ... ولكن الجلاء لا يتحقق بوثيقة .

●

ولعل أبرز ما يلفت نظر المحلل النفسي لشخصية جمال عبد النــاصر ، انه يفهم في عمق ما هي علة النقص الذي نعانيه كشعب عــاش طويلاً في الاغلال .

إن جمال عبد الناصر قد حول العقلية العربيـــة من وضع الى وضع ، إنه أراد أن يخرج جيلنا من تلك المعاني القديمة التي عشنا بها طويلاً في عهود الحرمان والذل ، هذه الفلسفة الانطوائية المتواكلة . فلسفـــة الجبن والتواكل والخنوع والعبودية والتزلف والنفاق ، على كل هذه المعاني كانت تقوم حياتنا . لم يكن في استطاعة أي فرد منا أن يصل إلا عن هذا الطريق .

فكان طبيعياً أن يحطم قائد الثورة العربية الكبرى هذه الأصنام وأن يمزق هذه الأوهام ، وأن يحرر النفوس من هذه العقائد الباطلة ، وأن ينقلنا الى فلسفة أخرى قائمة على الإيجابية والقوة والعزة .

وفي كل ميدان ، وكل مجال ، مضى الثائر جمال يصحح اخطاءنا ، ويستل من انفسنا تلك العقائد والأوهام التي كونها عهد طويل من الذل والعبودية .

لقد نقلنا جمــال من الكلام الى العمل . ومن التمني إلى رسم الخطط لتحقيق الآمال . لم تعد الحرية كلمة تقال ولم يعد الوطن ملكاً لفئة مستغلة او إقطاعية ، بل ملكاً لأبنائه جميعاً . لقد دعانا جمال الى التسلح بالمعرفة حتى نتلافى الخداع . وطالبنا بالتعمق في معرفة الأمور وفهمها . وقصة التحول النفسي الذي يريـــد جمال ان يحققه للأمة العربية هو لب لباب الثورة . انها الثورة النفسية التي تحول ما في الأعماق من افكار ومذاهب :

« . . كانت كل متاعبنا في الماضي ناجمة من طيبة القلوب . وطيبة النفوس . فقد سلمنا قلوبنا وعقولنا . هــذه الأشياء الغالية ، سلمناها طائعين مختارين . ونحن نتوخى الثقة والسيادة ونتوخى القوة . فكانت الثقـــة تضيع . وكانت القوة تتحلل . وكانت السيادة تتبدد . فاستبدوا بنا وبعقولنا . فإذا أردنا أن نسير في طريق قوي فعلينا ألا نعبــد الأشخاص او الأصنام ، فطالما عبدنا الاشخاص

فاستبدوا بنا وبعقولنا .

ان هذا الوطن كان دائماً سيداً قوياً . وعزيزاً كريماً . ولكننا لم ننتكس الا بعد أن رضينا بالخداع والتضليل ، والا بعد ان رضينا بالاستجداء واخذنا الزهو بالاستجداء ؛ ولم نكن نعلم انه الوسيلة للسيطرة على المواطنين . والآن لن نمكن للاستجداء او الخداع او التضليل من أن يأخذ مكانه بيننا . سنسير الى الأمـام متسلحين بالدروس التي أخذناها من الماضي ، وبالمعارك التي استشهد فيها الآباء حاملين العلم ...

لن نمكن الرجعية من ان تقوض ما بنيناه تحت أي اسم من الاسماء البراقة التي خدعونا بها في الماضي . إننا لا نريد ابـداً ان يأخذنا الزهو ، ولكننا نريد ان نأخذ من هذا عظة ، ومن ذلك عبرة لكي نتجه إلى المستقبل بقوة وعزم . »

وهو يؤمن بالإيجابية بالوضوح :

« لقد مضى الزمن الذي يمكن ان يعيش فيه السطحيون .

« قوى الخير ستنتصر دائماً وتدوس قوى الشر بالاقدام .

« قلت لكم في مارس – آذار الماضي اننـــا لن نخادع ، ولن نضلل ، ولن نستجدي . قلت لكم هذا في أصعب الاوقات . كنت أحمل في نفسي كل هذا . وكنت أعلم أن هناك فئة تستجدي ، حتى إذا تمكنوا منـكم فانهم يستبدون بكم وبارزاقكم .

« لن تكون هناك حرية الا إذا تحررت الأرزاق وتحررت لقمـــة العيش وشعر كل فرد أنه يعيش في وطن تتكافأ فيه الفرص ويستطيع أن يقول ما يريد ولا يحيا مهدداً في رزقه ولا في اولاده ولا في مستقبله .

« لا يجب ان ينتحي اي فرد منا جانباً من الحياة » .

●

ولما سئل عن امله في الحياة ، قال :

« ان أرى الفرص متساوية متكافئة أمام جميع المواطنين الأحرار . وان ارى الجميع يعملون لبناء دولتهم شاهقة جبارة متساندين متكاتفين ، وان ارى

الأنانية والحسد والحقد والضغينة المتفشية في مجتمعنا قد انتهت الى غير رجعة.

وهو محدد التعبير حين يصور امراً خطيراً ، تحس في تعبيره مدى الوضوح الذي في نفسه حينما رفع العلم المصري على الشاوفه هزه هذا المعنى الضخم كخطوة كبرى ، في تحقيق الجلاء فقال :

« الحرية ليست كلمة تقال . ولكنها جهاد وعمل . جهاد امة وعمل شعب . هذه الحرية التي نشعر بها اليوم . نشعر بها في كل شعرة من اجسامنا . سنحافظ عليها وسنعمل على تقويتها في هذا الوطن. هذه الحرية التي ستعطينا القوة ، فإننا حينما نشعر اننا قد تحررنا تحرراً كاملا ، تحرراً داخلياً وخارجياً ، حينئذ نشعر ان الوطن اصبح ملكاً لنا جميعاً . »

والصحافة ماذا يراها :« ان اول واجبات الصحافة الرشيدة فى البلدالرشيد ان تكون بمثابة الانوار الكاشفة على طريق الغد » .

والمعلمون ما هي رسالتهم « إذا كنا قد حررنا الارض من الاحتلال . واذا كنا نريد ان نحتفظ بهذا النصر ، فلا بد ان نحرر العقل والنفس من آثار الاحتلال . »

وهو يصور مشاعرنا النفسية قبل الثورة فيقول :

« كنا قبل الثورة تائهين نشتكي لبعضنا . وينتهي العمل بمجرد الشكوى . وكانت النتيجة خضوعاً. فباسم الخلافة والاحتلال التركي ضحكوا علينا وقضوا على الاخلاق ، وانتشرت الرشوة ، ونحن كشعب طيب كنا نصدق . وكان المصير الاستغلال والاستعباد . تحكموا فينا كأفراد ، وربوا في انفسنا الخوف والفزع .

لقد استبد بنا التواكل مدة طويلة ، لان آثار السياط على ظهورنا لا تزال تؤثر في نفوسنا وقلوبنا ، ولا تزال تتفاعل مع شعورنا ومشاعرنا .

وان الاستعمار التركي والاستعمار البريطاني قد اوجدا فينا فئة من الطغاة وطائفة من المستسلمين ، فاذا اردنا ان نحقق اهدافنا فيجب ان نتخلص من الطغيان ونتخلص من الاستسلام » .

ويتكشف جانب من نفسيته عندما يتحدث مجيباً عن سؤال وجه اليـه عن طريقته في الراحة بعد التعب :

« .. لا أظن ان لي طريقة في الراحة بعد التعب، فحياتي كلها تعب ونضال، ولا اظن انني استمتعت بالراحة التي يتمتع بها سائر عباد الله، على كثرة ما صادفني من احداث كانت تعكر لحظات راحتي وتستنهضني للكفاح .

ولو وازن الإنسان بين مقتضيات الراحة والكفاح لخرج من هـذه الموازنة بنتيجة واحدة : هي ان المحن في حياة الشعوب كالمحن في حياة الافراد لا تدع لهم وسيلة للاستقرار . لقد كانت مصر مثقلة بالاخطاء . بعناصر الفساد تنخر من الداخل . وكان الاستعمار يجثم فوق صدرها ويستغل مواردها ويفسـد علاقاتها بالدول الاجنبية .

وكان هذا الوضع لا يرضي اي مصري حر ، فانشغل باله وحرّم الراحة على نفسه ، ثم اندفع من طريق طويـل مرير ، عساه يجد ما يخلصـه من الفساد والمفسدين . حتى اذا نجحت الثورة وارتحنا من الفساد في الداخل ، ولم يبق الا ان نستكمل راحتنا بعد ان يغادر ديارنا آخر جندي بريطاني .

وفي ذلك اليوم فقط ، سأشعر بالراحة . »

واليوم ، وبعد أن مضى على هذا الكلام سنوات ، ترى هل استراح جمال ؟. ما اظن ذلك ... فان آخر جندي بريطاني لم يخرج بعد من الوطن العربي ..

●

وقد حرص جمال على أن يسجل أن الثورة هدفت الى تحرير المواطنين مـن الإذلال النفسي الذي سيطر على الوطن العربي عهداً طويلاً حتى جعل كل واحد منهم طاغية وعبداً في وقت واحد . عبداً للاقوياء ، طاغية على الضعفاء .

وقال : لقد عشنا عشرات السنين تحت حكم الاستعمار التركي الذي قضى على روح الشعب وحقوقه، ونشر الفزع والرعب فيه، فوجد الطغاة فئة من المستضعفين الذين أعانوهم على إذلال الشعب .

ودعا جمال الى العقل ، والى نبذ العاطفة في الحكم على الأمور . وطلب أن

تتخلى عن عيوبنا في الماضي : طيبة القلب والثقة بغير دليل.وعبادة الأشخاص.
وقال :«ان الثورة لا تريد ان تلهب العواطف ، ولكن تريد ان تلتقي مع عقول الشعب .فقد اساء للعرب طويلاً أولئك المهيجون للعواطف الخادعون المضللون.»

وقال :« إن الثورة لا تريد ان تشتري ثقة الشعب بثمن بخس ،وإنما تريد أن تدفع في هذه الثقة عرقاً يتصبب من الجبين . وسهراً مراً وعملاً متصلا . وقال : إنه يدفع هذا الثمن ، راضياً به قلبه ، طيبة نفسه . لأنه يعرف ان من ورائه مجداً لهذه الأمة ، وعظمة لهذا الشعب ، وكرامة لهـذا الوطن الذي يفتديه بالمهج والأرواح » .

صورة جمال من عباراته

* أريد سلاحاً أشتريه، لا سلاحاً يشتريني : السلاح في أيدينا سلاح مصري.

* اننا كمجتمع ، ونمثل عائلة كبيرة . كل من ينحرف منا لا بد ان نقَومه وان نقسو عليه .

* إن القوة سبيل الوحدة ، وإن الوحدة هي سبيل القوة .

* إنني أعلم تمام العلم أنه يجب عليَّ دائماً أن اضع رأسي على كفي . ولهذا اعترف بالقدر في كل لحظة ولا أهاب إلا الله .

* إننا نترك الخونة وأعوان الاستعمار لتحاسبهم شعوبهم . وسيكون يوم الحساب قريباً . وسنرى حسابهم بإذن الله .

* إن القومية العربية قد انطلقت من عقالها .

* اننا نحاول اليوم ان نتحرر من الاستعمار الفكري الذي أراد الاستعمار واعوان الاستعمار ان يجعلوا منه سلاحاً ضد روحنا المعنوية .

* الجيش ليس إلا جزءاً يمثــل هذا الشعب بجميع معانيه ، وبطبيعته ومقوماته ومثله .

* إننا لا نستطيع بتاتاً ان نعزل أنفسنا عن أية ازمة تقع في منطقتنا .

* لا نستورد المبادىء من الخارج .

* اننا نؤمن بالفرد وحرية الفرد وشخصية الفرد وحقه في العمل .

* لن نلتفت الى الخلف ، ولن نلتفت إلى الوراء .

* إنني لا اؤمن بالحرب ، لأن الحرب نادراً ، بل قــد لا توصل الى منتصر حقيقي .

* السلاسل تحطمت ، والوصاية سقطت ، والشخصية المستقــلة برزت ، واحتكار السلاح انتهى . لا في بلد يمكن عزله وحصاره ، وإنما في منطقة شاسعة يتدفق فيها تيار واحد : هو تيار القومية العربية .

* نسالم من يسالمنا ونعادي من يعادينا .

* انني أعاهدكم أنني سأقاتل معكم لآخر قطرة من دمي .

* انني أعرف ما سوف أفعله : اننا لن نهاجم احداً ، ولكننا سندافع عن وطننا الى آخر طلقة وآخر رجل .

* لست وكيلاً لأحد ولا أتلقى أوامر من أحد .

* كلمة طيبة عندي أفضل من مليون دولار .

* إنهم كانوا يريدون أن يجمعونا كقطيــع من الأغنام المستأنسة في حلف بغداد ، ولكني رفضت .

* أفادتنا الحرب كثيراً . فقد تعلمنا أن نعتمد على انفسنا ، وأصبح كثير من صناعتنا المحلية في الازدهار .

* اسألوا اسرائيل عن ابو عجيلة والخسائر التي تكبدوها .

* يجب ان نبني : نبني لنعوض الماضي . ونبني لنواجه الحاضر . ونبني لا لنلحق بالمستقبل فحسب . وانما لكي نسبق هذا المستقبل .

* ان هناك سباقاً بيننا وبين الزمن .

* الوفاء يملأ قلوبنا لمن ساعدونا ، ولاحقد على من حاربونا .

طريقته في العمل

كان له اسلوب لطيف في اعطاء الأوامر للضباط الأحرار . فقــد كان يجلس

الى الضابط الذي وقع اختياره عليه بينه وبين نفسه، ليكلف بعمل ما . ويشرح له ظروف هذا العمل وطبيعته في دقة وايضاح . ويبين له اهميته وظروفه وخطورته . وفي النهاية يحدثه عن السبيل الوحيدة الى علاجه . وذلك بطريقة تجعل الضابط الذي يستمع اليه يشعر أنه هو أنسب الأشخاص للقيام بهذا العمل فيتطوع لأدائه من تلقاء نفسه ، وينفذ الأمر دون أن يكون هناك أمر ، ودون أن يشعره بسلطان الرئيس !..

«احمد انور»

جمال في مرآة التاريخ

« ان فلسفتي بسيطة وصريحة .. انني ادافع عن قضية عادلة ، وكل الاحداث التي مرت بي زادت من اخلاصي لقضية الشعب وحريته .. اننا دائما صرحاء لا نقول كلامين، ولا نقول كلاما ونعمل غيره . اننا اذا هاجمنا هاجمنا علنا . واذا قررنا اي شيء قررناه علنا . الشعب هو السند الوحيد في كل كفاحنا ومن اجل بلدنا . لم اتكلم طوال عمري بلغتين ولا بوجهين . »

« جمال عبد الناصر »

لم يعد جمال عبد الناصر مجرد زعيم او قائد عربي برز في فترة مظلمة ففجر قنبلة مضيئة ضخمة في العالم كله ، وذهبت آثار الانفجار الى كل مكان في الغرب، وانما اصبح جمال « فكرة » ضخمة يخشاها الغرب الذي لا يزال يريد ان يسيطر على بعض اجزاء الوطن العربي ويحتفظ بها .

وقد صور هذا جمال عبد الناصر في بعض احاديثه فقال : « إنهم لا يزالون يأملون الاحتفاظ ببعض اجزاء الشرق الأوسط تحت سيطرتهم ، ولكن فكرة الاستقلال التي انادي بها ، وأدعو اليها ، تعدخطراً يهدد تلك المطامع البريطانية، وإذن فليس عبد الناصر هو الذي يخشاه اولئك المستعمرون وإنما الآراء التي ينادي بها » .

ويقول : ان الغرب يخشى عبد الناصر كرمز ، اكثر من خوفهم منه كشخص ، والواقع ان عبد الناصر مخوف . فان العالم الغربي يبدو اليوم ، بعد مرور سبع سنوات على الثورة ، كأنما هو بركان ملتهب ، قامت الثورة المصرية العربية عام ١٩٥٢ وتوالت الثورات في المغرب ١٩٥٣ وفي تونس ١٩٥٤ وفي الجزائر ١٩٥٤ وفي لبنان ١٩٥٨ وفي العراق ١٩٥٨ وفي عدن وفي افريقيا منذ ذلك الوقت الى اليوم .

وفي مرآة كتّاب الغرب ترى صورة عبد الناصر تبعث الاعجاب ، وفي كل يوم يصل من وراء البحر صحفيون وكتاب ومذيعون ليقابلوا (رائد العرب) ، وهو يتحدث اليهم الساعات دون يأس ويقول لهم : « حاولوا أن تفهمونا : الحياد هو الأساس الأول لسياستنا الخارجية . وحيادنا يقضي بأن يكون موقفنا وسطاً بين الكتلتين — اننا نبني بيد ونمسك السلاح بيد . لا نستورد المبادىء من الخارج — نقبل التجارة ولا نقبل الاستغلال — السلاح في أيدينا سلاح مصري ، ان الدفاع عن المنطقة ينبثق من داخلها ولا يفرض عليها من خارجها — لنا مصلحة في بيع البترول ، ونعرف ان الغرب وحده هو العميل الطبيعي للبترول » .

ولكن الغرب لم يخل من المنصفين الذين عرفوا قدر جمال عبد الناصر :

يقول عبد الله فيلبي : « اذا قيست عظمة الرجل بمقياس الأعمال التي قام بها فلا شك أن جمال عبد الناصر هو اعظم مصري منذ محمد علي حتى اليوم ، وأنه حقق لبلاده ما عجز عنه كل من سبقه من الملوك والحاكمين » .

ويقول صاحب كتاب يقظة ابو الهول :

« ان عينيه تعبران عن حرارة إيمانه بالمثل التي يؤمن بها . كما أنه من اليسير جداً ان يقرأ الانسان خواطره في نور هاتين العينين اللتين قيل إنهما تحملان سحراً خاصاً لا ينجو منه احد . وقد حدث هذا مع جميع الذين قابلوه ، واستسلموا لإرادته بكل طواعية واختيار . وإن هذا الاستسلام هو وليد الإعجاب بالرجل العظيم الذي استطاع خلال سنوات قليلة أن يحقق للنهضة

العربية ما لم يستطع تحقيقه عشرات الرجال السياسيين .

والحلم الذي يسعى جمال عبد الناصر الى تحقيقه هو القومية العربية . ومع ان الكثيرين من رجالات العرب حاولوا أن يقربوا ما بين الدول العربية عن طريق الدين او اللغة أو العواطف المشتركة ، بيد أنهم فشلوا ؛ بعكس عبد الناصر الذي اكتشف طريق المصلحة المشتركة والهدف الواحد ، فكان لكلمته اكبر الأثر في ايقاظ الشعور الوطني . ولا يسعنا الا ان نقدم واجب الاحترام لهذا الرجل الذي عرف كيف يفرض احترامه علينا . ان مصر ظلت مدة ثمانين سنة تستوحي سياستها من بريطانيا. ولكن عبد الناصر لا يقبل سياسة من الخارج لتقرير مصير مصر والبلاد العربية ، فهو ينتهج سياسة خارجية في ضوء الأهداف التي يسعى اليها ..»

اما صورة عبد الناصر في مرآة « ولتون وين » فهي أعمق واشد وضوحاً :

«ان عبد الناصر دينامو بشري يتمتع بطاقة لا حدود لها ، ولا يكاد يجد وقتاً للنوم . ان متعته الاولى في الحياة هي عمله ، هي ثورته ؛ فهو يوجه اليها كامل قوته ، وهو يعمل معظم الاحيان في منزله ».

«.. وأبرز معالم شخصية عبد الناصر عند ولتون وين: هي «اعصاب» عبد الناصر الفولاذية التي أدت الى مصر خدمة جليلة في خريف عام ١٩٥٥ ، يوم كانت الحوادث التي افتعلها اليهود على الحدود المصرية الاسرائيلية جديرة بأن تجعل أي شخص آخر يتردد في الرد على العنف قبل اكتمال الاستعداد . وابلغ من ذلك موقف عبد الناصر عام ١٩٥٦ خلال «ازمة السويس» ؛ ففي وجه العدوان العسكري البريطاني الفرنسي احتفظ عبد الناصر برباطة جأشه . وقد اثر ذلك في نفسية السكان المدنيين أيضاً ، فاحتفظوا هم ايضاً برباطة الجأش وضبط النفس .

وهو يؤمن ايماناً وطيداً بأنه صاحب «قضية عادلة» حقة مائة بالمائة . ولو ظهر جمال عبد الناصر على شاشة التلفزيون في الولايات المتحدة ثلاث مرات في الاسبوع ، اذن لاستطاع ان يضم الى صفه الشعب الامريكي كله .

وعبد الناصر يتكلم الانكليزية في طلاقة ، ولكنه لا يتكلف التكلم بلهجة

اكسفوردية أو رطانة امريكية . إن عبدالناصر يتكلم الانجليزية بالنبرةالمصرية. وانه لا يتهرب قط من اي سؤال ، ولا يحاول ان يقذف بإجابات موجزة لا تغني ولا تسمن من جوع . انه لا يجيب على الاسئلة فحسب ، بـل يتـوسع في ذلك حتى النهاية . وذلك أنه متمكن في موضوعـــه ، فهو يريد ان يتحــدث ويتحدث حتى تصبح كل نقطة صافية كالبلور . ومع ذلك فهو لا يستعمل التعابير الصخابة الطنانة ، ولا يمتدح نفسه وأعماله ، بل على العكس انه متواضع جداً، سريعٌ الى الاعتراف بأخطائه .

وروح الفكاهة عند عبد الناصر تؤلف جزءاً من سحر شخصيته . انه ليس مقذعاً . ولكنه يملك نصيبه من روح الفكاهة التي يتميز بها شعب وادي النيل.

ان سحر شخصية عبد الناصر أنه يفتن كل من يقابله ، وانا لا اذكر اني رأيت رجلاً تحدث اليه ثم خرج من عنده وهو غير معجب به . وقد تُجري معه حديثاً فيقنعك دائماً بوجهة نظره ، حتى اذا فارقته وتحررت من سحر شخصيته بعـــد ساعة أو ساعتين فقد تجد نفسك تختلف معه في الرأي .»

ويكتب ارسكين تشلدرز تحت عنوان «حقيقة عبد الناصر» :

« لم يستطع احد ، حتى منخصومه، أن يقول عنه انه يبتغي مجداً شخصياً».

●

لقد أثار « جمال عبد الناصر » البحيرة الراكدة التي فرض الاستعـمار عليها ان تظل راكدة وقتاً ما ، ربما كان ثلاثين عاماً أو اكثر . كانت علامة البدء كلمة لم تكن عابرة ، وإنما كانت تمثل « إرادة » . هذه الكلمة هي « على الاستعمار أن يحمل عصاه على كاهله ويرحل ، او فليقاتل دفاعاً عن وجوده حتى الموت » . لم يكن عبد الناصريومها وزيراً أو رئيساً للحكومة،وإنما كان (ثائراً) لم يبرزبعد الى الصورة العامة ، وقد دهشت بريطانيا يومهـــا للتصريح الذي لم يصدر من « مسئول » ، ولكنها كانت تعرف بالتأكيد من هو جمال عبد الناصر الذي قاد ثورة ٢٣ يوليو ــ تموز ــ ووقف وراءها يدفعها الى الامام .وبعد سبع سنوات ،

خاض خلالها معارك ضخمة وانتخب رئيساً للجمهورية المصرية ثم رئيساً للجمهورية العربية المتحدة ، لم يتغير عبد الناصر ، ولم يزدهه النصر ، بل زاده ايماناً بهدفه الأكبر . فكانت عباراته لا تزال تحمل الحرارة نفسها « ... رفضنا الاستسلام ورفعنا السلاح » « هدفنا القضاء على نفوذ الغرب في بلادنا » « السلاح في ايدينا لا نتركه أبداً » — « لم تنته محاولات الغرب ومؤامراته » — « لا بد ان يفهم الغرب ان صيحة القومية العربية اليوم تختلف عن اي صيحة سبقتها . »

ووقف جمال في وجه مؤامرة (حلف بغداد) منذ اليوم الاول . وقال عنه « إن حلف بغداد ليس الا سجناً كبيراً صنعه الاستعمار . لقد كانت سجون الاستعمار في أول الامر مناطق نفوذ تحكمها قوات الاحتلال ، ثم تطورت سجون الاستعمار الى معاهدات تحالف » .

وقال جمال : « إن الدفاع عن الشرق الاوسط يجب ان ينبثق من المنطقة ، وأن يرتكز على شعوب المنطقة . وان لا يوجه ضد أحد بالذات . وانما يوجه ضد العدوان .

وقال : إن حلف بغداد يتجمع ضد خطر لم يتحقق ، ويتغافل عن خطر محقق موجود فعلاً هو خطر اسرائيل .»

وقد استطاعت صيحات جمال ان تنقذ الدول العربية من حلف بغداد فلم تشترك فيه . لقد حارب جمال « حلف بغداد علناً وبعنف ، وكان اول معاركه مع الاستعمار . وقد كشف الزمن صدق عبدالناصر وسلامة موقفه ، فلم يحقق حلف بغداد للعرب شيئاً إيجابياً ، وانما قام على التآمر ؛ وقد كشفت وثائق حلف بغداد عن مؤامرات تهدف الى عزل مصر ، وذلك بانشاء كتلة من المغرب ولبنان والسعودية ، وربطها مع حلف بغداد ..

وعبر جمال عن اعمق «آمال» الأمة العربية ، وأبرز الى الوجود «الأحلام» التي كانت تضطرم في اعماقها كخيالات بعيدة تجري في الذاكرة على الاجيال .

فاذا قلنا انه هو الرجل الذي حطم آمال بريطانيا في أرض العرب ، وانه الرجل الذي استطاع بعد هذا الزمن الطويل أن يقف امام هذه الدولة المستعمرة ،

وأن يخلق لها في كل مكان تضع فيه قدمها، ثورة وعصياناً . . لأمكن ان نربط بينه وبين جمال الدين الافغاني برباط وثيق . ذلك ان جمال الدين الافغاني كان العدو الاول لبريطانيا . كان «لساناً» صادقاً في بث الكراهية لها اينما حل ، ولم يكن في استطاعته ان يفعل غير «الكلام» لاثارة النفس العربية والاسلامية على هذا الاستعمار الباغي ؛ وقد ظلت آمال جمال الدين الافغاني في القضاء على نفوذ بريطانيا العظمى تجري في دماء المجاهدين أحمد عرابي ومصطفى كامل ومحمد فريد ويوسف العظمة والباروني والثعالبي ومحمد عبد الكريم وابن باديس وغيرهم، لتتحول مع الزمن من الكلام والخطابة الى المقاومة والحرب ، ولتواجه القوى العاتية التي تردها وتقضي على مظهرها . وهي خلال هذا الزمن الطويل تجري في دم الأمة العربية ، تنصهر وتتحول ، حتى تبلورت في صورة «بطل» محرر ، عاشت الأمة العربية اربعين سنة تحلم به ، وتتطلع الى مدار الشمس لترى اين يظهر ومتى . .

ولقد ظهر في الوقت الذي ظن فيه «الرجل الأبيض» أنه قد استوى على عرش افريقيا وآسيا مسيطراً عليها ، يمسك بين يديه خيراتها وبترولها وخاماتها ، وأحس كأنما استنامت الى حكمه ، فاذا بها لا تلبث إلا قليلا بعد ظهور جمال حتى تواجهه فيها في كل مكان ثورة ويقظة ومقاومة . .

وقصة جمال عبد الناصر مع بريطانيا قديمة ، وتمتد الى حياته الأولى . فهو لا يزال يذكر ان والده ولد يوم ١١ يوليو - تموز - ١٨٨٢ ، وهو اليوم الذي ضرب فيه الاسطول الانجليزي مدينة الاسكندرية . وكيف كان يحب « يوليوس قيصر » ، وانه مثل دوره على مسرح المدرسة لسبب واحد : هو ان يوليوس قيصر استطاع يوماً أن يغزو بريطانيا التي تستعمر بلاده . وقد عاش في ظل قصة اخرى في القاهرة ، هي قصة عمه الحاج «خليل حسين» الذي قبض الانجليز عليه سنة ١٩٢١ وحكمت عليه المحكمة الانجليزية بالسجن فترة طويلة . وقد قال عنه الرئيس : انه بذر في نفسه بذور الثورة .

وفي المدرسة وجد جمال مدرس اللغة الانجليزية «وولي» الذي كان يحقد على الشباب المؤمن بوطنه . والذي كان يضع المسدس فوق المكتب طوال حصته ، وكيف

اشترك مع الطلبة في احراق سيارة هذا المدرس الانجليزي . فلما جاء البوليس استطاع جمال ان يفلت منه لينظم مظاهرة في المساء أصيب فيها. وقد كان تلميذاً حدث السن عندما اصيب في وجهه اثر اشتراكه في اول مظاهرة في ميدان المنشية بالاسكندرية ضد الانجليز ، وما يزال الجرح الذي اصيب به على كوبري الملك الصالح في ١٢ نوفمبر تشرين الثاني ١٩٣٥ ظاهراً في وجهه. وكانت هذه اصابته الثانية ، ولم يكن قد تجاوز بعد السابعة عشرة .

● وقد كانت صيحة جمال في العالم العربي «عدم الانحياز» جديدة ومثيرة . وقد تساءل المعلقون في الشرق والغرب عما اذا كان جمال عبد الناصر يؤمن بسياسة عدم الانحياز ، وكانت الأحداث نفسها هي التي اقنعتهم . كان موقف جمال عبد الناصر من الغرب واضحاً ، فلما قاوم «الروس» حين ايدوا الاحزاب الشيوعية في العالم العربي ، واعلن موقفه واضحاً منهم كان ذلك اصدق إجابة.

ومن قبل وصفه «شوان لاي» بعد لقائه معه في باندونغ :

« ان جمال عبد الناصر يمثل تياراً وطنياً جديداً في منطقة الشرق الاوسط . ولما تحدث اليّ عن افكاره وبينها فكرة تملأ وجدانه يسميها «القومية العربية» احسست انه يؤمن بدور كبير تستطيع هذه القوة الجديدة ان تضطلع به في حركات التحرر في الشرق الاوسط .

« ان جمال عبد الناصر يؤمن بسياسة (عدم الانحياز) التي يعلنها ، ويؤمن بها كاستراتيجية للمدى البعيد . وليس كمناورة تكتيكية يحصل من ورائها على بعض الميزات المادية لبلاده ، كالمساعدات الاقتصادية والعسكرية وما اليها . وإني اعتقد ان هناك تصادماً لا مفر منه سوف يقع بين الوطنية الجديدة والقومية العربية وبين الاستعمار والعناصر الرجعية التي تؤيده . »

وفي حديث للرئيس مع المعلق السياسي (ولتون دون) مؤلف كتاب « عبد الناصر أو قصة الكرامة » يصور الفرق بين كلمة (حياد) وكلمة (عدم انحياز) فيقول :

«أحسب ان كلمة (حياد) غير دقيقة . إن التعبير الأصح هو (عدم الانحياز).

الحياد كلمة صيغت لأيام الحرب . اننا نتمسك بمبدأ عدم الانحياز لكي نستطيع أن نحكم على كل قضية دولية بحسب واقعها الذاتي، لا على اساس ارتباطات معينة».

ولكن لماذا كان يخشى جمال عبد الناصر الانحياز ؟.. إنه يقول :

« لقد كان مبعث خشيتي من الانحياز الى أية دولة خارجية اني كنت اعرف تاريخ العرب . واعرف الشعوب العربية . ان هذه الشعوب قد تعودت منذ مئات السنين أن تنظر الى حكوماتها نظرة ملؤها الخوف والشك . كما ان مثل هذا الانحياز يفتح الباب امام تلك الدول لتسيطر من جديد على البلاد العربية ، وتعيد اليها الاستعمار مرة اخرى » .

ولم يترك جمال عبد الناصر مسألة الدفاع عن العالم العربي دون ان يوضح موقفه منها ما دام لا يقبل عقد معاهدأت دفاعية مع الغرب او الشرق . قال :

« في رأيي انه إذا كان لا بد من عقد مواثيق دفاعية في العالم العربي فيجب ان تعقد هذه المواثيق بين الدول العربية وحدها ، لانه يجب ان تشعر شعوب هذه الدول بأنها مستقلة حقيقة» .

وهو في نفس الوقت يؤكد انه لا يعادي الشرق ولا الغرب :

«ليس من سياستنا ان نعادي لا الغرب ولا الاتحاد السوفييتي . إن هجماتنا على الشيوعيين في سوريا والعراق كانت تهدف بكل بساطة الى تحقيق هدف ضروري ، وهو تحصين شعب الجمهورية العربية ضد العدوى الشيوعية ». ويقول : « إني بكل بساطة انتقدت الشيوعية دون ان اتشاور مع الامريكان . والامر نفسه صحيح بالنسبة للجانب الآخر . فلو ان السوفييت ظنوا اني منحاز اليهم فذلك خطأ ».

ويلقي في حديث له الضوء على هذا المعنى فيقول : « ان القومية العربية «كمذهب» تقضي بالاستقلال التام عن اي نفوذ اجنبي ، ومضمونها السياسي هو الوقوف موقف الحياد الايجابي بين المعسكرين الشرقي والغربي . وان أي ميثاق او مذهب او حلف يحاول قلب هذا المعنى فيما يتعلق ببلادنا يصبح عدواً طبيعياً لنا ، يتحتم علينا أن ندفع عن بلادنا خطره » .

•

القومية العربية : هي ابرز الاهداف التي يعمل لتحقيقها جمال عبد الناصر. وهو لم يخلق هذه الفكرة لأنها كانت موجودة من قديم ، ولكنه ابتعثها ونفض عنها تراب الزمن وركام الانحرافات والقيود والاوضار .

« ... كانوا يقولون لنا : مالكم وللعرب . انتم جنس آخر ، ومستقبلكم بلا حدود . فلماذا تربطون انفسكم بمشاكلهم وتحملون كواهلكم باثقالهم ؟... هل تذكرون ما فعلت الجيوش العربية الاخرى بكم في حرب فلسطين ؟.. تركوكم وحدكم تقاتلون . اما هم فلم يفعلوا شيئاً . نصفهم انسحب من المعركة ، حتى دون اخطاركم . والنصف الآخر عاهدكم على الدخول ولم يدخل اطلاقاً » .

ورفض عبد الناصر هذا الكلام ، واكد صدق اتجاهه نحو العمل في سبيل القومية العربية :

« لقد أعلنا أننا نؤمن بالقومية العربية . وصممنا على ان نحارب لرفع راية القومية العربية . وكنا نعتقد ان كل معركة يخوضها الشعب العربي في أي جزء من اجزاء الوطن العربي انما هي معركتنا ، ولا بد ان نساهم فيها بأي سبيل من السبل » .

وعندما ترددت اكاذيب الاستعمار وادعاءاته دحضها جميعاً :

« إن دسائس الاستعمار لن تفرق بين ابناء الأمة الواحدة ؛ إن القومية العربية لا يمكن ان يرفع لواءها فرد . ان جمال عبد الناصر هو جندي من جنود القومية العربية . والنصر لمن يتعظ بالتجارب ودروس الماضي » .

وقد كشف جمال عبد الناصر عن قوة شخصية بعيدة المدى تتمتع بالقدرة الفائقة على محاربة الاستعمار واعوانه ومواجهة مؤامراته ، وهو يردد دائماً عبارة **الأمل** : « لا زالت امامنا فرص كثيرة حتى يأخذ الوطن العربي مكانه اللائق في العالم » .

وفي سبيل القومية العربية ، هذه الرسالة الكبرى، يجب ان نحتمل كل شيء:

« لا يحق لنا بأي حال من الأحوال ان نغضب اذا مسنا شر أو مستنا اهانة، لأننا نذرنا انفسنا ودماءنا ، واعتنقنا الرسالة التي تنادي بالعمل من أجل الأمة العربية جمعاء ، والتي تنادي بالتخلص من الأنانية والذاتية . فإذا كان هناك من قاموا لإهانتنا ، فلا يحق لنا ان نغضب ، لأن من آمنوا بالرسالة الخالدة : رسالة الوحدة العربية، كانوا يعلمون أن هذا هو السبيل الصعب وليس بالسبيل السهل.

إن الإهانة في سبيل الرسالة انما هي شرف كبير . اننا لن نرضخ أبداً . بل سنكون أشد إصراراً واشد إيماناً وأشد عزماً على السير في رسالتنا، وعلى العمل من أجل رفع راية القومية العربية وحماية القومية العربية .»

وقد صور جمال عبد الناصر كيف يفهم الدعوة التي ينادي بها فقال : « إن القومية العربية تعني في رأيي أموراً كثيرة . فهي قبل كل شيء قـــوة روحانية دافعة . وتضامن اختياري بين الشعوب العربيـــة في كل مكان يستند الى تراث مشترك بين العرب اجمعين ، في اللغـــة والثقافة والتاريخ . ان القومية العربية شعور منبعث من القلب . انها شعور داخلي لا يمكن فرضه على الغير من الخارج. إنها منبعثة من ماضي العرب، ولكنها تستطيع أن تعود عليهم اليوم في حاضرهم، بفوائد كبـيرة ، إذ تستطيع الدول العربية ان تنمو وتكـبر ، وتقوى عن جدارة ، بفضل تضامنها عسكرياً وتعاونها معاً اقتصادياً وثقافيـاً ، وفي ميدان السياسة الخارجية .

ومن اهم ما تعنيه القومية العربية الاستقلال،ومعنى هذا، القضاء على الكيان الاجتماعي والاستعماري الذي ورثناه خلال سيطرة العثمانيين علينـــا اولاً ، ثم سيطرة الانجليز والفرنسيين .»

وهو في سبيل إيمانه بالقومية العربية يضع كل امكانيات الجمهورية العربيـــة المتحدة في خدمة تحرير الوطن العربي كله :

« اقول لكل عربي: إن الجمهورية المتحدة هي اكبر بلد عربي ستكون صديقاً له مهما قيل ومهما حصل ، سنكون رفاق السلاح في كل معركة سلاح ، لأننا بهذا إنما ندافع عن القومية العربية ، وندافع عن أنفسنا ، وندافع أيضاً عن بلادنا .

ونحن دائماً سنسند الحق في كل معركة حق . وسنكون جنود الحرية في كل معركة حرية . لا نطلب ثمناً ولا نطلب شكراً ولا عرفانا بالجميل . ولا يضيرنا ان ينقلب علينا الذين ناصرناهم لأننا نعتبر هذه رسالتنا » .

ولكن ما هي أهداف القومية العربية ؟ يجيب على هذا بقوله :

« نحن نشعر أن خط الدفاع الطبيعي عن العالم العربي هو وحدة العالم العربي ، وان خط الدفاع الطبيعي عن العالم العربي هو أن يشعر العالم اجمع ان من يعتدي على دولة عربية يكون قد اعتدى على جميع العرب في بلاد العرب » .

ومن رأي جمال عبد الناصر أنه لو كانت هناك وحدة عربية حقيقية عام ١٩٤٨ لما ضاعت فلسطين . وعندما تردد الكلام عن الوحدة والاتحاد اشترط لقيام أحدهما ضرورة وجود الإجماع التام الذي لا يرقى اليه الشك .

وعندما تمت الوحدة بين (مصر وسوريا) كان يدرك ان معركة حماية الوحدة ستكون اعنف المعارك .

وقد صور هذا في قوله : « لم اكن أشفق على نفسي من المعركة الكبرى التي كان لا بد أن نخوضها لحماية الوحدة اذا ما استقرت عليها إرادتنا » .

وقد اكد جمال ارتباطه بالأمة العربية : « إننا لا نستطيع أن نعزل انفسنا عن كفاح اخواننا . »

ولعل جمال عبد الناصر هو أول رائد عربي تكلم عن الوحدة والوعي معاً كجزئين لخلية واحدة واعتبرها سلاحاً من أسلحة النصر :

« نحن نتسلح بالوعي الكبير .

« سلاحكم في النصر هو الوحدة والوعي .

« سنتسلح بالوعي والاتحاد ، حتى نحافظ على حريتنا .

« ان الوحدة سبيلنا الى القوة .

« القوة هي سبيل الوحدة .

« وان الوحدة هي سبيل القوة .

الاقتراض من الغير

من أبرز معالم دعوة عبد الناصر « الحرص على أن لا نقترض المذاهب او نستورد الافكار » . ولقد كنا في ما مضى نعيش على أفكار الآخرين . كنا تابعين للغرب ، وكان لا بد لنا من استيراد افكاره ومذاهبه . ولقد كان للاستعمار عمل محكم دقيق في سبيل حمل الشعوب المحتلة على ان تسير في ركبه . وفي هذا المعنى يقول (ارنولد توينبي) الكاتب البريطاني : « ان الدولة التي تقترض من احدى الحضارات فكرة واحدة أو نظاماً واحداً ستضطر مع الزمن الى اقتراض جميع افكار هذه الحضارة » . ولقد كان لهذا اثره ، فقد تصارعت الثقافتين الانجليزية والفرنسية في مصر وكان لكل انصارها ، وبذلك عملت سياسة الغرب على تصدير الافكار والنظم الى الدول الصغرى كمقدمة لتأكيد بقائها واستمرارها في هذه البلاد .

ولقد كان أبرز ما عمل في سبيله جمال عبد الناصر هو انه دعانا إلى ان لا نستورد المبادىء . وقد صور هذا في اكثر من موضع من خطبه وكتاباته :

« اننا لا نبني المجتمع الجديد فقط ، وانما نحن نضع تصميم هذا المجتمع لانفسنا قبل ان نبنيه . فان ظروفنا تختلف عن ظروف غيرنا – ولا يمكن لنا ان ننقل تجربة مجتمع آخر . ولكنا مطالبون بأن ندرس تجارب الآخرين حتى نستطيع ان نستفيد منها . ولكنا لا نستطيع بأي حال من الاحوال ان ننقلها ، ونستوحي هذا التصميم من ظروفنا . صممنا على ان الخطوط الرئيسية لهذا التصميم هي : الاشتراكية التعاونية الديموقراطية »

« لقد وضعنا لانفسنا نظاماً يلائم ظروفنا : انه نظام يستطيع كل فرد فيه ان يبرز كفاياته الخلاّقة وان يستفيد بها . »

ولم تقف دعوة عبد الناصر عند « عدم الاقتراض » وانما دعا شعبه ، ممثلا في جامعاته وعلمائه الى « الإبداع » :

« قد عشنا حتى الآن في نهضتنـا الحديثة عالة على افكار ومخترعات صنعهـا غيرنا ، فيما خلا جهود فردية متناثرة . ولم يعد يكفينا في العالم المتحضر أن نفخر بأننا في هذا الاقليم قد رفعنا مشعل الحضارة لأول مرة . ومن الإسكندرية قد تسلمته اثينا . كذلك لم يعد يكفينا ، كعرب ، أن نباهي بأنـنـا حفظنا علوم الحضارة وافكارها بينما كانت اوربا غـارقة في ظلام القرون الوسطى ، ثم اسلمنا التراث اليها في مطلع عصر النهضة ، وذهبنا نحن نغط في نوم عميق . ولم يعـد يليق بآمالنا أن نعيش على الآخرين، ولاعاد يليق بهذه الآمال أن تتعلق بالماضي. وإنما علينا ان نتحول الى قوة خلاقة . تأخذ من الآخرين ولكنهـا تعطيهم ، وتساهم في صنع المستقبل بطريقة ايجابية بناءة . وأن نعد انفسنا في هذا السبيل لرحلة طويلة لانهاية لهـا ، فان العلم والفكر يسيران الى الأزل من غير حد ولا نهاية » .

وهكذا كان من ابرز ملامح شخصية جمال عبد الناصر ذات الفـاعلية في مجتمعنا العربي « عدم الاذابة » والايمان العملي بكسر قيود الانضواء تحت أي مذهب من المذاهب الشرقية او الغربية؛« لقد عبّد السيل الثوري الذي انطلق ليلة ٢٣ يوليو ـ تموز ـ مجراه ، لم يأت أحد من الخارج يحدد لنا هذا المجرى ولم تتمكن هذه المحاولات ، ولم تتمكن هذه الاعتراضات بأي حال من الاحوال ، أن تجعلنا ننحاز ، أو نتحول عن المجرى الذي اردناه بدمنـا وروحنا . بل استطاعت الثورة ، واستطاع السيل الذي انطلق يوم الثورة ان يسير كنهر خـالد » .

والكرامة

لا أعتقد أن هناك « أزمة » من أزمات الشخصية العربية كانت أبعـد أثراً في امتنا العربية من « محنة الذل » الذي فرضه علينا الاستعمار والاحتـلال والاقطاع والحزبية والملكية في صف واحد . فقد كان هؤلاء جميعـاً يحاولون تحطيم معنوية هذه الأمة متجمعين في الغاية ، ولكن كلاً منهم كان يعمل هـذا

لحسابه الخاص ولمصلحته .

ولقد طال بنا الاحساس بالذل . والاحساس بالهوان . والتضاؤل . وماتت في نفوسنا جميع المعاني السامية العالية . وحطموا في عقولنا عظمة أمجادنا ، وحطموا في قلوبنا جاهنا العريض . فكيف عدنا مرة اخرى الى مكان القوة والصدارة ...

لقد جاء عبد الناصر فدعانا الى « الكرامة » وألح في الدعوة اليها ، وكرر هذا في كل مناسبة ، ولكنه كان في كل مرة يستثير في نفوسنا معنى جديداً . فهو مرة يقول :

● «اننا احرار في وطننا ،نقبل المبادىء التي نراها في مصلحتنا ونرفض المبادىء التي تمثل التبعية وتمثل الإلحاد . »

ويعاود المعنى مرة أخرى :

● « إننا لن نرضخ أبداً . بل سنكون أشد اصراراً واشد ايماناً واشد عزماً. »

ولا يلبث أن يقول :

« اننا خلقنا لكي نعيش احراراً او نموت فداء هذه الحرية .. لا حياة مع الذل . لا حياة مع الاستعمار . لا حياة مع السيطرة. لا خير في ان نعيش اذلاء ولا خير في ان نعيش عبيداً . »

وفي حديث له مع كرانجيا الصحفي الهندي يقول: «هناك امورتتعلق بالكرامة والعزة والمبادىء ، وهذه الأمور لا يمكن شراؤها او بيعها ، وعلى الدول الكبرى ، من روسيا الى امريكا ، أن تدرك الأمور التي تمس كرامة الشعوب الأسيوية الأفريقية » .

ومضى يقول : ان على من يريدون ان يعملوا مستقلين ان يكونوا مستعدين لدفع الثمن .

واذا كان جمال عبد الناصر قد الغى مشاعر حكامنا في الماضي ،التي كانت تذل وتنحني للسفير البريطاني ، وتهتز وترتعش لأن سفينة بريطانية سوف ترسل الى

الاسكندرية للتهديد فتستقيل الوزارة ويسحب المشروع ويقدم الاعتذار الواجب ، اذا كان جمال قد قضى على هذه الصورة ، فإن هذا الاصرار على الكرامة هو ايضاً «معلم واضح» من معالم شخصيته قبل ان يكون مظهراً من مظاهر حياتنا بعد الثورة ، ولولا انه هو شخصياً يؤمن به في أعماق نفسه لما تحول الى طابع من مظاهر حياتنا السياسية والاجتماعية بعد الثورة . ومن شرط الكرامة الا توجَّه الينا ضربة دون ان نردها مضاعفة .. نحن نرد على كل ضربة توجه الينا بعشر ضربات .. هذه سياستنا . قد نسميها سياسة غير متسمة بالصبر ، ولا بالحكمة . ولكننا نعتز بكرامتنا ونقدر لها ثمناً غالياً جداً » .

بناء الوطن

وجمال عبد الناصر مؤمن بوطنه حق الايمان . يعمل له ليل نهار لا يكل، ولا يصيبه الملل « انه وطن غال نعتز به . ثمنه الوحيد هو أرواحنا ودماؤنا وأجسامنا، وكل عرق ينبض فينا . اننا سندافع عن هذا الوطن لآخرة قطرة من دمائنا . »

« إننا خلقنا لكي نحيا بين أرجاء وطننا ، ان امامنا عملاً كبيراً ، ان امامنا طريقاً شاقاً صعباً . ولكننا حزمنا ارادتنا وصممنا على ان نسير لنبني امتنا ونبني وطننا . »

« ليس امامنا إلا ان نعطي دماءنا . وليس أمامنا الا ان نمطي ارواحنا في سبيل بلادنا . »

« سنعمل من اجل بناء وطننا : لا سادة ولا عبيد . سنعمل من اجل تطوير اقتصادنا . سنعمل على تقريب الفوارق بين الطبقات . سنعمل من اجل إقامة مجتمع اشتراكي ديموقراطي تعاوني . »

« اننا سنحمي هذا الوطن العزيز حتى تسود الرسالة التي آمنا بها . »

وهو يفهم حق الفهم رسالته « لا كرامة لجائع ، ولا قوة لمريض ولا طمأنينة لمن لا بيت له ، ولا مقاومة ولا صمود لمن لا يطمئن الى غده » .

وهو يؤمن بحق الفرد ويعرفه معرفة كاملة :

« اننا نؤمن بالفرد وحرية الفرد ،وشخصية الفرد، وحقه في العمل ، ما دام هذا يتمشى مع الدستور ومع مصالح الشعوب ، ولكن لا نؤمن ابداً بالفردية ولا الانتهازية المستغلة ».

ولكن كيف كانت مهمة بناء الوطن من جديد :

« نحن نعرف اين تقع خطانا ، وندرك صعوبة المهمة التي نسعى اليها . اننا نريد ان نصنع مجتمعاً جديداً . ان محاولة صنع مجتمع جديد كمحاولة تغيير الطبيعة . علينا ان نزيل الجبال العاتية عن رواسب قرون الظلم والاستعمار والفساد . علينا ان نتخطى عقبات الزمن الذي ضاع علينا حتى الآن » .

وأوضح تفاصيل ذلك في اكثر من حديث : « لقد وضعنا لأنفسنا نظاماً يلائم ظروفنا : هو النظام الاشتراكي الديمقراطي التعاوني . انه نظام يستطيع كل فرد فيه ان يبرز كفاياته الخلاقة وان يستفيد بها .

وان على الدولة ، عندما يعجز رأس المال الخاص عن تحقيق ما تتطلبه مصلحة المجموع، ان تتدخل لتكفل زيادة الانتاج ، ولتمنع التحكم وتقضي على الاحتكار».

ويؤمن جمال عبد الناصر بأن «الحرية لا تنفصل عن الخبز . والمساواة لا تنفصل عن الحرية . – ولا يمكن ان يكون فيه حرية بدون مساواة ويكون فيه ناس مميزين ولهم الحق في كل شيء . وناس آخرين محرومين من كل شيء –» .

ويركز جمال في بناء الوطن على بناء البشر « ...ان استمرار المجد أو انتهاءه يتوقف على البشر . ان بناء البشر هو الصعب العسير » . وعليكم ان تخلقوا جيلاً آخر من القادة ، هذه القيادة المبنية على انكار الذات .

وهو يرى ان ايمان الفرد هو نقطة الارتكاز في البناء : كنت اؤمن قبل الثورة – وكان معي اخواني يؤمنون – ان الفرد منا مهما كان موضعه في المجتمع يستطيع ان يؤثر في هذا المجتمع تأثيراً كبيراً . وان الفرد اذا آمن بالمثل العليا واذا اتخذ سبيل التضحية ابداً يستطيع ان يمشي في رسالته وهو مؤمن لا يخاف ما قد يقابله من اضرار لشخصه . وطبيعي ان الانسان اذا آمن هذا الايمان ، يجد نفسه في السعادة التي يتمناها ».

وصور جمال المجتمع الذي يحلم بتحقيقه :

«ان المجتمع الذي نبنيه هو مجتمع ينبت متوافقاً مع ظروفنا ومع طبيعتنا . واعلنا ان هذا المجتمع : مجتمع اشترا كي ديمقراطي تعاوني . مبني على القضاءعلى الاحتكار . والقضاء على سيطرة رأس المال علىالحكم ، واعطاء الفرص المتساوية لجميع ابناء الوطن . »

«واننا حين نقضي على الاقطاع لا نهدف الى تحويل الملاك الى اجراء ، وانما نهدف الى تحويل الاجراء الى ملاك » .

ثورة وليست انقلابا

لقد حقق جمال عبد الناصر الكثير : حقق الجلاء بعد معارك مريرة مع الاستعمار وبعد سبعين عاماً من الاحتلال. وحقق تحرير الوطن من اعوان الاستعمار والاقطاع وسيطرة رأس المال على الحكم . وحقق كسر قيد احتكار السلاح وكسر قيد الحصار الاقتصادي . وحقق الوحدة بين مصر وسوريا . وهو بذلك قام بعمل لم يتأت لزعيم واحد ان يقوم به ؛ قام بعمل الزعيمين وشنطون ولنكولن : الاستقلال والوحدة .

وقد كفى كل منهما فخراً ان قام بأحد العملين ، اما جمال فقد قام بذلك كله، وهو يصور هذا في وضوح حين يقول « كان يراودني احياناً، ان جيلنا تحمل الكثير من المعارك . وكنت اقول ان من حق جيلنا أن يحمل وحده شرف اعظم معاركنا ، ولا يترك فيها ما يحمله امانة لمن يجيء بعده من الأجيال » .

وهو يؤمن بالشعب ايماناً عميقاً صادقاً ، ولعله أول رائد في الشرق استطاع ان يتحدث مع امته بصراحة ووضوح ، واتخذها مرجعه في كل ملمة ، فما من حدث من الأحداث او خطر من الاخطار يبدو في الأفق حتى يكون جمال عبد الناصر على منبر الأزهر او في قلب شوارع القاهرة ودمشق والاسكندرية بين

الموج المتـلاطم من الشعب فيعربة مكشوفة ... وهو يصور هذا حين يقول :
«انه كلما تجمعت الأحداث قصدت الى شعبي ، ان شعبي هو جيشي وهـو قوتي . بل هو درع الامان بالنسبة اليّ» .

ولكن جمال عبد الناصر بالرغم من هذه الاعمال العظيمة التي حققها يرى ان الثورة لم تتحقق بعد ، وان الذي حدث حتى الآن هـــو الوصول الى « ابواب الثورة» فقط .

« إن الثورة لم تتحقق حتى اليوم . إنني أشعر اننا وصلنـا الى أبواب الثورة فقط . وان التغيير الجذري الذي يجب أن يحدث في مجتمعنا لم يتم بعد ، وانما هو على وشك أن يبدأ » .

« إن الثورة هي عمل إيجابي جذري لتغيير الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في وطن من الأوطان ، من الحال الذي هو عليه فعلا الى الحال الذي يجب ان يكون عليه . محاولة جذرية لتغيـير ما هو كائن بما يجب ان يكون . الثورة وصول إلى القوة لتحقيق تغيير جذري في الأوضاع ، والانقلاب وصول الى القوة من أجل القوة . الثورة في حقيقتها محاولة لتغيير أساس المجتمع » .

ويتوسع في تصوير حقيقة الثورة فيقول : « ان الثورات الأصيلة لا تقوم ولا تنجح الا إذا كانت هناك حاجة ماسة اليها في المجتمع الذي يقبلها كحل اخـير لتحقيق امانيه وآماله . »

ويصور موقف الجيش من الثورة فيقول « ان الجيوش ليست منظمات للعمل السياسي ، ومن ثم فإن القيام بالثورات ليس من طبيعة اعمالها . ومعنى ان تلجأ الشعوب الى جيوشها لتغيير الأوضاع فيها، معنى هذا ان جميع المنظمات السياسية لم تعد قادرة على العمل : إما لضعف فيها ، واما لأنها ضلت الطريق ، وعجزت عن تحسس مطالب الجماهير والتجاوب معها » .

ولقد ترددت كثيراً المقارنة بين الثورة والانقـلاب : وهل ما وقع في مصر عام ١٩٥٢ ثورة أو انقلاباً . أجاب عبد الناصر عن هذا في وضوح وإبانة : ان هناك فرقاً بين الانقلاب والثورة. لان الانقلاب يسعى للوصول الى الحـكم، وبعد

ذلك يرتب لنفسه دعامات ومقومات واسباباً للبقاء في الحكم ،ولم تكن هذه الثورة انقلاباً ، ولم تكن تهدف الى ان واحداً او أناساً يحكمون . وفي ١٦ يوليو ـ تموز ـ ١٩٥٦ ،حصل استفتاء على رئيس الجمهورية ، وكانت موافقة ٩٩ في المائة، وقيل في الجرائد الاجنبية : ان هؤلاء الحكام سيستريحون بعد ذلك خلال ست سنوات . ولهذا ليس ممكناً انهم سيثيرون متاعب مثل ما كانوا يفعلون في الماضي . وسيتحولون الى سياسيين . في هذا الوقت كان املنا ان نبني السد العالي الذي هو ضرورة لازمة لنا ولحياتنا ، لأجل أن نضع «المجتمع الاشتراكي الديمقراطي» موضع التنفيذ ، وفي شهر يوليو ـ تموز ـ وبعد شهر واحد من الاستفتاء ، وقبل مرور السنوات الست سحبوا عرض تمويل السد العالي . وكان هذا ضربة لجميع آمالنا . سحبت امريكا العرض وسحب البنك الدولي العرض وسحبت بريطانيا العرض . وقد فهموا اننا اصبحنا سياسيين محترفين . وعندنا صك ست سنوات . وسنحافظ عليها الى ان تنتهي . ولكن هذا كان كلاماً فارغاً ، لأن نتيجة هذا السحب نتيجة التعرض لعزتنا ثم نتيجة محاربتنا اقتصادياً في اكبر مشروع اقتصادي. .قلنا لا بد ان نأخذ قناة السويس وليكن مايكون. ذلك لان الثورة ليست انقلاباً . ولها طريق محدد ، لا بد ان تمشي فيه . ومن يأخذ مسئولية القيادة ، او مشقة القيادة في هذا الطريق ، لا بد ان يتحمل هذه المشقة ويتحمل هذه المسئولية .»

وجمال يحرص اكثر ما يحرص في ثورته على ثلاثة خطوط عريضة :

هو ان لا تنحرف ثورة ١٩٥٢ كما انحرفت ثورة ١٩١٩ فتصبح حكماً وتنسى اهدافها الحقيقية . وان لا تقترض المذاهب او تستورد الافكار فان لنا شخصيتنا الواضحة التي تتغذى بكل الآراء دون ان تتشكل بها او تدعها تغير ملامحها . وان مذهبنا فى السياسة او الاقتصاد والفكر منبعث من داخلنا ...« اشتراكية ديمقراطية تعاونية» .

الرجل الذي لا ينحني

ان موقف الغرب من جمال عبد الناصر يمثل أضخم معركة في تاريخ الأمة العربية . فلأول مرة يواجه الغرب رجلاً قوياً لا يستسلم ولا ينحاز ولا يسير في الطريق الذي رسموه للساسة والقادة والزعماء منذ سبعين عاماً . وكان هذا بالنسبة للغرب «جريمة كبرى» تثير الأعصاب ، وتدفع الى العمل المتصل لمحاولة تحطيم الشخصية الجديدة العملاقة التي لم تستسلم . فكانت المؤامرات من كل نوع وصنف . وكانت حملات الصحف المندفعة المتوالية . وكانت في النهاية مغامرة السويس الفاشلة .

يقول جمال عبد الناصر : «اذا كان العدوان الثلاثي هو الذروة بالنسبة لما استطاع الاستعمار أن يفعله ، فلقد كان العدوان الثلاثي بالنسبة لنا ذروة رائعة . ذلك أنه كان البوتقة الحقيقية التي انصهر فيها التفكير الثوري» .

«...وليس من شك ان بريطانيا ما تزال تعاني من دوار السويس ـ الذي اصيبوا به على حد تعبير جمال عبد الناصر ـ فهم كالذئاب الجريحة يريدون الانتقام مني لأني استخلصت السويس منهم» .

لقد حاول الغرب ان يخدع جمال ، ولكن جمال اعلن بأنه من المستحيل ان يعطينا الغرب السلاح او يتخلى عن اسرائيل . وكشف ذلك حين قال :

«انها مغالطة واضحة ، فإن الغرب لن يسمح لنا بأن نكون قوة» .

وكان جمال اول من دعا الى عدم الاستيراد من الخارج : استيراد المبادىء والمذاهب . وأحيا الروح العربية التي كانت مبعدة منكورة ، بعد ان غطى الاستعمار هذه الروح بطبقة كثيفة من ركام الأكاذيب والمغالطات .

ولقد كان الغرب فعلاً في حاجة الى رجل قوي ليعرف ان مذهبه الاستعماري قد اصابه الفساد ، ولم يعد قادراً على خداع العرب لأمد اكثر من ذلك ، وليطهر المنطقة من ماض طويل امتد اكثر من مائة عام ، وكان لا بد ان يكون هذا

الرجل « غير عادي » حتى يستطيع أن يزيل هذه الآثار بقوة ، وأن يبني بيد ويحمل السلاح بيد . ولطالما اختارت الحياة لمهامها الخطيرة نماذج غير عادية من الرجال .

ولعل أبرز « معالم » شخصية جمال عبد الناصر الذي مكنه من تحقيق هذا النصر أنه من اعماق هذه الأمة : عاش آلامها وأحداثها بنفسه وأسرته جميعاً ؛ فلم يكن منعزلا عنها ولا غريباً عن مشاعرها . أحس بالاقطاع قريباً منه ، كما احس بضراوة الأحزاب وهي تفسح الطريق لسلطان القصر ، وتنحني لسلطان الانجليز . وهو حين قضى على الأحزاب وعلى الإقطاع وعلى سلطان القصر ، إنما كان يمهد للقضاء على سلطان الاحتلال . فسلطان الاستعمار كله في المنطقة العربية ؛ سواءً أكان هذا الاحتلال : احتلال جيوش أم احتلال أقطار أم احتلال أحلاف من أي نوع .

وكان واضحاً حين قال : « سنكافح من اجل القضاء على تحكم الدول الغربية . القضاء على النفوذ الطويل الذي تحكم فينا ، اننا لا نفرق بين شرق وغرب في السياسة او في الاقتصاد . ان العرب يطالبون بان تعطى لهم حقوقهم الطبيعية في الحياة ، دون أن تضيع شخصيتها أو تنتقص من استقلالها » .

وهو يضع هذا المعنى في صورة اخرى يقول : لقد ولدنا والانجليز في بلادنا ، لم نحس يوماً بالحرية ، ولم نحس يوماً بالاستقلال . ولذلك سنكافح لآخر قطرة من دمائنا حتى يحس الجيل الجديد بحلاوة الاستقلال .

وهكذا هزّ عبد الناصر الشجرة الضخمة التي كانت قد جللت هاماتها الأوراق الصفراء . وكانت دعوته الى الحرية واضحة صريحة ، لم تكن تحمل الصورة الباهتة التي عاشت المدرسة الحزبية خلال ثلاثين عاماً ترددها ؛ كانت عباراته صريحة : « إننا نريد جلاءً ناجزاً . كاملاً غير مشروط ، قالها في ١٧ مارس – آذار – ١٩٥٣ بعد أن ماتت على ألسنة الزعماء منذ نفي محمد فريد عام ١٩١٢ وهكذا حق له ان يقول : « نلنا ما لم ينله تجار السياسة » .

ولكن « الجلاء » عن مصر لم يكن غاية أو هدف هذا الزعيم العملاق ، وانما

كان وسيلته إلى عمل كبير ، هو (تحرير الأمة العربية) وتحرير آسيا وإفريقيا .

ولكن الغرب لم يفهم جمال ولا دعوة جمال ، وظن أنه واحد من اولئك الذين يظهرون بين آن وآن ، فسرعان ما يطويهم الاستعمار ويضمهم الى صفه — فأراد أن يلقن الغرب درساً ، يكشف فيه عن حقيقته وجوهره ، وانه ممن لا يخدعون أو يضللون أو ينفع معهم الإغراء او الضغط والتهديد. وأنه من معدن جديد ، فيه الصلابة والعناد اللذان يمكنانه من أن يقاوم ويقف ويصمد ..

انه يؤمن بالشخصية العربية ، ويحلم ببعثها . وكانت دعوته في المنطقة كلها : أنه لا بد لنا ان نرفع رؤوسنا مرة اخرى ونقول للسفاحين : لا . لن نموت . انه يؤمن بعدم الانحياز . ويؤمن بأن لنا كياناً وسياسة ومذهباً وشخصية فلا نسير وراء الغرب او الشرق ، ولا نجري في ركاب أحدهما ولا نرتبط مع ايهما بأحـلاف .

ولذلك قاوم جمال حلف بغداد وشن عليه حملة ضخمة ، جمدت هذا الحلف عند العراق ، فلم يتعده إلى العالم العربي . وتحطمت محاولة ضم الاردن أو لبنان اليه .

وحطم عبد الناصر «قيـــد السلاح» : وكان السلاح بالنسبة الى العرب هو «مادة المقاومة» . ولأول مرة جرؤ زعيم المنطقة العربية ان يتحـــدى الغرب . ويفلت من قيود الاتفاقيات المفروضة ويشتري السلاح بدون قيد .

وكان لهذا التحدي دويّ شديد .. وصفه المعلقون الغربيون انفسهم بقولهم: « لقد اكره عبد الناصر الغرب على الركوع . لقد رفعت صفقة الاسلحة التشيكية عبد الناصر الى مرتبة الابطال .. »

واذا كان هذا رأي المعلقين في الغرب فما رأيهم في ضرباته المتواليـة : تأميم القنال وقيام الجمهورية العربية المتحدة ..

ان أبرع اعمال جمال عبد الناصر هو «توقيت ضرباته » : فانـه قد استطاع بصدق ايمانه وسلامة فطرته ان يختار لضرباته الوقت المناسب ، فعـل ذلك في صفقة الاسلحة والاعتراف بالصين وتأميم القنال ، وتعريب الشركات .

وقال ريتشارد كروسمان النائب البريطاني العمالي لجمال عبد الناصر :

« تستطيع ان تنتزع استقلال بلادك من انياب الاسد البريطاني ومخالبه حتى تمسك بالأسد فتجلد به الارض وتكسر له انيابه وتقص اظافره » .

وقال عبد الناصر « انه يعرف ذلك » ؛ وكذلك فعل ..

ونجح عبد الناصر وتألق وسقط خصوم العرب من المسرح السياسي : اختفى ايدن ودالاس وجي موليـــه وبينو وفيصل وعبـد الاله ونوري السعيد وشذاذ لبنان وعبد الله خليل .

واشتعلت في الغرب حملات التضليل والاتهام :

« سماني البعض في الغرب « هتلر النيــل» أو الاستعمار العربي . لقد وصفت في كثير من الاحيان بأني وطني عربي متعصب . فـاذا كان هذا الوصف اتهاماً لي فانني أعترف بصحة جزء منه : ان اكون وطنيـاً عربياً . ذلك شرف لي . اما التعصب فذلك ما لا احاول ان اكونه » .

وقالوا : إن مصر شيوعية ، وان اقتصاد مصر يتهاوى وكذبت الأيام اتهامهم . وزورت نشرات وإذاعات . وقامت اذاعات سرية في المنطقـــة العربية لإثارة الشكوك والمخاوف . وحاولت بعض الدول العدوان غير المباشر بالدعاية والتسلل والرشوة ؛ وفشلت هذه المحاولات .

وكانت الحمـلات العدوانية من جميـــع الجهات : من الصهيونية والغرب والشيوعيين وفشلت هذه الحملات واضطرت كل هـــذه الجبهات ان تسلم بقوة عبد الناصر وبطولته .

وقال «جمال» انه يريد ان يفهمه الناس في الغرب ، وكان لا بد أن يـدرس خصوم عبد الناصر كلامه المنطقي الواضح الذي لا يحمل روح الخصومة او الحقد:

« ان الظروف التي مرت بنا في الماضي لا تزال تؤثر في تفكيرنا إلى درجـة كبيرة . فإذا اردتم الوقوف على الطريقة التي نفكر بها ، فعليكم ان تحاولوا فهم شيء من تاريخنا . فقـد مكثنا خمسمائة سنة تحت الحكم العثماني ، ثم أمضينا ٧٥ سنة تحت نير الاستعمار البريطاني . ثم وصلنا الى الاتفـاق مع الانجليز بشأن

الاستقلال والمحالفة معهم اثناء احتلالهم لبلادنا ، ولكننا خدعنا في الحقيقة لأن هذه الاتفاقات كانت كلها زائفة ..

« .. ان ما بنا من عقد نفسية أننا نريد الاستقلال ؛ فاذا قلتم انه يجب استبدال الاحتلال بمعاهدة ، فاننا سنعتقد تواً : انهذه المعاهدة ستكون احتلالاً في صورة جديدة ، فالمحتلون دائماً يخرجون من الباب ليعودوا من النافذة ؛ هذا هو تفكيرنا ؛ ثم انه يجب عليكم قبل كل شيء ان تذكروا كفاحنا خلال هذه السنين الطويلة من اجل امانينا الوطنية .

« نحن شعب ملأ الاحتلال الطويل قلوبنا بالشكوك ، اننا نريد فوق كل شيء أن نحس بأننا احرار » .

وهكذا كان جمال عبدالناصر رد فعل لمدرسة أمضت أربعين عاماً تحكم مصر باسم الصداقة البريطانية ، وكان تعويضاً لسبعين عاماً من الاحتلال البغيض . ولكي نعرف جوهر شخصية عبد الناصر ورسالته يجب ان نعود الى الماضي ونتصور كيف كان ؛ وزعماء مصر وملوكها كيف كانوا يعيشون ويعملون . فاذا راجعنا ذلك وجدنا عبد الناصر يمثل الجانب الآخر تمثيلاً صحيحاً ؛ انه الرجل الذي جاء بعد فاروق، فكان من الطبيعي أن يختلف معه اختلاف الفجر الذي يجيء بعد الليل الأسود . وانت لا تجد صفة لحاكم في الماضي الا وتجد نقيضها في عبد الناصر . ذلوا للاستعمار وسلموا البلاد وأهانوا كرامة مصر ، فجاء هو ليرد الى مصر كرامتها . كانوا يؤمنون بالالتواء فآمن بالصراحة . كانوا يستسلمون وقاوم هو . كانوا يخافون الشعب وصارح هو الشعب . كانوا يؤمنون بالحزبية وآمن بالوحدة والتجمع . كانوا يتطلعون الى المصالح الخاصة ، وعمل هو كل دقيقة من حياته للوطن . كانوا يحطمون نفسية الشعب ورفع هو معنويات الشعب . كانوا يشجعون الإقطاع وسحق هو الاقطاع ، كانوا يؤمنون بالهوى وحوّل العاطفة الى عمل ايجابي .

ونقلنا جمال من القومية الضيقة الى الوحدة العربية . وحولنا جمال من الاتجاه الى جري العبيد اللاهث وراء قشور الغرب الى العمل الايجابي الصادق مع

الايمان بكياننا .

كنا نذكر بطولة نابليون فاصبحنا نذكر عظمـة صلاح الدين ، كنا نفاخر بأننا نتكلم الفرنسية فأصبحنا نتكلم العربية في اعتزاز . وزالت دولة الإقطـاع وارتفع علم الفلاحين . ورأينا الكيان العربي يمتد من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي ، شعب واحد يكافح متحداً متكاتفاً من اجل حقه في الحرية ..

ولم تطمئن ثورة ١٩٥٢ كما اطمأنت ثورة ١٩١٩ .وبذلك تفادى جمال عوامل انتكاس ثورة ١٩١٩ ، عندمـا كان الحكم مطمعاً ،وضاعت هدراً دمـاء الذين استشهدوا برصاص الانجليز .

وكانت شعبية جمال عبد الناصر في العالم العربي شيئاً مهولاً ضخماً .. لاحد لتصورها، جمال الذي كان يسير في طريقه الى الأزهر لأداء صلاة الجمعة في الوقت الذي كانت الطائرات تضرب القاهرة ..

ولذلك فقد احتلت صورة عبد الناصر كل بيت في العالم العربي ، عندمـا وصل الى دمشق ، قطع الناس آلاف الاميال واخترقوا الجبال كي يروه، واثارت شعبية جمال الغيرة والحقد في نفوس عمـلاء الاستعمار في العالم العربي حتى قال احدهم : ان كل صحف العـالم تقول عن ناصر انه عملاق ، وماذا نحن اذاً .. هل نحن الى جواره اقزام !

بل ان الغرب نفسه عندما هاجم مصر في معركة القنال كان مخطئاً في تقدير شعبية عبد الناصر . فقد حاولت بريطانيا استعادة مركزها كدولة عالمية عندما اقدمت على هـذه المغامرة وقالت « اذا احتللنا للسويس كرة اخرى فعندئذ نصبح من جديد الدولة المهيمنة على الشرق الاوسط » . وكان اليوم الذي حـدد للاجتماع بجنيف لتسوية مسألة القنال ، هو نفس يوم العدوان .

وقاوم الشعب في عنف . وحمل الشعب كله السلاح ، ودهش العـالم لبطولة المصريين ، وهب العرب من كل مكان فنسفوا انابيب البترول . وصمد المصريون في وجه المحنة . وواجه جمـال الموقف في بطولة وبراعة ، وقال: سأقاتل حتى الموت . وهزم المعتدون واضطروا للانسحاب . وخسر الغرب قوافل القنـاة

أربعة شهور فانقطعت عنه وارداته وتوقفت صادراته واظلم ليله .

وعندما أمم جمال قناة السويس كان يعرف واجبه ، وكان يتصرف في حكمة بالغة ، فالقناة تسير في نظـــام كامل .. لم تتوقف لحظة ، حتى عندما انسحب المرشدون كان عبدالناصر قد أعد عدته لهذه اللحظة الحاسمة . وكان القادة في الغرب يصرخون في غيظ وحنق ويتصرفون تصرفـاً مذهولاً .. في نفس الوقت الذي كان عبد الناصر يتصرف في حكمة ويقـــدم اقتراحات ويرسم خططاً ويعرض التعويض العادل .. في كياسة ومرونة أكسبتاه تأييد العالم كله وثقته ...

عندما قالوا له : لا بد من إشراف دولي على القنـال . قال : إنه لا بد من بحث ذلك بالنسبة لجميع الممرات المائية بما فيها قناة « بنما » ومضيق جبل طارق والدردنيل .

ولطالما أعلنت بريطانيا أنها تخلصت من هذا الزعيم او ذاك . ولم يعد هـذا الوهم قائماً بعد ضربات عبد الناصر التي كالها للاستعمار ؛ كان ذلك في الماضي ، اما اليوم فان بريطانيا فقدت مثل هذا التأثير على الشعوب او الزعماء .

لقد حاولت بريطانيا في حملة السويس اسلوبهـــا في الضغط لإحداث تغيير داخلي ولكنها فشلت . كان في اعتقادها أن القوة تسقط عبد الناصر ، ومن ثم يقوم زعيم آخر يعقد اتفاقية مع البريطانيين حول إدارة القناة . ولكنهم عجبوا أشد العجب عندما وجدوا أن العدوان زاد الشعب التفافاً حول عبد الناصر .. حتى انه سمع الشعب بنفسه في ميدان باب الحديد يقول « سنحارب » فرددها الرئيس مع شعبه المحب له .

وعبد الناصر صاحب الأعصاب الحديدية عاش شهور تأميم القنـــاة قبل العدوان يسمع ويرى مختلف صور التهديد . قوات تنقل الى قبرص . اذاعـات تهاجم ، صحف تحمل كلمات الهجاء .. ولكنه كان قويا مؤمنا بحقه . مليئاً بالثقة في الله وفي الشعب وفي نفسه . لقد قابل ذلك كله بابتسامة ساخرة .

ووقف جمال كالعملاق فوق قمة الجبل وتهاوى خصومه .. ، ولعل آية ذلك انه لا يواجه الخصومات بمثلها ولا ينزل الى مستواها ، ولكنه يقف موقف الرجل

الكبير الذي يعطي ولا يأخذ ، صريحاً ، صادقاً .

لقد علّم عبد الناصر الغرب درساً، علمه أن عهد الاستعمار قد انقضى وجاء دور الشعوب اليقظة الواعية التي تستطيع ان تقول لا ..

وعلم الأمة العربية درساً: القضاء على السلبية، والوحدة، والثقة، والوقوف في وجه الاحداث في ثقة وايمان .

سئل عبد الناصر : ما هو اعظم عمل في نظرك قمت به :

قال : **لعله اعادة الشعور بالكرامة** الى الشعب !... نعم ...

لقد أعاد جمال النبض الى قلب العرب .

الشخصية العربية
حينما تتمثل في صورة بطل

الشخصية العربية ، كأي شخصية انسانية ، لها ملامحها الواضحة ، ومعالمها الكاملة التي تكونت على مدى الزمن الطويل ، وأخذت سمتها خلال الزمن الطويل وعبر القرون حتى اصبحت محددة معروفة . تخطر بالبال حينما يرد ذكر هذه الأمة العظيمة المجيدة ، التي عاشت حياة خصبة ايجابية تؤثر في الحضارة الانسانية ، وتحمل أمانتها وتزيد فيها . ثم تمد يدها بها شرقاً وغرباً . والتي شاركت في أحداث البشرية وتطوراتها، فكانت قوة واضحة الأثر، حتى ليمكن القول بأن حدثا عالمياً واحداً مهما جل أو دق الا وهو متصل بها او هي بعيدة الأثر فيه .

ومرجع ذلك الى انها تقع في منطقة عظيمة الخطر وبين قارتين كبيرتين . من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي . وتجمعها روابط ضخمة حية ، قوامهاالطبيعة والتاريخ والدم واللغة والعقائد والسلامة المشتركة والحرية .

لقد كانت شخصيتنا العربية في تاريخنا كله حية لم تمت . وان اصابها الضعف فترات متباعدة . وهي شخصية واضحة المعالم . موحدة الملامح . فيها الحيوية والقوة والبساطة والانطلاق والكرامة والإيمان بالكيان والذود عنه بالاجساد المتراصة اذا اعوز السلاح .

وتبرز ملامح شخصيتنا العربية في صور من الرجال : عمر مكرم ويوسف العظمة وعبد القادر الجزائري وجمال عبد الناصر واحمد عرابي وابراهيم هنانو وعمر المختار وشكري القوتلي ومحمد فريد .

وقد ظلت هذه الشخصية التي اكتملت معالمها الأساسية منذ عهد بعيد تمضي خلال القرون ، يعتورها الضعف فترة قد تطول او تقصر ، ثم لا تلبث ان تسترد قوتها مرة اخرى عندما يبرز من أعماقها منقذ جديد يقودها الى النصر. وكذلك هبت القومية العربية بقيادة عمر بن الخطاب وصلاح الدين وجمال عبد الناصر . وهي حين تضعف تظل محتفظة بأبرز الخطوط التي تحدد معالمها . ولكنها لم تمت أبداً بالرغم من توالي غارات المستعمرين من الخارج او المستبدين من الداخل .

وقد احتلت هذه المنطقة من جانب الفرس والروم والترك والانجليز والفرنسيين . ولكنها استطاعت ان تحتفظ بشخصيتها وقضت على كل محاولة أريد بها القضاء عليها .

بل ان العثمانية التركية التي أقامت حوالي اربعماية عام تسيطر على الامة العربية محاولة التغلغل في اعماقها ، لم تتمكن من التأثير على طابع شخصيتنا الواضح . وفشلت كل محاولة لإقامة الجامعة الطورانية التي كانت تهدف الى تتريك العرب .

وكانت انتفاضة القومية العربية ، في وجه هذه الموجة هي العامل الأول في تحطيم الامبراطورية العثمانية وتمزيقها ايدي سبا . كما كانت القومية العربية منذ ثلاثة عشر قرناً عاملاً هاماً في تحطيم أمبراطوريتي الروم والفرس .

وترجع قدرة شخصيتنا على مواجهة الاحداث وصد التيارات المختلفة التي توالت عليها منذ فجر التاريخ إلى اليوم ، إلى عوامل اصيلة في هذه الشخصية نكشف جانباً منها هنا :

أولاً : تمر السنوات في ظل حكم الطغاة والمستبدين او المستعمرين حتى يخيّل للمراقب للأحداث ان شخصيتنا قد استنامت الى الذل ورضيت بالهوان ، ثم إذا بالثورة تنفجر قوية عارمة مزلزلة ، يدهش لها الناس ، ويعجبون لروح القوة

والحيوية الكامنة في أعماق الامة العربية ... هذه الروح التي تصبر طويلا ولكنها لا ترضى بالهوان ..

حدث هذا في ثورات مختلفة ، قادهـا الشعب العربي في الجزائر وتونس ومراكش وليبيا ومصر والسودان وسوريا وفلسطين والعراق والاردن . وفي سنوات متوالية أبرزتهـا الثورة العرابية ١٨٨٢ والثورة العربية عام ١٩١٦ وثورات مصر ١٩١٩ والعراق ١٩٢٠ وسوريا ١٩٢٥ وفلسطين ١٩٣٦ والعراق ١٩٤٢ ومصر ١٩٥٢ .

ثانياً : اظهرت شخصيتنا اقطاباً قاموا بأدوار واضحة من التجديد والإصلاح كما اظهرت ابطالاً رفعوا الظلم وحطموا صروح الفساد . ثم جاءت ثورتنا المصرية العربية بقيادة جمال عبد الناصر فحملت امانـة حركات الاصلاح والتحرير في السياسة والاجتماع والفكر . نجحت فيما عجز عنه من سبقها . وأتمت رسالة من تقدمها وحققت احلاماً ظلت تعيش في نفوس الجدود والآباء والأبناء .

وقد دفعت ثورة جمال المصرية العربيـة الزمن الى الامام اعواما ، فسبقت الزمن دون طفرة ولا هزة .

وورثت امجاد جمال الدين الافغاني ومحمد عبده في الاصلاح الاجتماعي ، ومصطفى كامل ومحمد فريد في التحرير الوطني ، وحولت آمال الاحرار من أمثال عبدالله نديم والكواكبي وامين الرافعي وعبد الحميد بن باديس الى حقائق . واستطاعت ان تحقق ما عجز عنه هؤلاء الزعماء . كما تحقق لها ان تتجنب جميع ما صادفهم من عثرات حالت بينهم وبـين إتمام رسالتهم . وكما قضى احمس على الهكسوس . وقضى صلاح الدين على الصليبيين . وقضى الظاهر بيبرس على التتار ، كان أبرز عمل في رسالة جمال عبد الناصر القضاء على الانجليز قضاء نهائياً واخراجهم من الوطن العربي كله .

ويحمل جمال عبد الناصر صورة شخصيتنا . أيقظ جذوة الحرية في الامـة العربية كلها ، فبدأ عمله بقول ما زال خالداً : « ليحمل الاستعمار عصاه على كتفه ويرحل... » لا يرحل من مصر وحدها ولكن من العالم العربي كله . في آسيا وأفريقية

ولم يرحل الاستعمار من مصر حين رحل، بل تحطمت قواعده في الأمة العربية كلها من الخليج الى المحيط . وتحطم سلطانه النفسي عند بعض الذين كانوا لا يزالون يؤمنون به او يخشونه ، حيث اشتعلت ثورة الحرية في جميع جوانب المنطقـــة واضيئت شعلة الوحدة في اتحاد الأمة العربية .

وبدأت روح الوحدة الاصلية تتجدد بعد ان تبخرت الدعاوى التي صنعها الاستعمار اكثر من سبعين عاماً ليحول بين لقاء الأجزاء التي تمثل الكل. وافادت شخصيتنا من التجربة الماضية . رأى جمال عبد الناصر من « بلاك » عندما جاء ليتحدث عن السد العالي ، صورة ديلسبس وهو يتحدث عن شق قناة السويس . وحطم القيد الذي ظل يضغط على عنق العالم العربي اعواماً وقروناً ، وهـــو بناء المصانع الحربية والتسلح بالعتاد الحربي لحماية السلام ومنع العدوان .

وليس هذا غريباً عن طابع شخصيتنا الحقيقي · الذي اختفى فترة طويلة تحت ركام من ذل الاستعمار التركي والإنجليزي والفرنسي الذي جعل التواكل يستبد بنا فترة من الزمن .

ثالثاً : تظهر شخصيتنا الحقيقية واضحة في عبارات قصيرة للرئيس جمال :

● كانوا يريـدون ان يجمعونا كقطيع الاغنام المستأنسة في حلف بغداد ولكني رفضت .

● اننا لن نقبل ان نتلقى الاوامر من أحد .

● لن نكون ذيلا لكتلة من الكتل .

● ان الشعوب الحية لا تتهاون بعد ساعة النصر وتتراخى . انها في ذروة شعورها بالقوة تدرك ان النصر الذي حققته انما هو مرحلة على الطريق .

● الطغيان يضيع الذل . والجوع يقتل الكرامة . والاستبداد يعلم الخوف . والاستغلال يفقد العمل الشريف معناه

● خلال القرون الطويلة كانت اجيال شعبنا تكافح وتناضل . وكان الشهداء يسقطون صرعى على الأرض . وبجوارهم اعلامهم مضرجين بالدماء . ولكن

لا يستسلمون ابداً . كانت الجموع تحشد ولا يستطيع البارود ان يخنق تقدمها . ولقد اتيح لجيلنا ان يشارك في المرحلة الحاسمة من المعركة .

رابعاً : من أظهر معالم شخصيتنا : « الصمود وقت المحنة » . ظهر ذلك جلياً في معركة السويس ١٩٥٦ ، ومعركة المجلس النيابي السوري ١٩٤٦ خرجت مصر وسوريا تحمل السلاح ـ الوطن كله حمل السلاح . قاتلنا جميعاً بشرف . الرجال والنساء والاطفال والكهول والشباب .

وقبل ذلك وقفنا لصد تيارين خطرين : التتار والصليبيين . وفي معارك المنصورة وعين جالوت وحطين ودمياط قاومنا الغاصبين وسحقناهم .

لقد ثار العرب طوال فترة الظلم . ولم يقبلوا الضيم يوماً . وحاولوا ـ ولكن حكوماتهم كانت منعزلة عنهم ـ فلما جاء القائد الذي هو من صميم الشعب فعل ما اذهل الاستعمار . حطم احلامه في الداخل ، فاضطره الى ان يخرج مشيعاً بالخزي والعار ، فلما عاد مرة اخرى سحق قواته وأجلاه بالدم .

ولقد كانت هذه المنطقة العربية في طوال هذا الزمن موحدة مرتبطة ، لم تقم بينها فواصل الا بعد الحرب العالمية الاولى عندما مزقها الاستعمار ، وقد قاومت الامة العربية هذه الفواصل خلال اربعين عاماً. (١٩١٧ ـ ١٩٥٧) حتى استطاعت اليوم ان تقول إنها حطمتها .

واليوم بعد أن يتحقق الحلم الذي عاش في قلوب المجاهدين والمكافحين ورواد القومية العربية بقيام الجمهورية العربية المتحدة وقيام الجمهورية العراقية نجد أن ملامح الشخصية العربية قد وضحت تمـــام الوضوح في صورة إنسان كبير ورجل عظيم هو :

جمال عبد الناصر ، رائد العرب

فهرس

مؤلفات انور الجندي

● شخصية محمد	«تحت الطبع»
● الحياة العالية	١٩٥٧
● مائة اديب عربي معاصر	«تحت الاعداد»
● الانتفاضة العربية	« تحت الطبع »
● معالم الأدب العربي المعاصر	« تحت الطبع »
● الأدب العربي الحديث في معركة المقاومة والتجمع	١٩٦٠
● الأعلام الالف	١٩٥٦، ١٩٥٩
● العالم الاسلامي والاستعمار	١٩٥٨
● اضواء على الاسلام	١٩٥٨
● اعلام الاسلام	« تحت الطبع »
● الزهاوي شاعر الحرية	« تحت الطبع »
● الشخصية العربية	« تحت الطبع »
● من رواد القومية العربية	١٩٥٧
● التجربة والخطأ في الصحافة والادب	« تحت الطبع »
● أدب المرأة العربية	« تحت الطبع »
● وراء كل فنان امرأة	١٩٥٧
● ايام خالدة في تاريخ الاسلام	« تحت الطبع »
● زكي مبارك : حياته وادبه	« تحت الطبع »
● كامل كيلاني : رائد ادب الطفل	« تحت الطبع»